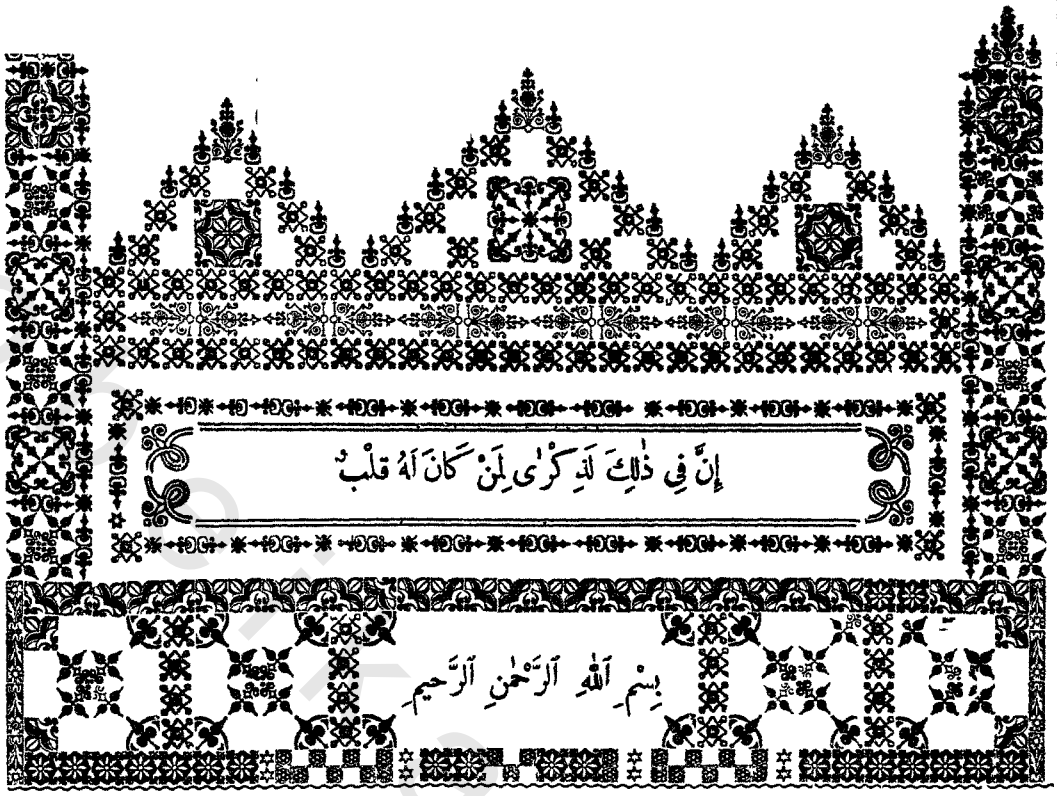

تفسير سورة ق

هى مكية

إلا آية : « ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب » فمدنية

آياتها ٤٥ — نزلت بعد المرسلات

وهى فى : اثبات النبوة والحشر

وذلك فى مبحثين

الأول : فى الطعن فى السموات والأرض ، وأخبار الأمم الماضية ، من أول السورة إلى قوله : « بل هم فى لبس من خلق جديد » .

المبحث الثانى . فى الكلام على الموت وسكراته ، وعلى الملائكة المراقبين حركات الانسان وسكناته ، وفى أحوال يوم القيامة ، من قوله : « ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه » إلى آخر السورة

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قٓ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ ۞ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۞
أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۞ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ
حَفِيظٌ ۞ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ۞ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ
فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۞ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ
وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۞ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ۞ وَنَزَّلْنَا مِنَ
السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۞ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۞
رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذٰلِكَ الْخُرُوجُ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ
الرَّسِّ وَثَمُودُ ۞ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ۞ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ
الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۞ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۞ وَلَقَدْ
خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۞ إِذْ يَتَلَقَّى
الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۞ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۞ وَجَاءَتْ
سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۞ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ۞
وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ۞ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ
غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ۞ وَقَالَ قَرِينُهُ هٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ۞ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ
كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۞ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ ۞ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللّٰهِ إِلٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي
الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ۞ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلٰكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ۞ قَالَ
لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ۞ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ۞
يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ۞ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۞
هٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۞ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ۞
ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ۞ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۞ وَكَمْ أَهْلَكْنَا
قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ۞ إِنَّ فِي ذٰلِكَ

لِذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ✲ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ✲ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ✲ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ✲ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ✲ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ✲ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ✲ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ✲ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ✲

المبحث الأول فيه ثلاث مقامات

المقام الأوّل فى تفسير البسملة .

المقام الثانى فى معنى « ق » .

المقام الثالث فى تفسير الآيات من أوّل السورة إلى قوله « بل هم فى لبس من خلق جديد » .

المقام الأول فى تفسير البسملة

للرحمة فى هذه السورة أدوار ثلاثة : دورالبداية ، ودورأهمّ النشاط فى الأعمال ، ودور النهاية ، وذلك كأدوارالانسان ، فهوشاب ، وكهل ، وهرم . وكأدوارقصة يوسف :

(١) فهو مع اخوته فى مشاكل الحسد ، والمنافسة ، والالقاء فى البئر ، ووقوعه فى شرك امرأة العزيز .

(٢) ثم فى حفظ مال الدولة المصرية والقيام بسياستها ، واكرامه اخوته وأبويه .

(٣) ثم انتهى إلى الله وقال : « رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطرالسموات والأرض أنت ولي فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين » :

✲✲✲

(١) هكذا الحكماء الذين عرفوا الله بعقولهم كسقراط ، فأوّل حياته شك فى نظام العالم ، وفى خالقه ، وعموم علمه ، فى مقابلة حسد إخوة يوسف ورميه فى الجب الى آخر ماتقدم .

(٢) ثم انه عثر على رأى أنكساغورس ، فعرف شيئا من الألوهية ، ثم استكمل علمه .

(٣) ثم انتهى الى انقضاء حياته .

✲✲✲

(١) وهكذا خاتم الأنبياء ، فهو فى مكة فى مشاكل ومجادلات ومخاصمات مع كفار قريش

(٢) وهو فى المدينة فاتح البلاد وناشر الاسلام .

(٣) ولما انتهى الأمر رجع الى ربه .

فهكذا هذه السورة ، فأوّلها انكار لنشأة والبعث ، وأوسطها الحثّ على النظر فى السماء وزينتها وبهجة بنائها ، وفى الأرض وجبالها الشامخات ، وزروعها النضرات ، ومطرها المدرار ، ونخلها الباسقات ، ودورها للمكلفين ، من عاد إلى أصحاب الأيكة وقوم تبع ، وما استحقوا من وعيد ومحاسبة ، ونهايتها تقريع

الانسان على أعماله ، وأنه مسئول عن دخائل نفسه ، فى مجالس أنسه ، وعند اخوته ، وفى خلوته ، وأنه محوط بالكرام الكاتبين ، يحصون أعماله ، ويرقبون أقواله ، حتى اذا جاءت سكرته ، وحانت منيته ، حوسب على قول كل كلمة ، وحوسب على كل عمل عمله ، وشهدت عليه الشهود ، وكشف له الغطاء ، ووقع الخصام ، واضطرب النظام ، وتعادى المحبون ، وافترق المجتمعون وغضب الرب غضبته ، فملأ جهنم بأهلها ، ورحم أعظم الرحمات بملء الجنة بذوى الايمان والصلاح ، ذلك لأنه لايجعل المتقين كالفجار ، ولاالمؤمنين كالكفار ، ولواستوى الخبيث والطيب لكان خلق هذه العوالم باطلا ، ولكان نظامه حائلا ، ولكن النظام معلوم ، ودوامه مصون .

وجه الرحمة هنا

وانما منى الانسان بهذه الوقائع ، واتصف بتلك المناقب والمثالب لأنه لايتسنى له الارتقاء الى الملأ الأعلى إلا بمعاناة الضدين ، ومقاساة الأمرين ، حتى اذا جاءت سكرة الموت كانت سكرة الطرب ، لاسكرة الجزع والهلع ، فبينما هو ينظر فى السماء كيف بنيت ، وفى الأرض كيف ازينت ، وفى الزروع كيف ابتهجت ، إذا به ارتفع الى عالم أجل ، وبهاء أكمل ، ومقام أرفع ، فعاناة الضدين ، ومقاساة الأمرين ، سلالم يصعد الانسان عليها الى العلا ، وصفت سكرة الموت المكروهة ليحترس منها ، ويجعل حياته حياة محو وعلم وعمل ، ليفارقها وهو مسرور ، لامختبط وهو مجبور . والى هنا تم الكلام على المقام الأوّل فى تفسير البسملة . كتب ليلة الأحد ١٥ نوفمبر سنة ١٩٣١ م

المقام الثانى فى معنى : ق

قد تقدم الكلام فى ﴿آل عمران﴾ وفى غيرها من السور كالعنكبوت والروم ويس وص ومابينها ، ووضح فيها بعض الحكم والعجائب التى تضمنتها هذه الحروف التى فى أوائل السور ، ولكن البحث هنا يكون خاصا بالحرف « ق » الذى فى أوّل هذه السورة . واعلم أن هذا يحتاج لمقال يتقدّمه فأقول :

اعلم أن الله علم قبل أن ينزل القرآن أن أمة الاسلام ستجمع الأحمر والأبيض والأسود ، وأنه سيأتى عليها زمان يتناكرون وهم مسلمون ، ويبتعدون وهم موحدون ، ويجهلون وهم مؤمنون ، ويذلون وهم متفرّقون .

علم الله أننا سنكون على هذه الحال فأنزل لنا من أعاجيب القرآن هاتين العجيبتين : الحجرات وق ، هاتان سورتان تضمنتا مابه معرفة الأنفس ، وسابه معرفة الآفاق . أما مابه معرفة الأنفس ، أى أخلاقها وتهذيبها فهو مامرّ فى ﴿سورة الحجرات﴾ وأما مابه معرفة الآفاق فهو علم السموات والأرض والبحث فى عجائبهما وبدائعهما ، وحكمهما وغرائبهما ، فيصبح المسلم مهذب النفس ، عارفا بما يحيط به من العوالم .

علم الله أن المسلمين ستمرّ عليهم أجيال وقرون وهم لايعرفون من القرآن إلا الاحكام الشرعية ، يعيشون ويموتون وهم لايعقلون إلاهو ، وماهو إلا علم انتضاء و بعض العبادات نظاهرة .

علم الله أن العالم بالأحكام الشرعية الذى يقبل المسلمون يفتيه يواظب على شروط الصلاة ، ويواظب على طهارة ثوبه ، ونظافة مكانه ، والاتجاه للقبلة فى الصلاة ، وفى أوقات [illegible] يطلق للسانه العنان ، ويغتاب الاخوان ، مستحلا ذلك لايبالى .

علم الله أننا نحن الآن سنترك أحكام الأنفس فنجهلها ونعرف كيف نطهرها ، ولا كيف نحسن أخلاقها ،

ولا كيف نصقلها بالمعارف الحقة ، والعلوم المكتسبة ، التى تحيط بنا فى الآفاق من نبات وحيوان ، وهواء وماء ، وكهرباء وبخار ، ومغناطيس ، ونجوم وسماء ، وأنوار ، فأنزل سورة ق ناظما تلك المباحث فى عقدها لنتحلى بها بعد التخلى من الرذائل :

علم الله أن المسلمين سينامون جاهلين كسلا وغفلة آمادا وآمادا ، ويتبع الآخرون الأولين ، ولاينظرون الى القرآن إلا نظرة البركة ، لانظرة الحكمة والموعظة ، ويقولون : قد نظر فيه الأئمة فاستخرجوا لنا علم الفقه ، وهو كل شىء ، وما القرآن إلا بركة ، واذا ذكر آية فى الاستدلال فانما نتبع من قبلنا ، ومالم يذكر فى الفقه من الآيات فلانظرلنا فيه إلا نظرا سطحيا تارة ، وتبركا تارة أخرى .

علم الله قبل أن ينزل القرآن أننا سنجهل كيف نتعارف ، وأن أبناء العرب الذين تقاربت ديارهم ، واتحدت لغتهم وجنسهم ودينهم يجهل بعضهم بعضا ، فلايتحدون بلغتهم ولابدينهم ولابجنسهم ولابوطنهم الذى جمعهم وهم متجاورون فيه .

علم الله ذلك ، وعلم أن أمم أوروبا تتحد وجهة كل منها ، وأن الولايات المتحدة فى أمريكا التى هى أمة جامعة لقوم من شتات الأمم لما علموا وعقلوا اتحدوا وطنا ولغة بالتعليم وان اختلفوا أجناسا وديانات ، فأما أمم الاسلام فلا اتحاد بينهم لأنهم لم يتعلموا ولم يدرس أبناء العرب تاريخ أسلافهم ، ولامنشأهم ، ولاأحوالهم الاجتماعية دراسة تشوقهم الى أصلهم القديم فيرجعوا مجدهم كما كان و يتحدوا ، وليس معنى هذا أنهم يكونون عذابا على الناس . كلا . بل ينظرون الى أمم الترك الذين اتحدوا معهم فى الدين وفى الجوار ، وهكذا الفرس وأنهم أمم شرقية ويتحدون معهم ، وهكذا يتحدون مع جميع الأمم الاسلامية ، ويكونون عونا مع جميع الأمم ليعيشوا بسلام .

علم الله قبل أن ينزل القرآن أنا سنكون هكذا فى هذا الزمان خاملين نائمين ، فلاعلوم ولاتهذيب ولاحكمة فنكون متفرقين ، وتدوسنا الفرنجة ، ونحن أذلاء بين أيديهم ، كل هذا بجهلنا وعلم الأمم ، فعلمهم هو الذى سلطهم ، وجهلنا هو الذى أذلنا ، فانظر ماذا قال الله لنتلافى هذا العيب . قال « لتعارفوا » فى سورة الحجرات فلتعارف لن يكون إلا بعلم ، فان لم يكن علم ودرس فلاتعارف . إن التعارف ان يكون إلا بعلم ، فاذا لم تعلم أن زيدا أبوك لم تكرمه ، واذا لم تعلم أن خالدا من أقاربك لم تحافظ عليه ، واذا لم يعلم المسلمون علم تاريخهم ولغتهم ، ومنشأ دولتهم ، وجغرافية بلادهم ، وظلم أوروبا لهم ، وموازنة هذا بما كان عليه آباؤهم .

اذا لم يفعلوا ذلك وغيره كدراسة الأرض التى يسكنونها ، ومعرفة خباياها فى مصر واليمن وغيرها ، و يعرفوا معادنها وحاصلاتها وخيراتها وما أشبه ذلك ، اذا لم يعرفوا ذلك فكيف يتعارفون ؟ انهم اذا رأوا ذلا جامعا ، ولغة متحدة ، وأمما جامحة لاذلالهم ، وأرضا ذات خيرات يطمع العدو فى الانتفاع بها ، هناك هناك تكون الحمية . حمية الاسلام والمحافظة على الأوطان ، ومجاراة الزمان ، وحفظ الاخوان ، واذا لم يعرف العرب أمم الترك ، ولا الترك أمم العرب ، ولم يدرسوا الثمرة التى تنتج من اتحادهم فكيف يتحدون ؟ واذا لم يدرس هذان الشعبان أحوال الأمم الاسلامية فكيف يتحدون معها ؟ واذا لم يدرس هؤلاء المسلمون جميعا نظام الأمم فى الارض كلها ولم يعرفوا أحوالها فكيف يتحدون معها على رقى الانسانية ؟ .

كل هذه المعانى داخلة فى قوله تعالى : « لتعارفوا » ، بغير هذا لايكون تعارف ، و بغير هذا لا يكون تحاب ، و بغير هذا لا يكون سلام فى الارض ، و بغير هذا لايكون تمام قوله تعالى : « ليظهره على الدين كله » و بغير هذا لايتم تمام و صحا قوله تعالى : « وماأرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

نحن من حمد ﷺ فسكن رحمة للعالمين ، ولنقم بالأمر بعد أن نتعلم ونتربى ، فلاتسقنا أمم الممالك

المتحدة فى التعليم ، والتهذيب ، والرقى ، ونظام المدارس ، ونظام السجون التى جعلوها للتهذيب لا للتعذيب .

وأقول أيضا : علم الله أن هـذا الداء سيحيط بالمسلمين ويشملهم جميعا ، فأى دواء أعدّه له ؟ الدواء « ق » ولعلك تقول : وهل هذه المعانى كلها فى « ق » ؟ وهل كلمة « ق » تفيدنا أن المسلمين يقتصرون على علم الفقه ويجهلون فى الغالب آداب النفوس ، ويشتت شملهم ، ويسبقهم غيرهم ، وهكذا ثم يصف بها الدواء ؟ أقول لك نعم : فاعلم أن ق أوّل حرف فى القرآن المذكور فى آخر سورة ق قال تعالى : « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » ، كأن الله تعالى يقول : اذا نزلت بكم أيها المسلمون صاعقة التفريق ، وأصبح كل منكم كالغريق ، وتخطبتم فى دياجير الظلام ، وكنتم عبرة الأمم ، وسلوة الزمن ، وأنتم فرق متناكسون ، وأفذاذ متفرّقون ، ونبذتم فهم القرآن ، فلا ذكر كم بالقرآن ، فارجعوا إليه ولا تسمعوا كلام بعض قدامى الفقهاء الذين ادّعوا أن الدين ما عرفوه ، وماسواه فلا حاجة إليه ، كذلك لا تصغوا لقول العباد ، ولا لقول الصوفية ، ولا لأقوال الأغنياء ، فان كلا منهم يعيب الآخرين ظنا منه أنه هو المخصوص بالكرامة ، وماعداه فهو فى جهالة ، لا تسمعوا هؤلاء جميعا ، وادرسوا القرآن ، فقد جرّبتم صغار الصوفية ، وجرّبتم صغار الفقهاء ، وجرّبتم الأغنياء (١) وجرّبتم العباد [بتشديد الباء] والصالحين ، فقد استبدّ كل فريق بناحيته ، واستقلّ بأمره ، وجهل ما عند سواه ، فتفرّقت الأمم الاسلامية شذر مذر ، وأحاطت بهم الأمم من كل جانب ، وأذاقوهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » ، والوعيد قسمان : قسم يختص بهلاك الامم فى الحياه الدنيا ، وقسم يختص بعذاب يوم القيامة وكلاهما فى القرآن فلتقرءوه وعلى مقتضاه تدرسون جميع الكائنات

هذه المعانى كلها مخبوءة فى كلمة « ق » التى جاءت بين السورتين المختومتين بقوله « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد» المشتملتين على مايصفى النفوس وعلى معرفة الآفاق ، وهذان الصنفان من العلوم داخلان تحت قوله تعالى « لتعارفوا » كما أوضحناه

ألا تعجب معى بعد هذا أن يقول بعض علماء التفسير : ان [ق] اسم من أسماء القرآن ، وهذا هو المعنى الذى أوضحناه لك الآن . انتهى تفسير كلمة « ق » والحمد لله رب العالمين .

المقام الثالث فى تفسير الآيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(ق ☆ والقرآن المجيد) أى الشريف الكريم على الله ، الكثير الخير والبركة ، وجواب القسم لتبعثن (بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم) انكار لتعجبهم مما ليس بعجب وهو أن ينذرهم بالخوف رجل منهم قد عرفوا عدالته وأمانته ، ومثله لا يكون إلا ناصحا لقومه ، خائفا عليهم من وقوع مكروه ، ومتى أظلهم مكروه وعلمه لزمه أن ينذرهم (فقال الكافرون هذا شىء عجيب) حكاية لتعجبهم ! يتعجبون من اصطفاء محمد صلى الله عليه وسلم للرسالة (أئذا متنا وكنا ترابا) أى أنرجع اذا متنا وصرنا ترابا (ذلك رجع بعيد) أى بعيد عن الوهم والعادة والامكان ، قال تعالى (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم) أى ما تأكل من أجسادهم بعد موتهم ، انهم لما استبعدوا البعث ردّ الله عليهم بأن من لطف علمه حتى علم ما تنقص الأرض من أجساد الموتى وتأكله من لحومهم وعظامهم كان قادرا على رجعهم أحياء كما كانوا (وعندنا كتاب حفيظ) محفوظ من الشياطين ومن التغيير ، وهو اللوح المحفوظ ، وهو حافظ لما كتب فيه ، ثم انهم جاءوا بما هو أفظع مما قبله . فاستحق الاضراب عنه ، فلذلك قال (بل كذبوا بالحق) أى النبوّة الثابتة بالمعجزات من أوّل وهلة بغير تفكر (لما

(١) هذه أقسام المغرورين المذكورة فى سورة [آل عمران] عند آية : « وعرّفهم فى دينهم ما كانوا يفترون » ملخصا من الاحياء للغزالى ☆ المؤلف

جاءهم فهم فى أمر مريج) مضطرب ، يقال مرج الخاتم فى الأصبع اذا اضطرب من سعته ، فيقولون تارة شاعر ومرة كاهن ، ومرة ساحر ، لا يثبتون على رأى (أفلم ينظروا) حين كفروا بالله و بالبعث (إلى السماء فوقهم) إلى آثار قدرة الله تعالى فى خلق العالم (كيف بنيناها) رفعناها بلاعمد (وزيناها) بالكواكب (ومالها من فروج) فتوق بأن خلقناها ملساء ، متلاصقة الطباق ، وهذا هو الرأى الحديث فى عالم السموات ، بل الرأى الحديث معجزة للقرآن ، و بيانه أن العلماء فى عصرنا الحاضر يقولون : إن هنا عالما لطيفا أرق من الهواء ، وألطف من كل ما نراه ، هو مبدأ كل شىء ، وأول كل شىء ، هو العالم المسمى بالأثير ، وهذا العالم لم يره الناس وانما عرفوه من وصول أضواء الكواكب إلينا ، فان من الكواكب مالا يصل ضوؤه إلينا إلا فيما يزيد على ألف ألف سنة نورية ، ومعلوم أن نور الشمس [التى تبعد عنا مقدار سير القطار إليها لو أمكن نحو ثلثمائة وخمس وستين سنة] يصل إلينا فى مدة ثمان دقائق و ١٨ ثانية ، فانظر كيف يكون بعد تلك الكواكب التى تحتاج بسير النور الى مليون سنة ونصف مليون سنة ، وانظر كيف يدل هذا على أن ذلك الضوء محمول على شىء موجود ، والشىء الموجود هو الأثير ، فلو أن طبقة من الطبقات لم يكن فيها الأثير لانقطع سير النور إلى الأرض ولم نره .

هذا هو السر فى قوله تعالى : « ومالها من فروج » فلو كان هناك فروج تتخلل السموات لانقطع سير النور إلينا ، ومعلوم أن آراء الجهلة فى كل أمة أن كل سماء منفصلة عن الأخرى ، و بينهما فضاء ، كما يظن لأول وهلة فيما بيننا و بين السماء الدنيا ، فجاء القرآن على عكس ذلك تماما وقال لا فروج فى السماء ، و بعبارة أخرى لا خلاء فى العالم .

رأى القدماء

هكذا كان رأى بعض القدماء فى « اخوان الصفاء » إذ قالوا : « إن النور والظلمة إما أن يكونا جوهرين أو عرضين ، فان كانا جوهرين فليس فى العالم خلاء لأنه لا يخلو من نور وظلمة ، وان كانا عرضين فالعرض لابد له من جوهر يقوم به ، وان كان أحدهما عرضا والآخر جوهرا فهو معلوم من سابقيه ، فاذن العالم لا خلاء فيه كما ذكرناه فى ﴿ سورة البقرة ﴾ فانظر كيف كان نظر الحكماء قديما وحديثا هو عين ما جاء فى هذه الآية « ومالها من فروج » (والأرض مددناها) بسطناها (وألقينا فيها رواسى) جبالا ثوابت (وأنبتنا فيها من كل زوج) من كل صنف (بهيج) حسن (تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) راجع الى ربه ، متفكر فى عجائب صنعه ، يقول الله : بنينا السماء وزيناها ، ومددنا الأرض ، وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، كل ذلك فعلناه لأجل تبصرة العبد المنيب وذكراه ، وهذا من حيث المعنى وان كانا فى الاعراب منتصبين بالفعل الأخير ، فان رفعت السماء فلذكراه ، وان زينتها بالكواكب والنور فليتبصر بما يراه ، وان بسطت الأرض وأرسيتها بالجبال فكذلك ، وان أنبت النبات زينة للأرض ، فليعتبر ويذكر بمرآه (ونزلنا من السماء ماء مباركا) كثير المنافع (فأنبتنا به جنات) أشجارا وثمارا (وحب الحصيد) وحب الزرع الذى من شأنه أن يحصد كالحنطة والشعير والأرز والعدس وغيرها (والنخل باسقات) طوالا أو حوامل ، يقال : أبسقت الشاة اذا حملت (لها طلع نضيد) الطلع كل ما يطلع من ثمر النخل ، والنضيد المنضود بعضه على بعض لكثرة الطلع وتراكبه ، أو لكثرة ما فيه من الثمر (رزقا للعباد) أى أنبتناها رزقا للعباد كما جعلناها تبصرة وذكرى للمنيب منهم ، فالتبصرة للمفكرين والرزق لجميع الأحياء من الآدميين ، فهى مأكل الآكلين من نوع الانسان « كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا » فنحن نطعم عبادنا ونرزقهم ولكنا لا نجعل هذه المساتين والأشجار والثمار درسا معروفا ، وعلما مقروءا ، إلا للممتازين من نوع الانسان ، فالخواص للنبات دارسون ، والعامة والخاصة منها آكلون ، ولما كانت دراسة النباتات

والاستفادة من علومهما لم يظهر له مثال أعقبه بذكر مثال يبين كيف يدرس فقال (وأحيينا به) بذلك الماء (بلدة ميتا) أرضا جدبة لانماء فيها (كذلك الخروج) أى كما حييت هاه البلدة يكون خروجكم أحياء بعد موتكم ، فالناس يتغذون ويمرضون ، ويتزوجون ويلدون ، ويحيون ويموتون ، وهذه الأحوال كلها فى النبات فهو له حياة وغذاء ونمو وتوالد فوت ، ثم تيبس الأرض ، ثم تحيا بالنبات ، فليقس عليه حال الانسان فانه بعد موته يحيا ، وهذا برهان اقنعى ، ونظيره فى كلام سقراط ، يقول : « ان الانسان يحيا بعد الموت لأن كل ضد يتولد عنه ضده ، فالصحة بعد المرض ، والعزّ بعد الذل ، وهكذا مما لانهاية له ، فلتكن الحياة من الموت» فانظر كيف أتى الله بهذا القياس التمثيلى الذى يجعل للنفس انتباسا بالموضوع وفهما فيه من النبات ليمتح للعقول مجال التبصرة بمئات من المسائل العلمية ، فتفكر فيما قدمته فى ﴿سورة الشعراء﴾ وغيرها من أنواع النبات الكثيرة التى تفرّعت كلها من أصل واحد ، وكان تنوّعها كلها ظاهرا فى زهراتها ، فلزهرة تنوّعت أنواعا كثيرة لكل صنف من النبات شكل فى الزهرة خاص ، فاذا قرأت ذلك دخلت فى بحرا ساحل له من العلم والحكمة ، وعرفت سر البديع الالهية ، وهناك تفهم قوله تعالى « تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » وهكذا مواضع أخرى من هذا التفسير ، ثم قال تعالى (كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرّس وثمود وعاد وفرعون) أى فرعون وقومه (واخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع كلّ كذب الرّسل) كل واحد أوقوم منهم الخ (فحقّ وعيد) فوجب وحلّ عليه وعيدى فلتسد ياعمد واستعدّوا لنزول العذاب ياأهل مكة ، وانظر أيها الذكىّ كيف كان ترتيب سور القرآن ، ان قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعادا وفرعون قد تقدّموا فى السور السابقة ، فانظر كيف ذكروا فى هذه السور بطريق اجالى ، فهناك ذكرت القصص والتاريخ وهنا ليكون الاعتبار .

يقول الله : هاأنتم أولاء قرأتم قصص السابقين ، وأخبار الأوّلين فى السور المتقدمة ، فلا أذكركم بأحوالهم فقد كذبوا فهلكوا .

يقول الله : أذكركم بالسماء والأرض والجبال والماء والنبات ، أذكركم بهذا كله ، وأذكركم الأمم الخالية والأجيال البائدة ، كيف هلكوا وهم مكذبون ، وكيف نصرنا الأنبياء ، فليكن هكذا محمد وكل مصلح من أمته ، فهم منصورون وبضدها تتميز الاشياء .

يقول مؤلف هذا التفسير : إن ظنى بالله جميل أن يجعل هذا التفسير نافعا للأمة الاسلامية ، وأن يكون مساعدا على الانقلاب الفكرى فى العالم الاسلامى حتى يصح المسلمون أمة حكمة وعلم « ولينصرنّ الله من ينصره إنّ الله لقوىّ عزيز » .

[تذكرة] هذه الجملة كتبتها حين تأليف الكتاب ، وهو الآن يطبع الطبعة الأولى ، وقد صدق ظنى وأجيبت جميع مطالبى وانى أحمد الله فقد تقدم فى المجلد السابق فى سورة الفتح أن الفكرة قد عمت مسلمى بلاد الصين والتركستان الصينية فضلا عن سائر بلاد الاسلام .

ثم قال تعالى (أفعيينا بالخلق الأوّل) أى أفعجزنا عن الابداء حتى نعجز عن الاعادة ، يقال عيى بالأمر اذا لم يهتد لوجه عمله ، والهمزة للانكار (بل هم فى لبس من خلق جديد) يقول تعالى : هم لاينكرون قدرتنا على الخلق الأوّل ، بل هم فى خلط وشبهة ، قد لبس عليهم الشيطان وحيرهم ، وذلك تسويله إليهم أن إحياء الموتى أمر خارج عن العادة . انتهى المبحث الأوّل من السورة .

المبحث الثانى

فى الكلام على الموت وسكرته ، وعلى الملائكة المرتقبين حركات الانسان وسكناته ، وعلى أحوال يوم القيامة

قال الله تعالى (ولقد خلقنا الانسان ونعلم ماتوسوس به نفسه) ماتحدّثه به نفسه ، وهو ما يخطر بالبال ،

جاءهم فهم فى أمر مريج) مضطرب ، يقال مرج الخاتم فى الأصبع اذا اضطرب من سعته ، فيقولون تارة شاعر ومرة كاهن ، ومرة ساحر ، لا يثبتون على رأى (أفلم ينظروا) حين كفروا بالله و بالبعث (إلى السماء فوقهم) إلى آثار قدرة الله تعالى فى خلق العالم (كيف بنيناها) رفعناها بلاعمد (وزيناها) بالكواكب (ومالها من فروج) فتوق بأن خلقناها ملساء ، متلاصقة الطباق ، وهذا هو الرأى الحديث فى عالم السموات ، بل الرأى الحديث معجزة للقرآن ، و بيانه أن العلماء فى عصرنا الحاضر يقولون : إن هنا عالما لطيفا أرق من الهواء ، وألطف من كل ما نراه ، هو مبدأ كل شىء ، وأول كل شىء ، هو العالم المسمى بالأثير ، وهذا العالم لم يره الناس وانما عرفوه من وصول أضواء الكواكب إلينا ، فان من الكواكب مالا يصل ضوؤه إلينا إلا فيما يزيد على ألف ألف سنة نورية ، ومعلوم أن نور الشمس [التى تبعد عنا مقدار سير القطار إليها لو أمكن نحو ثلثمائة وخمس وستين سنة] يصل إلينا فى مدة ثمان دقائق و ١٨ ثانية ، فانظر كيف يكون بعد تلك الكواكب التى تحتاج بسير النور الى مليون سنة ونصف مليون سنة ، وانظر كيف يدل هذا على أن ذلك الضوء محمول على شىء موجود ، والشىء الموجود هو الأثير ، فلو أن طبقة من الطبقات لم يكن فيها الأثير لانقطع سير النور إلى الأرض ولم نره .

هذا هو السر فى قوله تعالى : « ومالها من فروج » فلو كان هناك فروج تتخلل السموات لانقطع سير النور إلينا ، ومعلوم أن آراء الجهلة فى كل أمة أن كل سماء منفصلة عن الأخرى ، و بينهما فضاء ، كما يظن لأول وهلة فيما بيننا و بين السماء الدنيا ، فجاء القرآن على عكس ذلك تماما وقال لا فروج فى السماء ، و بعبارة أخرى لا خلاء فى العالم .

رأى القدماء

هكذا كان رأى بعض القدماء فى « اخوان الصفاء » إذ قالوا : « إن النور والظلمة إما أن يكونا جوهرين أو عرضين ، فان كانا جوهرين فليس فى العالم خلاء لأنه لا يخلو من نور وظلمة ، وان كانا عرضين فالعرض لا بد له من جوهر يقوم به ، وان كان أحدهما عرضا والآخر جوهرا فهو معلوم من سابقيه ، فاذن العالم لا خلاء فيه كما ذكرناه فى ﴿ سورة البقرة ﴾ فانظر كيف كان نظر الحكماء قديما وحديثا هو عين ما جاء فى هذه الآية « ومالها من فروج » (والأرض مددناها) بسطناها (وألقينا فيها رواسى) جبالا ثوابت (وأنبتنا فيها من كل زوج) من كل صنف (بهيج) حسن (تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) راجع الى ربه ، متفكر فى عجائب صنعه ، يقول الله : بنينا السماء وزيناها ، ومددنا الأرض ، وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، كل ذلك فعلناه لأجل تبصرة العبد المنيب وذكراه ، وهذا من حيث المعنى وان كانا فى الاعراب منتصبين بالفعل الأخير ، فان رفعت السماء فلذكراه ، وان زينتها بالكواكب والنور فليتبصر بما يراه ، وان بسطت الأرض وأرسيتها بالجبال فكذلك ، وان أنبت النبات زينة للأرض ، فليعتبر ويتذكر بمرآه (ونزلنا من السماء ماء مباركا) كثير المنافع (فأنبتنا به جنات) أشجارا وثمارا (وحب الحصيد) وحب الزرع الذى من شأنه أن يحصد كالحنطة والشعير والأرز والعدس وغيرها (والنخل باسقات) طوالا أو حوامل ، يقال : أبسقت الشاة اذا حملت (لها طلع نضيد) الطلع كل ما يطلع من ثمر النخل ، والنضيد المنضود بعضه على بعض لكثرة الطلع وتراكمه . أو لكثرة ما فيه من الثمر (رزقا للعباد) أى أنبتناها رزقا للعباد كما جعلناها تبصرة وذكرى للمنيب منهم ، فالتبصرة للمفكرين والرزق لجميع الأحياء من الآدميين ، فهى مأكل لآكلين من نوع الانسان « كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا » فنحن نطعم عبادنا من رزقهم ولكنا لا نجعل هذه البساتين والأشجار والثمار درسا معروفا ، وعلما مقروءا ، إلا للممتازين من نوع الانسان ، فالخواص للنبات دارسون ، والعامة والخاصة منها آكلون ، ولما كانت دراسة النباتات

والاستفادة من علومهما لم يظهر له مثال أعقبه بذكر مثال يبين كيف يدرس فقال (وأحيينا به) بذلك الماء (بلدة ميتا) أرضا جدبة لانماء فيها (كذلك الخروج) أى كما حييت هذه البلدة يكون خروجكم أحياء بعد موتكم ، فالناس يتغذون ويموتون ، ويتزوّجون ويلدون ، ويحيون ويموتون ، وهذه الأحوال كلها فى النبات فهو له حياة وغذاء ونموّ وتوالد فموت ، ثم تيبس الأرض ، ثم تحيا بالنبات ، فليقس عليه حال الانسان فانه بعد موته يحيا ، وهذا برهان اقناعى ، ونظيره فى كلام سقراط ، يقول : « ان الانسان يحيا بعد الموت لأن كل ضد يتولد عنه ضده ، فالصحة بعد المرض ، والعزّ بعد الذل ، وهكذا مما لانهاية له ، فلتكن الحياة من الموت» فانظر كيف أتى الله بهذا القياس التمثيلى الذى يجعل للنفس التماسا بالموضوع وفهما فيه من النبات ليفتح للعقول مجال التبصرة بمثات من المسائل العلمية ، فتفكر فيما قدّمته فى ﴿سورة الشعراء﴾ وغيرها من أنواع النبات الكثيرة التى تفرّعت كلها من أصل واحد ، وكان تنوّعها كلها ظاهرا فى زهراتها ، فلزهرة تنوّعت أنواعا كثيرة لكل صنف من النبات شكل فى الزهرة خاص ، فاذا قرأت ذلك دخلت فى بحر لاساحل له من العلم والحكمة ، وعرفت سر البديع الالهية ، وهناك تفهم قوله تعالى « تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » وهكذا مواضع أخرى من هذا التفسير ، ثم قال تعالى (كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرّس وثمود وعاد وفرعون) أى فرعون وقومه (واخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع كلّ كذب الرّسل) كل واحد أوقومنهم الخ (فحقّ وعيد) فوجب وحلّ عليه وعيدى فلقسد يامحمد والتستعدّوا لنزول العذاب ياأهل مكة ، وانظر أيها الذكىّ كيف كان ترتيب سور القرآن ، ان قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعادا وفرعون قد تقدّموا فى السور السابقة ، فانظر كيف ذكروا فى هذه السور بطريق اجالى ، فهناك ذكرت القصص والتاريخ وهنا ليكون الاعتبار .

يقول الله : هاأنتم أولاء قرأتم قصص السابقين ، وأخبار الأوّلين فى السور المتقدمة ، فلاذكركم بأحوالهم فقد كذبوا فهلكوا .

يقول الله : أذكركم بالسماء وبالأرض والجبال والماء والنبات ، أذكركم بهذا كله ، وأذكركم بالأمم الخالية والأجيال البائدة ، كيف هلكوا وهم مكذبون ، وكيف نصرنا الأنبياء ، فليكن هكذا محمد وكل مصلح من أمته ، فهم منصورون وبضدها تتميز الاشياء .

يقول مؤلف هذا التفسير : إن ظنى بالله جميل أن يجعل هذا التفسير نافعا للأمة الاسلامية ، وأن يكون مساعدا على الانقلاب الفكرى فى العالم الاسلامى حتى يصح المسلمون أمة حكيمة وعلم « ولينصرنّ الله من ينصره إنّ الله لقوىّ عزيز » .

[تذكرة] هذه الجملة كتبتها حين تأليف الكتاب ، وهو الآن يطبع الطبعة الأولى ، والقد صدق ظنى وأجيبت جميع مطالبى والى أحمد الله فقد تقدم فى المجلد السابق فى سورة الفتح أن الفكرة قد عمت مسلمى بلاد الصين والتركستان الصينية فضلا عن سائر بلاد الاسلام .

ثم قال تعالى (أفعيينا بالخلق الأوّل) أى أعجزنا عن الابداء حتى نعجز عن الاعادة ، يقال عيى بالأمر اذا لم يهتد لوجه عمله ، والهمزة للانكار (بل هم فى لبس من خلق جديد) يقول تعالى : هم لاينكرون قدرتنا على الخلق الأوّل ، بل هم فى خلط وشبهة ، قد لبس عليهم الشيطان وحيرهم ، وذلك تسويله إليهم أن إحياء الموتى أمر خارج عن العادة . انتهى المبحث الأول من السورة .

المبحث الثانى

فى الكلام على الموت وسكرته ، وعلى الملائكة الموكلين حركات الانسان وسكناته ، وعلى أحوال يوم القيامة

قال الله تعالى (ولقد خلقنا الانسان ونعلم ماتوسوس به نفسه) ماتحدّث به نفسه . وهو ما يخطر بالبال ،

والوسوسة الصوت الخفيّ ، ومنه وسواس الحلى (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) أى ونحن أعلم بحاله ممن كان أقرب إليه من حبل الوريد ، فهذا مثل فى فرط القرب ، والوريد عرق فى باطن العنق ، والحبل العرق أى حبل هو الوريد ، فأجزاء الانسان وأبعاضه يحجب بعضها بعضا ، ولا يحجب عن علم الله شىء ، فهو بيان لكمال علم الله تعالى بالانسان ، أو يقال بالاختصار نحن أعلم به منه فيكون تجوّزا بقرب الذات لقرب العلم ، وقوله (إذ يتلقى المتلقيان) ظرف لقوله أقرب إليه ، يقول الله : نحن أعلم بحاله من كل قريب حين يتلقى ، أو يتلقن الحفيظان ما يتلفظ به مع أننا أغنياء عن استحفاظ الملكين لشدة قربنا منه ، لكن هكذا كان نظامنا لالزام الحجة ، وقوله (عن اليمين وعن الشمال قعيد) أى عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد ، أى مقاعد لجليس ، وقد حذف الأوّل لدلالة الثانى عليه كقوله :

ومن يك أمسى بالمدينة رحله ✲ فانى وقيارها لغريب

وكقول الآخر

رمانى بأمر كنت منه ووالدى ✲ بريئا ومن أجل الطوىّ رمانى

أى كنت منه بريئا وكان والدى منه بريئا ، وقد يطلق النعيل للواحد والمتعدد كقوله تعالى « والملائكة بعد ذلك ظهير » (ما يلفظ من قول) ما يرمى به من فيه (إلا لديه رقيب) ملك يرقب أعماله (عتيد) حاضر معه فيكتب ما فيه ثواب أو عقاب ، وكل شىء حتى أنينه فى مرضه ، وفى الحديث : « كاتب الحسنات أمير على كاتب السيئات ، فاذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشرا ، واذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر » .

واعلم أن هذا الحديث هو الموافق لنظام هذا العالم ، ألا ترى رعاك الله أن الله لم يخلق الناس لتعذيبهم ، وانما خلقهم لتهذيبهم وتربيتهم ، وليس معنى التربية أن تكون كلها تعذيبا ، فكل ألم فهو لرقّى النفس ، واذا كان كاتب الحسنات أميرا على كاتب السيئات ، فلأن العالم المادّى الموجود من طبعه أن يكون نفعه أكثر من ضرّه ، وعلى هذا الناموس يكون خلقنا لغاية شريفة نافعة لنا ، والحسنات أصل والسيئات عارضة كما أن المنافع فى الطبيعة أصل والمضارّ عارضة ، النار خلقت لمنفعة ، والماء لمنفعة ، والهواء لمنفعة ، فاذا أحرق ثوب الناسك ، واغرق رب صبية لاعائل لهم ، وأصاب البرد عالما فانتهى بموته ، فهذا كله عارض ، والأصل فى هذه كلها المنافع ، هكذا نوع الانسان خلق للخير ولكن الشرّ عارض ، وللحسنات لكن السيئات عارضة ، فقول النبوّة من متمم النظام الأعلى العالم ، ثم ان الله لما ذكر استبعادهم البعث للجزاء ، وأراح ذلك بتحقيق قدرته وعلمه أعلمهم بأنهم يلاقون ذلك قريبا عند الموت وعند قيام الساعة ، ولذلك عبر بالماضى تنبيها على اقتراب ذلك فقال (وجاءت سكرة الموت بالحقّ) أى شدّته الذاهبة بالعقل ملتبسة بالحق : أى بحقيقة الأمر أو بالحكمة (ذلك) الموت أيها الانسان (ما كنت منه تحيد) وتهرب (ونفخ فى الصور) نفخة البعث (ذلك يوم الوعيد) أى ذلك اليوم الذى وعد الله الكفار أن يعذبهم فيه (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) كاتب السيئات سائق ، وكاتب الحسنات شهيد ، ويقال له (لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك) أى الغطاء الحاجب لأمور المعاد كالغفلة والانهماك فى المحسوسات ، والالف بها ، وقصور النظر عليها (فبصرك اليوم حديد) نافذ لزوال المانع للابصار ، فكأن الغفلة غطاء غطى بها جسدك كله ، أو غشاوة غطى بها عيناه فلا يبصر شيئا ، فاذا كان يوم القيامة يقظ وزالت عنه الغفلة وغطاؤها فيبصر ما لم يبصره من الحق ، ويكون ما وراء ذلك عقب الموت (وقال قرينه) وقال الملك الموكل به (هذا ما لدىّ عتيد) أى معدّ محضر : أى يقول الله : هذا ما لدىّ وكلت به من بنى آدم قد أحضرته وأحضرت ديوان عمله ، فلما قال قرينه ذلك ، قال الله لسائق وشهيد ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد) معاند للحق (مناع للخير) كثير المنع للمال عن حقه هو

المفروضة ، وللإسلام أن يذاع وينتشر كالوليد بن المغيرة لما منع بنى أخيه عنه (عنيد) متعند (مريب) شاك فى الله وفى دينه (الذى جعل مع الله إلها آخر) بدل من كل كفار ، وقوله (فألقياه) تكرير للتأكيد (فى العذاب الشديد) فقال الكافر : يارب ان قرينى من الشياطين أطغانى (قال قرينه) أى الشيطان المقيض له (ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد) عن الحق لأنه هكذا استعداده ، وهكذا كان ديدنه وطبعه فسار على النهج الذى يناسب أخلاقه : أى فى ضلال بعيد طويل لا يرجع عنه الى الحق ، وهذا كقوله تعالى : « وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى » (قال) الله تعالى (لاتختصموا لدىّ) فى موقف الحساب إذ لافائدة فيه (وقد قدمت اليكم بالوعيد) وقد أوعدتكم بعذابى على الطغيان فى كتبى وعلى ألسنة رسلى فما تركت لكم حجة ، وقدمت بمعنى تقدمت فعدى بالباء (مايبدّل القول لدىّ) أى بوقوع الخلف فيه فلاتطمعوا أن أبدّل قولى ووعيدى بادخال الكفار النار (وما أنا بظلام للعبيد) فلا أعذب عبدا بغير ذنب جناه ، وظلام إما بمعنى ذى ظلم ، واما للمبالغة ، يقول الله : واذكر (يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد) مزيد مصدر كالمجيد أى هل من زيادة ، وهذا السؤال والجواب جىء بهما للتخييل والتصوير ، والمعنى أنها مع شدة زفيرها وحدتها لاتزال فى شغف بدخول العصاة فيها ، فهى كالهم الذى لايشبع ، فكما أن الجنة لانهاية لمداها ، هكذا النار لانهاية لمداها ، وبقول ابن عباس رضى الله عنهما : سبقت كلمته لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين ، فلما سيق أعداء الله إليها صارت لايلقى فيها فوج إلا ذهب فيها ولايملؤها شىء فتقول : ألست قد أقسمت لتملأنى ؟ فيضع قدمه عليها فيقول هل امتلأت ؟ فتقول قط قط قد امتلأت وليس من مزيد . وروى البخارى ومسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لاتزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة [وفى رواية] رب العزة فيها قدمه فيزوى بعضها الى بعض وتقول قط قط بعزّتك ولايزال فى الجنة فضل حتى ينشىء الله لها خلقا فيسكنهم فضول الجنة » . ولأبى هريرة نحوه ، وزاد : « ولايظلم الله من خلقه أحدا » .

واعلم أن هذا القول يرجع الى النظام العام ، وهو أن الله تعالى خلق العالم للخير لا للشر ، وأن الشر عرض والخير أصلى ، فاذا سمعت أن الرب أسكت النار وقالت قط قط ، وانه خلق للجنة قوما يسكنون فى فضولها فذلك هو الذى يفهم من أعماله فى هذه الحياة ، فان الحياة طافحة بالخير فى هذا العالم مع نقصه ، فتراه لايدع حالا من الأحوال إلا أدخل فيها الحياة ، فالنبات يعيش فى الشمس ، وخلق الظل نباتا يعيش فيه ، ولم يذر البحر ولا البر من حيوان ولا نبات ، فلا ملوحة البحر ، ولابرودة الثلج ، ولا حرارة القيظ ، ولاغور البحر بمانعات من الحياة ، ومعنى هذا أن الرحمة فاشية ، وهذا دلالة على أن جنته التى هى الرحمة الكبرى أوسع من جهنم التى هى دار العذاب ، ومثل هذه الأحاديث لايدرك سرّها ولا المقصد منها إلا بدراسة علوم الحكمة ، وفهم نظام العالم ، وحكمه المدهشة ، واذ ذاك يدرك الناس ماذا يقصد النبىّ صلى الله عليه وسلم بمثل هذه الأحاديث ، فأما تفسير الألفاظ فهو سهل متى عرف ان هذا تمثيل وهو ظاهر فى علم المعانى ولاحاجة الى التطويل (وأزلفت الجنة) قربت وأدنيت (للمتقين) الذين اتقوا الشرك حال كونها شيئا (غير بعيد) ويقال لهم (هذا ماتوعدون) هذا الذى وعدتم به فى الدنيا على ألسنة الأنبياء ، وقوله (لكل أوّاب) رجاع عن المعصية الى الطاعة بدل من المتقين باعادة الجار ، وقوله (حفيظ) أى حافظ لحدوده (من خشى الرحمن بالغيب) أى خاف الرحمن فأطاعه وان لم يره ، وفى الحديث يحب الله العبد الأوّاه (رجاع بقلب منيب) مخلص مقبل على طاعة الله يقال لهم (ادخلوها بسلام) سالمين من العذاب وزوال النعم ، أومسلما عليكم من الله والملائكة (ذلك يوم الخلود) فى الجنة إذ لاموت فيها ، والخلود هنا كقوله تعالى « ادخلوها خالدين »

ثم ان الناس يسألون الله ما يشتهون فى الجنة فيعطون مايسألون ، ثم يزيد الله عباده فوق ما سألوا ، وذلك قوله تعالى (لهم مايشاءون فيها ولدينا مزيد) مما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولاخطرعلى قلب بشر ، ومن أجلها النظر الى وجه الله الكريم ، إذ يتجلى لهم الرب فى كل جمعة فى دار كرامته ، فهذا من المزيد .

(وكم أهلكنا قبلهم) قبل قومك (من قرن هم أشد منهم بطشا) قوة كعاد وثمود وقوم تبع (فنقبوا فى البلاد) التنقيب التنقيرعن الأمر والبحث والطلب ، فهم ساروا وتقلبوا فى البلاد ، وسلكوا كل طريق ، وتصرّفوا فيها ، وجالوا فى الأرض كل مجال حذرالموت (هل من محيص) أى هل لهم محيص من الله : أى فلم يجدوا لهم مهربا من أمر الله ، ولامفرّا من الموت الذى يعقبه عذاب الله ، فهكذا أهل مكة ، لأن ماجاز على أحد المثلين جاز على الآخر ، فهم أيضا تصرّفوا ونقبوا فى البلاد ، فلامهرب لهم من عذاب الله إما بانزال العذاب عليهم كعاد وثمود ، واما أن يموتوا فيدخلوا النار .

ولما كان ماتقدم فى هذه السورة وماقبلها من أبدع الحكم والعلوم ، وهما مع اختصارهما قد جمعا تفصيلا آداب الأمم مع النبىّ ﷺ ومع أنفسهم ، وكيف يكون السلام بين الناس ، وكيف يكون الصلح ، وكيف يصان اللسان ، وكيف يتعارفون ويتعلمون وينظرون فى خلق السموات والأرض ، وفى العجائب المدهشة ، بحيث ان هاتين السورتين اللتين فصل بينهما بلفظ [ق] الذى شرحناه لك قريبا يكفيان لرقىّ الأمة الاسلامية واسعادها متى رجعوا إليهما ، فيذهب التقاطع ، ويتعلم الجهال ، ويجتمع الشمل ، وينتظم الجمع ، ويخيم الأمن فى ربوع الأمم الاسلامية ، لذلك قال الله تعالى (إن فى ذلك) الذى تقدم فى السورتين لأن الأولى للتخلية والثانية للتحلية (لذكرى) لتذكرة (لمن كان له قلب) أى قلب واع يتفكر فى حقائق الأشياء المذكورة فيه (أوألقى السمع) أى أصغى لاستماعه (وهوشهيد) حاضر بذهنه ليفهم معانيه ، ليس بساهٍ ولاغافل ، وفى تنكير القلب اشعار بأن كل قلب لايتفكر ولايتدبر كلاقلب ، ثم أعقبه بما يجول فيه القلب ويتفكر فقال (ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ومامسنا من لغوب) إعياء وتعب فنحن قدملأناهما بالعجائب ولانزال نزيدها كل حين لأنا لايلحقنا التعب والاعياء ، فاقرءوا عجائبنا التى لانهاية لمداها ، ولتتجه قلوبكم اليها ولتلقوا فيها تسمعون من القول السمع وأنتم حاضرو الذهن فعجائبنا لاتتناهى ، ولتكذبوا اليهود الذين قالوا [ان الله خلق السموات والأرض فى ستة أيام أوّلها الأحد وآخرها الجمعة ، واستراح يوم السبت ، واستلقى على العرش ، فنحن لايمسنا لغوب ، وعجائبنا لاتقف عند حدّ] (فاصبر على مايقولون) على مايقوله المشركون من انكارهم البعث فانى خلقت العالم بلا إعياء ، فاذن أنا أقدر على بعثهم ثم أنتقم منهم (وسبح بحمد ربك) ونزهه عن العجز عن أىّ ممكن كان كالبعث حامدا له على ما أنعم عليك من اصابة الحق وغيرها من النعم الكثيرة التى لاتتناهى (قبل طلوع الشمس وقبل الغروب) أى وقت الفجر ووقت الظهر والعصر (ومن الليل فسبحه) أى وسبحه بعض الليل (وأدبارالسجود) وأعقاب الصلاة ، ومعنى هذا أن يقول « سبحان الله والحمد لله » فى أحوال أربعة : وقت الفجر ، ووقت الظهر والعصر ، أوالعصر فقط ، وفى الليل ، وعقب الصلوات ، فيكون التسبيح على ظاهره ، وقيل : إن التسبيح نفس الصلاة ، فيكون صلاة الفجر ، وصلاة الظهر والعصر ، وصلاة المغرب والعشاء ، أوالتهجد ، والرابع النوافل بعد الصلوات ، وانما سميت هذه الصلوات تسبيحا تسمية بالجزء منها ، وهو مافى اركوع والسجود من التسبيح ، فالتسبيح على الأوّل خارج الصلاة ، والتسبيح فى الثانى صلاة وتسبيح داخل فيها ، ولاجرم أن الحمد مذكور فى الفاتحة والتسبيح فى الركوع والسجود ، ومعنى « أدبار السجود » وقت انقضاء السجود كقولهم [آتيك خفوق النجم] وفى حديث البخارى عن ابن عباس قال : أمر رسول الله ﷺ أن يسبح فى أدبار الصلوات كلها يعنى قوله « وأدبار

السجود »

السجود » . وفى حديث مسلم : تحديد التسبيح ٣٣ والحمد ٣٣ والتكبير ٣٣ وتمام المائة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير ، وذلك كله دبر كل صلاة .

وعلى هذا يكون التسبيح أعمّ منه ومن الصلاة ، فالآية تشمل القسمين ، فليصلّ المؤمن الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء ، وليصل النوافل التى هى وقت أدبار السجود ، وليصل بالليل ، وليسبح بعد الصلوات كل ذلك داخل فى الآية ، فكله تسبيح بالحمد ، وبهذا جمع بين الأقوال كلها (واستمع) يا محمد لما اخبرك به من أهوال يوم القيامة ، وفى ذلك تهويل وتعظيم لشأن المخبر به ، وما هو ذلك الخبر ؟ أنهم يخرجون من القبور (يوم ينادى المنادِ) وهو اسرافيل ، أو جبرائيل ، فيقول : أيتها العظام البالية ، والأوصال المنقطعة ، واللحوم المتمزقة ، والشعور المتفرّقة ، إن الله أمركن أن تجتمعن لفصل القضاء . يقول الله : يوم ينادى المناد (من مكان قريب) بحيث يصل نداؤه إلى الكل على السواء ، ونظيره فى الدنيا أن الرزق والحياة والنور والنوم واليقظة ، كل هذه تأتى إلى أهل الأرض جميعا كأن مناديا يناديهم من قرب ، ويأمرهم بالموم وبالحياة وبالاستيقاظ وبالأكل وبالشبع وما أشبه ذلك ، فهكذا يوم القيامة ، لأن الله مع كل نسمة خلقها ، فنداؤه قريب فى الدنيا وفى الآخرة ، وقوله (يوم يسمعون الصيحة) أى النفخة الثانية ، وهذا بدل من يوم ينادى المنادِ ، وقوله (بالحق) متعلق بالصيحة ، والمراد به البعث والجزاء (ذلك يوم الخروج) من القبور . قال الله تعالى تلخيصا لما تقدم كله من أوّل السورة الى هذه الآية (إنا نحن نحيي ونميت) أى نحيي فى الدنيا ونميت عند انقضاء الأجل (وإلينا المصير) فى الآخرة (يوم تشقق الأرض عنهم سراعا) أى يوم تتصدّع عنهم فتخرج الموتى من صاوعها حال كونهم مسرعين (ذلك حشر علينا يسير) هين ، وقوله يوم متعلق بقوله يسير وقدّم للاختصاص (نحن أعلم بما يقولون) فيك وفيما ، وهذا تهديد لهم (وما أنت عليهم بجبار) بمسيطر أى ما أنت بمسلط عليهم ، انما أنت داع وباعث ، أوما أنت بوال عليهم تجبرهم على الايمان (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) كقوله « إنما انت منذر من يخشاها » إذ لا ينفع التذكير إلا فيه . انتهى التفسير اللفظى

فى هذه السورة ثلاث لطائف

الأولى فى عجائب السموات ، وهو قوله تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم » .

الثانية فى عجائب الأرض فى قوله تعالى « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » .

الثالثة فى قوله تعالى : « إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » .

اللطيفة الأولى : عجائب السموات

لقد أطنبت فى هذا التفسير فى السموات وعجائبها وغرائبها وحكمها وبدائعها وبطرقها فى البقرة وفى آل عمران ، وفى الأنعام ، وفى سور كثيرة فلترجع إليها .

اللطيفة الثانية فى عجائب الأرض والنبات

لقد جاء فى سورة الأنعام والشعراء وغيرهما بدائع النبات ورسم الزهرة ، وكيف كانت أنواع النبات التى تعد بالآلاف قد ظهر تنوّعها فى الزهرة وتقسيمها ناجم منها ، وكذلك فى كثير من السور ولكن لا بدّ من أن آخذ بيدك الساعة ، وأطوف معك فى الحدائق والجنات ، ذلك لأن السور السالفة قريبا لم نكثر فيها من الكلام

على العجائب النباتية ، فلنقم معى ، ولتطف حدائق الأرض ، ولتنظر أفانين الزهر ، وأعاجيب الثمر ، وأصناف الشجر ، والطرف الشائقة ، والنعم الواردة من المقام الأقدس ، والهدايا والتحف والمزايا ، ولست أقف بك مع طائفة الجامدين الذين لايقصدون إلالذات الجسم التى لها حدّ محدود ، ومقدارموقوت ، بل أريد أن تكون من الذين قال الله فيهم : « تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » وأن ترتقى عن الطوائف التى قال فيها : « رزقا للعباد » ، فلتكن تلك رزقك ، وليكن علمها نورا لقلبك ، فجسمك يتغذى بأثمارها ، وروحك تحظى بحكمها ، إن الأشجار والمزارع كتاب كتبه الله بيده ، خطه فى الأرض ورسمه وهندسه وزوّقه ، ورفع الأستارعن بعض القلوب ، وقال : ياعبادى انظروا جمالى الذى احتجب عنكم فهذه آثاره ، وعلى مقدار علمكم به يكون نظركم لوجهى يوم القيامة ، ألم أقل : « نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم» ولانور إلا ما اكتسبه الفكر ، واقتبسه النظر من العوالم المشاهدة المسطورة ، والمصوّرة المنمقة المشروحة ، الشارحة للصدور .

إن الدراسة تكون لأربعة أشياء : للكتب السماوية ، وللمناظر الطبيعية ، وللكتب الحكمية ، التى اقتنصتها من العوالم العقول البشرية ، وللنفوس الانسانية .

هذه هى الصحائف الأربعة التى يدرسها الانسان ، فكتاب الطبيعة كتابى ، وكتاب نفوسكم كتابى ، وكتاب الدين كتابى ، وكتاب الفلسفة والحكمة اشراق من نورى على عبادى فهوكتابى ، وما كتب الفلاسفة ولا كتب الوحى والديانات إلا مرشدات لبحثكم العلمى فى العالم السماوى والأرضى ، ومهدات لكتاب النفس وكتاب الأفق ، وكل مقرأتموه فى الطبيعة وانه مخزون فى صحائف قلوبكم ويكون نورا مبينا .

إن من نظر فى العجائب النباتية ، وفكر فى الغرائب الحكمية ازدادت بصيرته هدى ، وعقله حكمة ، وازداد أجنحة يطير بها إلى العلا ، إن للملائكة أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء ، تلك أجنحة القدرة والعلم ، والعلم هو الأصل ، فليزدد الناس فكرا فى النبات وغيره تزدد عقولهم عددا كما ازداد الملائكة مددا ، إن النظر فى النبات ازدياد أجنحة للطيران الى عالم الأفلاك فوق السماك .

حديقة فيها ٢١ نوعا من الشجر ، وأفانين العبر ، مختلفة الثمر

النخل ، والرمان ، والنبق ، والجوز ، واللوز ، والتين ، والعنب ، والاجاص ، والمشمش ، والخوخ ، والأترج ، والنارنج ، والليمون ، والحبة الخضراء ، والفستق ، والسمان ، والصنوبر والبلوط ، والعفص ، والسرو ، والاهليلج .

(١) — التمر الذى هو ثمر النخل

طويل الشكل ، مدحرج الخلقة ، مختلف الألوان ، على نواة قشرة رقيقة ، حريرية ، لينة للمس ، صلبة المسح ، وعلى هذه النواة شحمة ثخينة ، عليها قشرة صلبة ملساء ، وعلى ظهر النواة نقرة ، وفى الجانب المقابل نقرة مستطيلة فيها حشوة يفى ، وعلى رأس الثمرة من خارج قمعه ، عليها شظيات متفرّقة متشبثة بالثمرة ، ومادة هذه الثمرة قبل النضج عفصة ، وبعد النضج حلوة لزجة ، فهذه خمسة عشر وصفا للثمرة .

(٢) — شجرة الرمان وثمرها

ثمر الرمان : شكله مستدير ، وخلقته كبيرة ، عليه قشرة كثيفة ليفية ثخينة ، مجوّفة من داخل ، واسعة ، وهى خزانة مقسومة ، فيها عصى مقسمة ، عليها حبوب مرصعة ، أشكالها مخروطة ، فى جوف تلك الحبوب نواة حوفية ، رخوة ، فى داخل ... مقسمة ، وفى خارج رأس الثمرة من خارج فتحة مستديرة ، فيها غشاوة ليفية ،

وعليها

وعليها شظيات ناتئة زبيرية ، وحولها شرفات قائمة مخروطة .

(٣) — النبق وثمره

ثمر النبق : مستدير ، أملس ، شحمته ثخينة ، فى جوفه نواة مستديرة ، حسن اللون ، خشن الملمس ، فى داخل النواة لبة دسمة .

(٤) — الجوز

ثمر الجوز : أشكاله مستديرة ، سفطية ، عليها قشرة ليفية ثخينة ، فى داخلها قشرة أخرى خزفية صلبة ، مجوّفة ، فيها خزائن مقسومة ، فيها لبة دسمة ، عليها قشرة رقيقة ، و بينها حجب ، منخرقة أقسامها ، مهندمة واذا فصلت هذه الثمرة انفصلت بنصفين كالسفطين .

(٥) — اللوز

ثمر اللوز : شكله مخروط ، سفطى عليه قشرة ليفية ، فى داخلها قشرة خزفية صلبة ، فيها ثقوب نافذة ، فيها فتائل ليفية ، فى داخل هذه القشرة لبة دسمة ، عليها قشرة رقيقة صلبة .

(٦) — التين

ثمره ليس له نوى ، عليه قشرة لحمية ، وشكله مخروط صنوبرى ، وفى أسفله ثقبة مستديرة ، فيها شظيات زبيرية ، وفى جوف هذه الثمرة حبوب صغار رخوة ، وطعم مادّته قبل النضج لبن أبيض غليظ حاد محرق ، و بعد النضج طعمه حلو .

(٧) — العنب

ثمره مختلف الأشكال : مستدير ومستطيل ومدحرج ومخروط ، ومختلف الألوان : أسود وأبيض وأحمر وأصفر وأغبر ، عليها قشور رقيقة صلبة ملساء ملتزقة بشحمتها ، وفى جوف شحمتها حبوب مختلفة الأشكال ، زيتونية ، فقاعية ، مفردة ومزدوجة ، وثلاثة وأربعة ، خزفية وعظامية ، ومنها صلبة ، ومنها رخوة ، فى جوف تلك الحبوب لبة دسمة ، ومادّة شحمتها قبل النضج حامضة ، وقبل ذلك عفصة ، و بعد النضج حلوة .

(٨) — الاجاص (٩) — والمشمش (١٠) — والخوخ

أشكال أثمارها مخروطة ، أوصدفية ، عليها قشور رقيقة ملتزقة بشحمتها وهى غليظة ثخينة ، فى داخلها نواة خزفية ، أشكالها صدفية داخلها ملساء ، فيها لبة دسمة ، وألوان هذه الثمار مختلفة .

(١١) — الاترج (١٢) — والنارنج (١٣) — والليمون

أشكال أثمارها كروية ، أومستطيلة ، أومدحرجة ، وعليها قشور لحمية غليظة ، شحمتها حامضة ، وفى داخلها حب صغار ، على دماص مرصعة شبه التلال ، مابين خلالها لحمة ، طعمها حامض ، وألوان قشرها حمر وخضر وصفر ، ومادّتها قبل النضج عفصة .

(١٤) — الحبة الخضراء (١٥) — الفستق (١٦) — السماق (١٧) حب الصنوبر

ثمارها ذات حبة صغيرة ، وفى داخلها نواة خزفية ، وفى جوفها لبة دسمة .

(١٨) — البلوط (١٩) — العفص (٢٠) السرو — (٢١) — الاهليلج

ثمار هذه الأشجار لاتنضج . انتهى الكلام على هذه الحديقة وأشجارها ٢١ شجرة .

وهاك عشرين حكمة لتقيس عليها حكما أخرى فى الشجر والنبات :

(١) الحب : تنظر الحب نراه مخلوقا فى أوعية تشبه الحرائط ، وتلك الحرائط على رءوسها أمثال الأسنة لتمنع الطير أن يأكلها لتحفظ للانسان ، فكأن الحبوب فى حصون محصنة لتحفظ للانسان .

على العجائب النباتية ، فلنقم معى ، ولنطف حدائق الأرض ، ولنظر أفانين الزهر ، وأعاجيب الثمر ، وأصناف الشجر ، والطرف الشائقة ، والنعم الواردة من المقام الأقدس ، والهدايا والتحف والمزايا ، ولست أقف بك مع طائفة الجامدين الذين لايقصدون إلا الذات الجسم التى لها حدّ محدود ، ومقدار موقوت ، بل أريد أن تكون من الذين قال الله فيهم : « تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » وأن ترتقى عن الطوائف التى قال فيها : « رزقا للعباد » ، فلتكن تلك رزقك ، وليكن علمها نورا لقلبك ، فجسمك يتغذى بأثمارها ، وروحك تحظى بحكمها ، إن الأشجار والمزارع كتاب كتبه الله بيده ، خطه فى الأرض ورسمه وهندسه وزوّقه ، ورفع الأستار عن بعض التلوب ، وقال : ياعبادى انظروا جمالى الذى احتجب عنكم فهذه آثاره ، وعلى مقدار علمكم به يكون نظركم لوجهى يوم القيامة ، ألم أقل : « نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم » ولا نور إلا ما اكتسبه الفكر ، واقتبسه النظر من العوالم المشاهدة المسطورة ، والمصوّرة المعقة المشروحة ، الشارحة للصدور .

إن الدراسة تكون لأربعة أشياء : للكتب السماوية ، وللمناظر الطبيعية ، وللكتب الحكمية ، التى اقتنصتها من العوالم العقول البشرية ، وللنفوس الانسانية .

هذه هى الصحائف الأربعة التى يدرسها الانسان ، فكتاب الطبيعة كتابى ، وكتاب نفوسكم كتابى ، وكتاب الدين كتابى ، وكتاب الفلسفة والحكمة اشراق من نورى على عبادى فهو كتابى ، وما كتب الفلاسفة ولا كتب الوحى والديانات إلا مرشدات لبحثكم العلمى فى العالم السماوى والأرضى ، ومهدات لكتاب النفس وكتاب الأفق ، وكل ما رأتموه فى الطبيعة فانه مخزون فى صحائف قلوبكم ويكون نورا مبينا .

إن من نظر فى العجائب النباتية ، وفكر فى الغرائب الحكمية ازدادت بصيرته هدى ، وعقله حكمة ، وازداد أجنحة يطير بها إلى العلا . إن للملائكة أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء ، تلك أجنحة القدرة والعلم ، والعلم هو الأصل ، فليردد الناس فكرا فى النبات وغيره تردد عقولهم عددا كما ازداد الملائكة مددا ، إن الناظر فى النبات ازداد أجنحة للطيران الى عالم الأفلاك فوق السماك .

حديقة فيها ٢١ نوعا من الشجر ، وأفانين العبر ، مختلفة الثمر

النخل . والرمان ، والتين ، والجوز ، والدرر ، والتين ، والعنب ، والاجاص ، والمشمش ، والخوخ ، والأترج ، والنارنج ، والليمون ، والحنة الحمراء ، والسنق ، والسمان ، والصنوبر والتوت ، والعفص ، والسرو ، والاهليلج .

(١) — الثمر الذى هو ثمر النخل

طويل شكل ، مستدير الحدة ، مختلف الألوان ، على نواه قشره رقيقة ، حريرية ، ليسة للمس ، صلبة المسح ، وعلى هذه النواة شحمة تحيط بها قشر صلبة ملساء ، وعلى ظهر النواة نقرة ، وفى الجانب المقابل نقرة مستديرة بها ثلاثة ثقوب ، وعلى رأس الثمرة من خارج قشره ، عليها شظيات متفرقة متشعثة بالثمرة ، ومادة هذه الثمرة ليس بصحيح عضية ، ولها الصحيح حموضة لزجة ، فهذه خمسة عشر وصفا للتمر .

(٢) — الثمر الرمان وثمرها

ثمرة : [illegible] كيفية ليفية شحمية ، مجوّفة من داخل ، واسعة ، [illegible] حبوب مرصعة ، شكل لها مخروطة ، فى جوف تلك الحبوب نواة [illegible] من خارج رأس ثمره من خارج فتحة مستديرة ، فيها غشاوة ليفية ،

وعليها

وعليها تنظيات ناتئة زبرية ، وحولها شرفات قائمة مخروطة .

(٣) — النبق وثمره

ثمر النبق : مستدير ، أملس ، شحمته ثخينة ، فى جوفه نواة مستديرة ، حسن اللون ، خشن الملمس ، فى داخل النواة لبة دسمة .

(٤) — الجوز

ثمر الجوز : أشكاله مستديرة ، سفطية ، عليها قشرة ليفية ثخينة ، فى داخلها قشرة أخرى خزفية صلبة ، مجوّفة ، فيها خزائن مقسومة ، فيها لبة دسمة ، عليها قشرة رقيقة ، و بينها حجب ، منخرقة أقسامها ، مهندمة واذا فصلت هذه الثمرة انفصلت بنصفين كالسفطين .

(٥) — اللوز

ثمر اللوز : شكله مخروط ، سفطى عليه قشرة ليفية ، فى داخلها قشرة خزفية صلبة ، فيها ثقوب نافذة ، فيها فتائل ليفيه ، فى داخل هذه القشرة لبة دسمة ، عليها قشرة رقيقة صلبة .

(٦) — التين

ثمره ليس له نوى ، عليه قشرة لحمية ، وشكله مخروط صنوبرى ، وفى أسفله ثقبة مستديرة ، فيها شظيات زبريه ، وفى جوف هذه الثمره حبوب صغار رخوة ، وطعم مادّته قبل النضج لبن أبيض غليظ حاد محرق ، و بعد النضج طعمه حلو .

(٧) — العنب

ثمره مختلف الأشكال : مستدير ومستطيل ومدحرج ومخروط ، ومختلف الألوان : أسود وأبيض وأحمر وأصفر وأغبر ، عليها قشور رقيقة صلبة ملساء ملترقة بشحمتها ، وفى جوف شحمتها حبوب مختلفة الأشكال ، زيتونية ، فقاعية ، مفردة ومزدوجة ، وثلاثة وأربعة ، خزفيـة وعظامية ، ومنها صلبة ، ومنها رخوة ، فى جوف تلك الحبوب لبة دسمة ، ومادّة شحمتها قبل النضج حامضة ، وقبل ذلك عفصة ، و بعد النضج حلوة .

(٨) — الاجاص (٩) — والمشمش (١٠) — والخوخ

أشكال أثمارها مخروطة ، أوصدفية ، عليها قشور رقيقة ملترقة بشحمتها وهى غليظة ثخينة ، فى داخلها نواة خزفية ، أشكالها صدفية داخلها ملساء ، فيها لبة دسمة ، وألوان هذه الثمار مختلفة .

(١١) — الاترج (١٢) — والنارنج (١٣) — والليمون

أشكال أثمارها كروية ، أومستطيلة ، أومدحرجة ، وعليها قشور لحمية غليظة ، شحمتها حامضة ، وفى داخلها حب صغار ، على دعاص مرصعة شبه التلال ، مابين خلالها لحمة ، طعمها حامض ، وألوان قشرها حمر وخضر وصفر ، ومادّتها قبل النضج عفصة .

(١٤) — الحبة الحضراء (١٥) — الفستق (١٦) — السماق (١٧) — حب الصنوبر

ثمارها ذات حبة صغيرة ، وفى داخلها نواه حرفية ، وفى جوفها لبة دسمة .

(١٨) — البلوط (١٩) — العفص (٢٠) السرو — (٢١) — الاهليلج

ثمار هذه الأشجار لاتنضج . انتهى الكلام على هذه الحديقة وأشجارها ٢١ شجرة .

وهاك عشرين حكمة لتقيس عليها حكما أخرى فى الشجر والنبات :

(١) الحب : نظر الحب نراه مخلوقا فى أوعية تشبه الحرائط ، وتلك الحرائط على رءوسها أمثال الأسنة لتمنع الطير أن يأكلها لتحفظ للانسان ، فكأن الحبوب فى حصون محصنة لتحفظ للانسان .

يرى الانسان سنابل القمح تمايل ذات اليمين وذات الشمال ، ويرى تلك السفا كالأسنة فوقها فالجاهل لايدرى والحكيم يعرف نعمة الله : « ولكنّ أكثر الناس لايعلمون » .

(٢) الشجر وأصناف النبات مخلوقات لاقدرة لها على الحركات كما الحيوان ، فوقفت رابضة فى أماكنها ، وأخذت ترضع من الأرض كما يرضع ولد الحيوان لبن أمه ، وتجتذب الأغذية من الأرض ، وتلك الأغذية تقسم على الورق والأغصان والأزهار والأثمار ، كل يأخذ ماينا سبه .

(٣) جذور النبات تمتدّ فى الأرض كما تمتدّ الأطناب ، فكما أن الخيام تمتدّ أطنابها من كل جانب لتثبت تلك الخيام فلا تسقط ولاتميل ، هكذا النبات عروقه منتشرة فى الأرض ، ممتدّة إلى كل جانب لتمسكه وتقيمه ، ولولا ذلك لم ثبت الأشجار العالية ، لاسيما فى الرياح العاصفة ، إن حكمة الله سبقت النبات فامتدّت عروقه الى الجهات كلها ليحفظ الشجر عند العواصف ، هكذا صنع الناس الخيام وجعلوا أطنابها ممتدّة من سائر الجهات تقليدا لما رأوا فى الأشجار .

(٤) نسج الورق : انظر الى الورقة الواحدة كيف ترى فيها مايشبه العروق مبثوثة ، فمنها الغلاظ الممتدّة فى طولها وعرضها ، ومنها الدقاق المتخللة تلك الغلاظ ، المنسوجة نسجا دقيقا عجيبا ، ولوكان البشر هم الصانعون له لم يفرغوا من ورقة واحدة فى طول الأزمان ، وبالنظر اليها يرى أنها كجسم الانسان المبثة فيه العروق الغلاظ ، ثم الدقاق ، ثم الشعرية الدقيقة جدا ، ثم ان العروق الغليظة تمسك الورقة بصلابتها وقوّتها . انظر هذا المقام موضحا بالأشكال فى سورة يس عند قوله: سبحان الذى خلق الأزواج كلها الخ .

(٥) الحجم والنوى : اعلم أن الله جعلها مغرمين بكنز الذهب والفضة والأحجار الثمينة ، فتراها تخزنها ونصونها ، وهذا معروف عند العامة والخاصة ، فأما العامة فانهم يموتون ولايدرون حكمة غرامنا بتلك الجواهر ، وأما الخاصة فانهم يقولون : لننظر الى ماكنزه الله أمامنا ، إن الله حكيم ولايخزن شيئا إلا لحكمة ، فما الحكمة إذن فى وضع النواة فى باطن التمرة ، والحجم فى باطن الفاكهة ؟ انا نكنز الأشياء ذات القيمة ولكن الله يكنز مالاقيمة له فى نظرنا ، كنز النواة ، والنواة لاثمن لها ، وربما طحناها وجعلناها علفا للابل ، وبعد التفكر العظيم يقولون : عجبا ! إن النواة أفضل ألف مرّة من الماس والياقوت والمرجان ، ان النواة تستحق أن تخزن فى أعزّ خزائننا فى خزائط الجواهر الثمينة ، هذا هو السبب فى أن الله خزنها ، ان النواة أصل النخلة كما أن الحبة أصل نبات القمح ، فالله خزن النواة وحصنها ، وجعل جرم التمرة غطاء لها لأنها أصل النخلة وهكذا بقية النوى ، فاذا حافظ الله عليها وأكثر منها فذلك للمحافظة على حياتنا ، أما اذا وضعنا الدرّة اليتيمة فى حرز فليس لها منفعة إلا فى التحلى بها ، والنواة منفعتها حياتنا وبقاؤنا ، وما به البقاء خير مما به التحلى ، إذ لاحلية إلا للأحياء ، فجلّ الله إذ عرفنا قيمة هذه المخازن والخزائط والصناديق المقفلة .

(٦) الصلابة فى النواة : إن صلابتها ممكنة لرخاوة الثمار ولرقتها ، فلو أن النواة لم تكن صلبة لسرى الفساد إليها قبل إدراكها .

(٧) قشرة الحب والنوى : خلق لكل منهما فى ظاهره قشرة ، فاذا سقطا فى التراب أوغيره لم يفسدا سريعا ، واذا ادّخرا لوقت الزراعة بقيا محفوظين ، فصار قشرهما الخارج حافظا لما فى باطنهما ، والذى فى باطنهما كالشىء الذى له صندوق يحفظه ، ولولا تلك القشرة على النواة والحبة لأسرع إليهما العطب ، ولم يصلحا لزرعهما مرة أخرى ، وكم من امرئ يأكل القمح والذرة وهو

لايدرى لم كانت هذه الصلابة ، ولوعلم الحقيقة لأدرك أن تلك الصلابة عليها مدار بقائنا وحياتنا ، وأن هذه القشرة أشرف من كل مايحفظ أجل الجواهر ، فباطن الحبة محفوظ أوّلا بغلافها و بسفائها ثم بصلابتها ، و باطن الثمرة محفوظ أوّلا بالكفرا رهو وعاء الطلع ، ثم بجرم الثمرة ، ثم بالصلابة .

(٨) نبات الحب والنوى متى وضع كل منهما فى الأرض وسقى خرج منه عرق فى الثرى ، وغصن فى الهواء ، وكلما ازداد غصنا ازداد عرقا تتقوّى به أصل الشجرة ، وينصرف الغذاء منه الى العصن فتكثر الفروع محفوظة عن السقوط بالهواء والانكسار ، ويصعد الماء فى جذرها إلى أعالى الشجرة .

(٩) تقسيم الغذاء على أجزاء الشجر والزرع تقسيما عادلا كما تقدم .

(١٠) خروج الأوراق قبل الأثمار : انظر الى الثمرة تجدها ضعيفة عند خروجها تستضرّ بحرّ الشمس وبرد الهواء ، فخرجت الأوراق قبلها لصيانتها كما خلق النبات والحيوان قبل الانسان لحياته ومنفعته .

(١١) نظام الأوراق : إن الأوراق تكون ساترة للثمرة لحفظها من الحرّ والبرد ، ولكن الثمرة لاتزال فى احتياج الى الحرارة الشمسية لتنضجها ، لذلك ترى بين الأوراق مداخل وفروجا فى خلالها لدخول الشمس والهواء التى لاغنى للثمرة عنها ، وكما جعلت الأهداب على العين مانعة الغبار ، مدخلة الضياء ، هكذا هنا منعت الأوراق الحرّ والبرد ، وأدخلت مايلزم من الهواء والحرارة . هذا هوالعلم الذى يرقى العقول . هذا هوالذى يقول الله فيه [ق] على ما فهمت من معناها . هذا هوالذى قال الله فيه : « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » هذه هى الحكمة الشريفة ، والآيات المنيفة ، والعلوم العالية ، والجواهر العالية ، ألا تعجب لكنوز مكشوفة مستورة ، وجواهر محجوبة منظورة ، وأسرار ظاهرة خافية و بدائع غالية ، رخيصة ، انظر كيف يجلس المسلم تحت الأشجار والأثمار ، والريح تعبث بالغصون والأوراق ، ولايدرى لم هذه الأوراق ؟ انظر لمسلم الزمان المستقبل كيف يفهم ماحجبه الله عن المسلم القديم ، يقرأ سطور الكائنات فى خلال الأوراق ، و يعجب من شمس تتخللها ، وهواء يداخلها ، ليعطى الثمرة حظها ، ويقرأ المسلم فى المستقبل : « وكل شئ عنده بمقدار » . أما أكثر المسلمين والفقهاء فيما مضى ، فقد كانوا عن المهم محجوبين ، العلم أمامهم مكشوف ولكنهم لايفقهونه ، اقرأ قول الله تعالى : « أفلايتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » فاذا أقفلت القلوب لم تفهم الحكم التى سمعتها فى حبّ الحصيد ، ولافى النخل الباسقات التى لها طلع نضيد .

(١٢) الثمرة فى غلافها : منذ أيام كنت مارّا أمام [كوبرى الملك الصالح] وأمامى نخلة قد انشقّ [كبراها] أى غلاف طلعها ، وانشقاقه كان من الجهة العربية حيث تصيبه الشمس لأنه مكشوف من جهتها ، أما الذى فى جهة الشرق فلم ينشق ، ثم انى عجبت كيف كان انشقاقه تدريجيا شيئا فشيئا ، فأخذت أفكر فى ذلك العجب ، وأن الذى برز الى الشمس هوالذى قوى على تحمل الجوّ ، وأن الذى لايزال مستورا هو الذى لم يقو ، وكلما اشتدّ مستور ظهر للشمس والريح ، ومنذ يومين مررت فوجدت جميع طلع هذا العلاف قد ظهر ، فأما غيره فانه لايزال بحاله لم يشقق لبعده عن ضوء الشمس .

(١٣) موازنة بين الثمار و بين الأجنة : كلاهما مادام لايقوى على الجوّ يبقى فى مكمنه ، فمتى قوى

خرج منه .

(١٤) اعتبر ذلك فى أمم الأرض من حيث الدين والعلم ، يعلم الناس الدين ويحجبون عن الحكمة المحبوءة فيه كما ترى فى أمة الاسلام يقرءون الأحكام الشرعية فاذا قويت العقول والفطن أطلعهم الله على بدائع صنعته ، فهذا الذى نقوله الآن يفهمه أكثر الناس ، لكن لايذوق الحكمة ويحس بها فى نفسه إلا من أصبحوا أشبه بالجنين وقد نزل من الرحم ، و بالثمرات وقد خرجت من الأكمام ، فأما من عقله لم يزل ناقصا فهو أشبه بالثمر فى الأكمام ، فليلزمه شيوخه بالعبادات ، وليمشوه من هذه الآيات .

(١٥) حب الرمان المرصع المتقدم ذكره : ترى فى داخل الرمان كما تقدم شحما مركوما غليظ ، الأسفل رقيق الأعلى كأمثال التلال فى ألوانه ، أوكالبناء الذى وسع أسفله للاستقرار عليه ، ورقق أعلاه حتى صار مرصوفا رصفا كأنه منضد بالأيدى ، ولاجرم أن الأيدى تعجز عن ذلك التدخل الذى نظم حبها فى الشحم المذكور ، وترى هناك أقساما كل قسم منها مقسوم بلطائف رقيقة مدسوحة أعجب نسج وألطفه ، لتحجب حبها حتى لايلتقى بعضه ببعض فيفسد ولا يلحق البلوغ والنهاية .

(١٦) غذاء الحب فى الرمان : لوأن الحب كان هو الحشو للرمان لاسواه ولم تكن هناك حواجز فمن أين يستمد الحب العذاء ؟ ولذلك جعل ذلك الشحم خلاله ليمدّه بالغذاء ، فلذلك ترى أصول الحب مركوزة فيه ، لماذا ؟ ليمدّها الشحم بالغذاء ، وهناك عروق رقاق توصل للحب غذاءه ، والى حبة حبة غذاءها .

(١٧) فى حب الرمان أيضا الحلاوة فى المرارة : ترى الحب حلوا وهو مغروس فى أصول مرة شديدة المرارة قابضة ، وهناك لفائف لطيفة على الحب لتمسكه فلايضطرب وتحفظه ، وحفظ جميع ذلك فى قشر عليظ واق تمام الوقاية .

(١٨) عود الرمانة : قد جعل متينا قويا حتى تستكمل خلقها فلاتسقط قبل بلوغها الغاية .

(١٩) الطيخ واليقطين والفقوس : عود هذه النباتات محتاج الى الماء أشد الاحتياج ، لأنه على الدوام يجتذب ماء كثيرا ، ولذلك ترى الفلاحين فى صواحى مصر يسقون تلك النباتات كل يوم مرة ، لأنها تجتذب ماء كثيرا ليملأ ثمرها العظيم جدا ، فترى الطيخة مثلا كبيرة كالحرة العظيمة ، وربما كان فى الشجرة الواحدة كثير ، وكان العود دائما مشبعا بالماء ليوصله الى ثمره ، فكان أشبه بالقناة الرطبة ، فلن يستطيع أن يكون قائما ، لذلك انبسط على الأرض ، وترك ثمره على الأرض والأرض تحمله ، لأن هذا العود الطرى اللين لايقدر على حمل نفسه فضلا عن حمل هذا الثمر العظيم .

(٢٠) الطيخ وما معه : لاتحلق إلا عند الحاجة إليها ، وفى الأرمنة المناسبة ، فلايحلق فى الشتاء لأنه بالصيف أليق .

فهذه عشرون حكمة ذكرتها لك لتدرس رياض الحيات فى الدنيا ، وتنال رياض الجنات بدراسة هذه الرياض فى الآخرة ، والله هو الولى الحميد .

شذرات علمية فى النبات

(١) نبات يفيد و يستفيد : قال اللورد أفبرى فى كتابه [محاسن الطبيعة] : هناك أنواع القطر [بضم القاف والطاء] والكمأة التى تنمو بين الأشجار ، وقد تكون على الجذوع أيضا ، وقد ترى القسم الظاهر من جذور الشجرة مغطى بطبقة من هذه النباتات المجهولة الفصائل حتى الآن ، هذا النبات قد كان يظن النباتيون أنه يضرّ الشجر ضررا كبيرا ، وقد عرفوا أخيرا أنه يمتص الغذاء بالجذور و يصير عصيرا فى تلك النباتات ، و يتسرّب فى عروق الشجرة و يزيدها نماء ،

(٢) وصف الغابات فى البلاد الحارّة : قال اللورد المذكور : عجب عجب للغابات فى المناطق الحارّة ، ترى الشجرة ملتفة بالشجرة متعانقة الأغصان ، محبوكة منسوجة نسيج الثياب سدى ولحمة ، فكأنها بساط عظيم ، ترفع بصرك فترى شبابيك من الأغصان المشتبكة المختلطة المتداخلة المتعانقة ، والأزهار تقبل الأزهار ، والأثمار تحيط بالأثمار ، والأوراق متلاصقات ، وربما وقعت بين جذوع عاريات لاجمال فيها ، ثم ترفع بصرك فترى نفسك تحت قبة فى جوّ السماء ، خضراء ، بهجة تسرّ الناظرين ، قد حجبت نور الشمس وقت الظهيرة بذلك السقف المرفوع الزبرجدى البهج المنسوج البديع .

(٣) كيف خربت أقطار واسعة من سورية وفلسطين وآسيا الصغرى وشمالى افريقية ، يقول اللورد المذكور : إن تلك الأقطار كانت أكثر سكانا ، وأعظم مدنا ، وأنعم عيشا ، و بلادها تدرّ لبنا وعسلا ، ثم تحوّلت إلى صحارى قاحلة ، وأراض جرداء خالية ، قال : إن الأمم انقرضت لما انقرضت أشجارها وغاباتها ، ولو أنهم حرصوا على غاباتهم لكانوا أشدّ حرصا على دولتهم ، يريد أن من أولع بالتخريب صار ذلك ديدنه ، فيؤول أمره إلى البوار . انتهى الكلام على اللطيفة الثانية .

اللطيفة الثالثة

فى قوله تعالى : « إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد * مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد »

لقد أسلفت فى هذا التفسير فى مواطن كثيرة آراء القدماء والمحدثين فى عالم الملائكة ، وعالم الجنّ ، وسأذكرها مختصرا موجزا منه فأقول :

(١) لقد ترى أن الناس يختلفون فى أشكالهم وألوانهم وأخلاقهم ، حتى ان كل امرئ يكاد ينطق بما استكنّ فى نفسه ، وهيئة الانسان وسيماه تدل على مافى نفسه من المحاسن والمساوى كما شرحه العلامة ابن خلدون فى المقدمة

(٢) إن الأمم اليوم ومنها أمتنا المصرية قد عرفت أن خطوط ابهام اليد فى المرء لاتشتبه فيها بسواه ، فلذلك جعلوه علامة على صاحبها لاتختلط بسواه .

(٣) قد رأى الناس اليوم الآلة الحاكية وهى [الفونوغراف] فهو كصدى الصوت يحكى ماقيل بلاخلل وقد أمكن الناس اليوم أن يحفظوا الأصوات فى اسطوانة ويديرونها فتنطق بما نطق به الانسان ويتكرّر ذلك سنين وسنين ، قد زاد الانسان على ذلك ، فترى علماء النفس فى بلاد أمريكا عرفوا علما يسمى علم الأثر ، وملخصه كما تقدم موضحا فى ﴿سورة النساء﴾ أن بعض النفوس اذا غابت بدويم مغناطيسى ، ثم أعطى لها أثر انسان أوحيوان أوجماد أونحوه أخذت تلك النفس

نقص ماجرى لصاحب الأثر ، حتى ان أحد هؤلاء القادرين على ذلك ، المتعوّدين عليه اذا دخل في حجرة ذكر كل مامرّ بها من خير وشرّ ، ووصف هيئات الذين عاشوا فيها وحسناتهم وسيئاتهم

(٤) قد علمت أن علم الأرواح انتشر ، ولقد قدمت لك آراء آلاف من العلماء قرّروا هذه الحقائق ، ولقد مضى في هذا التفسير أن اللورد [أوليفر لودج] قال في محفل عام أيام الحرب الكبرى : « إن هناك عوالم أعقل منا تحيط بنا وتساعدنا ، والله نفسه يساعدنا » كل ذلك بالتجربة العلمية

(٥) أفلست ترى معي أن العلم الحديث كأنه إنما جاء ليعرف الناس دين الاسلام ، والافكيف يقول الله تعالى : إن هنا ملكين أحدهما على اليمين والآخر على الشمال ، ويقول : ان الانسان له قرين من الملائكة وقرين من الجنّ ، ويقول : لكل امرئ ملك يسوقه وملك يشهد عليه .

هذه أمور سمعية ليس للعقل فيها مدخل ، ولكن العلم الحديث أثبت هذا كله ، أثبت ماهو أعجب ! أثبت أن الجماد الذي يحيط بنا يرسم فيه مايجول بخواطرنا فضلا عما نعمل أو نتكلم به حتى قال أحد علماء النفس في أمريكا كما تقدم في هذا التفسير : « سيأتي قوم بعد ألفي سنة أو أكثر وبهذا العلم يمسكون بحجر مما كان حولنا ، ويقصون حسناتنا وسيئاتنا وآراءنا وأخلاقنا ، وما كنا نخشى أن نقوله بألسنتنا » .

ياعجبا كل العجب ! فاذا كان الجماد أصبح يخبرنا ويخبر غيرنا بما عملنا فكيف لاتعرف ذلك الأرواح المجرّدة من المادّة ؟ المادّة أصبحت مخزنا لعلومنا فكيف بالأرواح المجرّدة التي أثبتها العلم الحديث .

اللهم إن دين الاسلام لايظهر إلا في المستقبل ، أما القرون الماضية فلم يكن بعد الصدر الأوّل من العلم إلا القشور ، اللهم انك أنزلت الاسلام ، وهاأنت ذا سبحانك تفهمنا قولك : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » فدين الاسلام الآن يظهر في الأنفس ويظهر في الآفاق ، ونحن فيه الآن ظهوره في الأنفس .

ففز بعلم تكن حيا به أبدا ✲ الناس موتى وأهل العلم أحياء

اللطائف العامة في هذه السورة (١)

اللطيفة الأولى في سرّ [ا ل م] في قوله تعالى : « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج » .

اللطيفة الثانية في أسرار قوله تعالى : « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم » الخ . وفي هذه اللطيفة مبحثان ﴿ المبحث الأوّل ﴾ في عجائب العين التي اختصت بنظر السماء ﴿ المبحث الثاني ﴾ في عجائب نفس السماء ، وذلك بفهم آلة النظر والجسم المنظور .

اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » .

اللطيفة الرابعة في قوله تعالى : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » .

(١) هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ، ولم يفتح الله بها إلا عند تقديم هذه السورة للطبع [المؤلف]

اللطيفة الأولى

فى سرّ [ا ل م] فى قوله تعالى : « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج »

ما كدت أكتب هذا العنوان حتى حضر صديق العلامة الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير . فقال : إن غرامك بالعلويات والسفليات من الكواكب والزروع والشجر والجبل جعلك مغرما بالكلام فيها حتى ان أكثر هذا التفسير راجع الى هذه المعانى ، فهلا أقللت من هذه المعانى فى نحو هذه الآيات ؟ فقلت ياصاح : قد تحملت ولم تستطع صبرا على ما أريد أن أقوله ، إن كتابتى فى هذه الليلة إحدى ليالى شهر شعبان سنة ١٣٥٠ هجرية الموافقة ليلة الخميس ٣١ شهر ديسمبر سنة ١٩٣١ م ترجع إلى [ا ل م] فى قوله : « أفلم ينظروا » . فقال : ومالهذه فى هذا المقام ؟ فقلت يا صاح : ان هذه بينها و بين [ا ل م] فى أوّل ﴿ سورة البقرة ﴾ صلة . فقال : وأىّ صلة بين البقرة وسورة ق ومافيها من الآيات ؟ فقلت صلة وثيقة عجيبة ، ان هذا سرّا كان مخبوءا والله أبرزه اليوم فى هذا التفسير ، وحرام علىّ أن أكتم عن الأمم الاسلامية ما وقع فى صدرى فى هذا المقام من عجائب القرآن . فقال : انك تصف أمرا عظيما فما هو ؟ قلت [ا ل م] من مفاتيح علوم القرآن . فقال : أرجو الايضاح ؟ فقلت : ابتدأ الله القرآن بالفاتحة ، وابتدأ الفاتحة بالبسملة ، فالبسملة أشبه بمقدمة للفاتحة ، و براعة استهلال ، والفاتحة كذلك بالنسبة للقرآن ، ولم يبق بعد براعة الاستهلال أو المقدمة وهى الفاتحة التى هى أم الكتاب إلا أن يبتدئ فى تفصيل ذلك المجمل ، فكان الابتداء برمز هو [ا ل م] وهى من الحروف التى فى أوّل السور ، وقد تقدّم الكلام عليها فى كل سورة على حدتها ، وأعمّ الكلام فيها ما جاء فى أوّل ﴿ سورة آل عمران ﴾ فقد ذكرت هناك آراء طوائف المتقدّمين الثلاثة ، وهى مايذكره أشال ابن عباس رضى الله عنهما ، وأمثال ما يذكره بعض الصحابة والتابعين من مناسبات هذه الحروف من حيث أوصافها وأحوالها ، وانتظام أوضاعها [راجعه هناك] ومن حيث مناسباتها للعالم المحيط بنا الى آخر ماهنالك ، ومثل ماتبدّى لنا فى هذا الزمان من العجائب والبدائع ، مثل أن [ا ل م] فى سورة ﴿ آل عمران ﴾ تذكر مسلمى زماننا بما قصه الله من حال اليهود فى زمن النبوّة ، وأنهم باتكالهم على شفاعة آبائهم وتخفيف العذاب عنهم يوم القيامة ، أوتحديد أيامه فى جهنم قد أخلوا بشرائط الدين فدلوا وزال ملكهم واستولى المسلمون على مايملكون ، فاذا عرف المسلمون أن [ا ل م] فى أوّل آل عمران قد أشارت بطرف خفىّ الى هذه المعانى ، ورأوا أن ذلك ايقاظ من الله لهم فى زماننا هذا ، يدعوهم ذلك الى الجدّ والتشمير فى العمل وأن من ظنّ أن الشفاعة التى أجمع عليها المسلمون يعقبها الكسل والتواكل وترك العمل كما كان اليهود فى زمن النبوّة فهو مغرور ، وأن الأمة الاسلامية التى تكون هذه حالها لامحالة آيلة إلى الاضمحلال والزوال .

أقول : اذا عرف المسلمون ذلك جدّوا حالا فى العلم والعمل وعدم التواكل كما هو الحاصل فعلا الآن ، وهذه المعانى هى التى ذكرتها فى سورة ﴿ آل عمران ﴾ هى الموافقة لقوله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » ولاجرم أن [ا ل م] من القرآن ، ولقد تدبرناها فألفيناها ناطقة بهذه المعانى ، وهذه المعانى سائغة ، وفيها من البلاغة مالا حدّ له ، والمعنى المأخوذ منها عظيم الأثر جليل النفع . فقال صاحبى : نعم هذا تقدم ولكن نحن الآن فى سورة [ق] و[ا ل م] فيها فى وسطها لا فى أوّلها . قلت : أيها الصديق لاتعجل ، ان المفتاح الذى جاء بعد الفاتحة قد فتح به أوّلا خزائن علوم الصبر على مكاره القتال . وعدم الفرار منه ، وعن الشهوات ، حتى يقدر الجندى على المصابرة فى الحرب ، فهما صنوان : صبر على اصطلاء نار الحرب ، وصبر عن شهوات النفس ، وهذان لايتمّ نصر إلا بهما ، فالأوّل فى آية : « أم تر الى الذين خرجوا من

ديارهم وهم ألوف » والثانى فى آية : «ألم تر إلى الملأ من بنى اسرائيل من بعد موسى» فقد جاء فى هذه الآيات مسألة شرب الماء وأن من شرب منه قليلا أمكنه المصابرة فى القتال ، ومن شرب كثيرا كرّ راجعا مهزوما ، فالقليل من هؤلاء الصابرون فازوا فى الحرب على الكثير من الأعداء الشهوانيين الكافرين ، فهاتان خزانتان فتحتا بهذا المفتاح فى ﴿ سورة البقرة ﴾ : خزانة الصبر على مكاره نفس الحرب ، وعلى مكاره ترك الشهوة ، أى الشجاعة والعفة ، وباجتماعهما مع العلم يكون كمال الانسان ، والخزانة الثالثة جاء مفتاحها [ا ل م] فى سورة ﴿ آل عمران ﴾ وهى ترك الأمانى والتعليل بالأباطيل كما ذكرناه ، بل يجب تجريد الشفاعة من المعانى المناقضة للنشاط والاقدام والمثابرة والا كان هذا الفهم مجتثا للدين من أساسه ، وكم من خزائن فى القرآن فتحت بهذا المفتاح مثل قوله تعالى : « أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » وقوله تعالى : « أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال » فهمنا فى هاتين الآيتين جاء ذكر [ا ل م] وجعل مابعدها مذكرا لمن فوق الأرض بأحوال من هم تحتها فى قبورهم ، وأن الله قد ضرب الأمثال للأحياء فاذا لم يتعظوا أصابهم الله بذنوب الأموات الذين سكنوا ديارهم ، وهذا بعينه هو الذى حصل فى ديار الاسلام .

ياسبحان الله ، ويا عجبا يا ربنا ! ألم يسكن المسلمون أيام الدولة الأموية والعباسية ديار أمم الروم والفرس ، ألم يصب الله هذه الممالك بعدوى الفرس والروم ، فابتدأ معاوية رضى الله عنه بتقليد الروم فى أبهة الملك الظاهرى كما قدمناه ، واتسع ذلك النطاق فكانت الدول الاسلامية شديدة الاسراف ، واتبعوا سنن من قبلهم ، أليس هذا بعينه قوله تعالى : « أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم » وقوله تعالى : « وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم » الخ .

ولاجرم أن المسلمين السابقين واللاحقين تبين لهم كيف فعل الله بدولتى فارس والروم اللتين حلّ المسلمون بديارهم وسكنوها ورأوها فلم يعتبروا فحلّ بهم ماحلّ بمن قبلهم ، لأن الله بالمرصاد وعدل حكيم [اقرأ هذا المقام فى سورة الأحقاف عند آية : « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا » ثم اقرأ تفسير سورة القتال والفتح ، ففى غضون ذلك ترى هذه العجائب من تاريخ الاسلام] فانك ترى أن الله طبع على قلوب هذه الأمم بحيث ترى الاسلوب فى النظام واحدا فى بغداد ودمشق وقرطبة ومصر قديما . كل ذلك يرجع للمفتاح الذى فى أوّل ﴿ سورة البقرة ﴾ الذى ذكره الله بعد الفاتحة .

هذه هى الخزانة الرابعة من خزائن العلم التى مفتاحها [ا ل م] ولنتجاوز ذكر الخزائن الأخرى التى يفتحها هذا المفتاح ، لأنك أيها الذكىّ يسهل عليك فتحها بعد ما اقتصرنا عليه مما بيناه ، ولنذكر الخزائن التى فى هذه السورة فى هذه الآية ، وهى خزائن علوم السموات والأرض ، إذ يلفت الله نظرنا نحن المسلمين فى آيات الكواكب والأقمار والشموس والمجرات والسدم ، فهذا المفتاح الذى فتحت به خزائن العلوم فى سور كثيرة جىء به هنا لفتح العلوم . فقل : إن هذه العلوم مفتحة الأبواب ، وقد فصلت فى هذا التفسير كثيرا كما قلته فى أوّل سؤالى . فقلت نعم ولكنها لم تفتح خزائنها إلا فى هذا الزمان ، ولما فتحت عرفنا بعض أسرار [ا ل م] التى جاءت مفتاحا فى أوائل السور ، وهاهى هنا بها فتحت تلك العلوم .

فقال : إن التماس هذه المعانى من الحروف فيه تساهل ، وهل سبقك بهذه المعانى أحد ؟ أوليس هذا يعدّ تفسيرا بالرأى ؟ ثم ان تكرار الكلام على عجائب السموات والأرض يشعر المسلمين بأن المفسر يجب عليه أن يعرف علوم الفلك والطبيعة وغيرها من علوم عصرنا ولم يقل به أحد ، ألا ترى أن صاحب الاتقان

ذكر شروط المفسر وحصرها فى ١٥ علما وهى :

(١) اللغة .
(٢) والنحو .
(٣) والصرف .
(٤) والاشتقاق كاشتقاق [المسيح] هل هو من السياحة ، أو من المسح ؟ والمعنى يختلف تبعا للاشتقاق
(٥) والمعانى .
(٦) والبيان .
(٧) والبديع .
(٨) وعلم القراءات .
(٩) وأصول الدين .
(١٠) وأصول الفقه .
(١١) وأسباب النزول والقصص .
(١٢) والناسخ والمنسوخ .
(١٣) والفقه .
(١٤) والأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم .
(١٥) وعلم الموهبة ، وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم الخ .

قال ثم قال : فهذه هى العلوم التى أوجبها العلماء على المفسر . فلما أتم سؤاله قلت له : أما قولك : ان هذه المعانى لم يسبقنى بها أحد ، وانى فسرت بالرأى ، وأن العلوم الكونية من العلوم التى تشترط فى المفسر فجوابه أن أقول :

اعلم أن فعل العاقل يكون مشابها لقوله ، قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم » فمن أصلح قوله صلح فعله ، وبين أدب النفس وأدب الدرس مناسبة ، والله الذى ليس كمثله شىء قال وفعل ، ونحن لم نعرف من قوله إلا الوحى ، وفعله هى هذه العجائب فى السموات والأرض ، نراه أبدع المجرّات والسدم والشموس والأرضين ، فأوّلا خلق الأثير ، ثم من الأثير خلق المجرّات والسدم ، ومن هاتين أخرج الشموس ، ومنها أبدع السيارات والأرضين ، ومن هذه أبدع الأشجار والزروع ، وعلى هذه ثمر الأزهار والأثمار ، فكل عالم من هذه العوالم زهر لما قبله ، فالزهر للشجر ، والشجر زهر الأرض ، والأرض والكواكب أزهار الشمس ، والشموس أزهار المجرّات ، والمجرّات أزهار الأثير ، والأثير صنع الله بلا مادّة .

هذا كله فى عوالم المادّة التى منها الانسان الذى هو من زهر الأرض ، فهذا الانسان أيضا له زهر وزهره هى الحكم التى تلقى على قلبه ، وقد اختص به دون سواه من العوالم ، ان عوالم الحيوان كذوات الفقرات من الطير والسمك ، وذوات الأربع ، وكالحشرات ، كل هذه زهرات فى الأرض ولكن الانسان أرقى ، ان كل حيوان فيها يعيش بغريزته ، والغريزة منحة من الله لا نصب فى تحصيلها ، ولكن الله يريد عالما أرقى من ذلك العالم يحب أن يتعلم الاستقلال فى عمله ورأيه . وذلك بوقوعه بين متضادّين ، وهما الخير والشرّ ، ويربى ملكته ويحكم بعقله ولا يتكل على الغريزة ، لأن الله يريد عقولا مدبرة لها استقلال ، وهذه العقول لن يملكها إلا الانسان ، فهو يربى ليتعلم الاستقلال ، والاستقلال لا يكون إلا على هذا المنوال : نسب وجدّ فى الاختيار والأعمال ، واصدار أحكام فيما تشابه من الامور خيرها وشرّها . وهى كلما تلت العقول عرجت إلى ملأ أعلى والابقيت مع العوالم المحيطة ، فهذه العقول الانسانية لها زهر أيضا وهى الحكم التى يلقيها الله على

القلوب وهي الشرط الخامس عشر الذي ذكرته أنت من شروط المفسر، وقد جاء في صفحة ١٨١ في نفس كتاب [الاتقان] بعدماذكرته أنت من شروط المفسر مانصه : « علم الموهبة علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم » والميه الاشارة بحديث : « من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم » .

قال ابن أبي الدنيا : « وعلوم القرآن ومايستنبط منه بحرلاساحل له » . قال : « فهذه العلوم التي هي كالآلة للمفسر لايكون مفسرا إلا بها فمن فسر بدونها كان مفسرا بالرأي المنهي عنه ، واذا فسرمع حصولها لم يكن مفسرا بالرأي المنهي عنه » . قال : « والصحابة والتابعون كان عندهم علوم الدين بالطبع لا بالاكتساب واستفادوا العلوم الأخرى من النبي صلى الله عليه وسلم» انتهى .

فانظرالى قوله «علوم القرآن ومايستنبط منه بحرلاساحل له » . أيها الأخ : نحن جئنا في زمان فيه وجدنا أوائلنا قد حصوا هذه العلوم تمحيصا وسهلوا دراستها لنا ، فهذه القرون الطويلة بعد النبوّة لم تدع قولا لقائل ومهدت الطرق لنا ، وسهلت السبل لنا ، وأصبحنا حين نقرأ القرآن نجد أمامنا الأبواب مفتحة في كتب أوائلنا فنجدهم قد استوفوا لنا تلك الشرائط وأكملوها فلانصب اليوم في تحصيلها ، انما النصب في تحصيل العلوم الأخرى التي أشاروا لها بالموهبة والتي قالوا : ان علوم القرآن ومايستنبط منه بحرلاساحل له .

فهذا الذي نقوله نحن من أن [ا ل م] في أوّل البقرة مفتاح ، وهذا المفتاح فتحت به خزائن ومنها خزائن العلوم الكونية في هذه السورة وفي غيرها ، فالعلوم العصرية تعين على علم الموهبة المذكور ، إذن ثبت أن كلام المتقدمين دخلت فيه هذه العلوم من حيث انها معينة على تلك الموهبة التي ذكروها ، فأما التفسير بالرأي والهوى فمثل تفسير الروافض : « مرج البحرين يلتقيان » انهما عليّ وفاطمة « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » يعني الحسن والحسين . فأما نحن فالحمد لله قد راعينا هذه الشروط الخمسة عشر بفضل آبائنا العظماء ، ثم وجدنا أن أمتنا الاسلامية قد نامت نوما عميقا وتركت علوما وعلوما ، وألفينا هذا القرآن منسيا مجهولا ، مقروءا لفظا ، متروكامعنى ، وكل طائفة من طوائف المسلمين نامت عند أقوال شيوخها ، ثم تركت حبل الامور على غاربها ، فلم نجد بدّا من ايقاظها وبعث همم أبنائها ، ونحن اذا قلنا ان هذه الحروف التي في أول السورة قدأشارت الى هذه المعاني التي أسلفناها فقدقلناه ونحن مطمئنون لما نقول ، ألاترى رعاك الله أن هذه العلوم التي قلنا ان الحروف تشير لها كلها فروض كفايات ، إذن استخراج المعاني على هذا المنوال لم يكن موجبا بدعة ، ولاأمرا منافيا للدين ، بل هومن واجباته ، وفروض الكفايات نام عنها المسلمون قرونا وقرونا وناموا نوما عميقا ، فهذه الحروف في أوائل السور يقرؤها المسلمون ويكتفون بقولهم « الله أعلم بمراده » مع أن الله قال : « أفلايتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » فهذه من القرآن وقد تدبرها آباؤنا فقالوا : مافتح عليهم بحسب مايفع زمانهم ، ونحن تدبرناها فألفيناها مفاتيح لهذه العلوم التي في زماننا ولغيرها والا فلماذا نرى « أولم يروا » و « ألم تر الخ » كلها تحثّ على علوم نحن أجهل الناس بها ولايعرفها إلا القرنجة ، فما هذا التوبيخ في القرآن على الترك والتقريع ؟ نرى علماء أوروبا يدرسون الأجيال الغابرة والأجيال الحاضرة ، ويستخرجون نتائجها ليسعوا بها في حياتهم ، أفليس هذا نفسه هوقوله تعالى فيما قدّمنا : « أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات لأولي النهى » وهو نفس قوله تعالى أيضا : « وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم » أليس هذا حضا على دراسة آثار قدماء المصريين والفرس والروم وسائر جميع الأمم التي سكنا بلادها كما ندرس جميع العلوم والفروع ، أوليست هذه هي التي جعلت المسلمين جهلا وضحكا صاروا هزءا بين الأمم وأذلاء ، فأيّ ذلّ أشدّ من هذا الذل ! يعاشون ويدرسون آثارها الفرنجة ، ونحن نعيش ولاندرس أنفسنا ، ولاندرس آباءنا إلاقليلا فضلا عن

الأمم التى سكنا ديارها فلا نستخرج منها نتائج تنفعنا لنحترس مما وقعوا فيه ، ان ما كتبته فى هذا التفسير من معانى هذه الحروف لا أرال أزداد فيه يقينا كلما طلعت شمس .

أيها الصديق : انظر إلى ما أقصه عليك من أنباء ملوك الاسلام السابقين ، واعجب كيف انتفعوا برموز الحروف المذكورة . وهاك ماجاء فى الجزء الثالث من كتاب [تاريخ التمدن الاسلامى] صفحة ١٢ ومابعدها وهذا نصه :

« على أنهم لفرط اشتغالهم بحفظ القرآن وفهمه لو ذكر الرجل حرفا أو كلمة انتبه السامع للآية كلها ، وكثيرا ما كانوا يرمزون بالكلمة الواحدة الى آية يفهمها العارف بها ويعمل بها ، وقد تخفى على كثير ، ومما يحكى من هذا القبيل أن السلطان محمود الغزنوى الشهير بعث إلى الخليفة يطلب أن يذكر اسمه فى الخطبة ببغداد ، وينقش اسمه فى سكة الذهب والفضة ، فامتنع الخليفة من ذلك ، فبعث إليه كتابا فيه تهديد ووعيد ، قال فى جملته : [لو أردت نقل حجارة بغداد على طهور الفيلة إلى غزنة لفعلت] فبعث إليه الخليفة كتابا مختوما ، فلما فتحه لم يجد فيه بعد البسملة إلا ألفا ممدودة ، وفى وسطه لام ، وفى آخره ميم ، والصلاة ، والحمد لله ، فحار السلطان وأهل مجلسه من ذلك حتى دخل عليهم أبو بكر القهستانى ، ففكر فى ذلك وقال : عندى شرحه فقال : اذكر ولك ماتريد ، فقال : بعث إليهم السلطان يهددهم بالفيلة فبعثوا له هذا الكتاب وفيه ألف ولام وميم إشارة إلى قوله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول » فارتاع السلطان محمود لذلك ووقع فى قلبه الخوف والندم ، وعاد الى أحسن الأحوال من الرضا والأدب (١) » اهـ

***

فانظر كيف انتفع الخليفة العباسى برسم الفيل مع ذكر [ا ل م] وكيف ارتاع السلطان محمود الغزنوى من هذا المعنى ، وترتب على ذلك حقن الدماء ، وحفظ البلاد ، فى أعظم بقاع الأرض من سفك دماء مئات الألوف من الجيوش ، وتخريب الديار ، وحلول الدمار . ولقد تقدم مختصر هذا فى سورة البقرة فى الطبعة الثانية .

فهذا كله تم بمعونة [ا ل م] والسر فى ذلك أن هذا الانسان المخلوق فى المادة لاسعادة له إلا بالسعى ولذلك تجده لايحب إلا مامنع عنه ، والمبذول مبتذل ، والعزيز مرغوب فيه ، هذا دأب هذا الانسان وهذا شأنه ، ومعانى الرموز محيرة مشتبهة ، فمتى وصل الانسان إلى حلها سارع إلى العمل بها بفرح وسرور ، لأن تحصيل معانيها جاء بنصب وتعب ، وكل ماحصلناه بنصب وتعب أحببناه ، وهذا سر حياتنا فى الدنيا ، هذه الحياة الدنيا جعلت لتدريبنا على تحمل الأشيا وعلى العمل فيها ، وهذا هو الذى يعرفنا مارا وله فكرا وقولا وعملا ، وليس قول القائل للسلطان محمود الغزنوى : إن الله رماهم بحجارة وخيم كما حل بأصحاب الفيل كقول خليفة بغداد [ا ل م] فهذه حيرت العقول فلما اهتدى الى المعنى عمل النسر به ، واذا كنا نرى هذه الحروف الثلاثة فى الحديث السابق كان هذا نتائج معانيها ، أليس من أعاجيب القرآن أننا نرى المسلمين كانوا بأمين قرونا وقرونا وهم يقولون « [illegible] » ويتلمسون معانى حرشة عمية حتى اذا جاء وعد ربك بالفتوح على الأمم الاسلامية برزت هذه المعانى بارزة لتكون عبرة لأولى الأبصار ، مكتوبة لأنها تناسب زمانا وهو ضرب الله مثلا لأحوال المسلمين اليوم بما كان بين هذين الزمانين وان كان ذلك امرا جزئيا وهذا أمرا كليا ، وليس مدار بين الملكين إلا محرر تحرر وتدبر [illegible] وكما تنطق القرآن بقوم بعينهم فى الزمن فى مخاطبتهم العادية ، وكذا تنطق [illegible]

(١) من ابن خلكان [illegible]

ان [ا ل م] فى سورة ق مفتاح فتحت به خزائن الملك والطبيعة والعلوم المبنية عليها ، وهذا زمان الفتح لاغير ، لأن هذا الزمان هوالزمان الذى فيه ظهرت هذه العلوم والمسلمون فى حاجة اليها كما أن المسلمين فى بغداد فى حاجة الى هذا الرمز ، ففسره علماء السلطان محمود الغزنوى بما انتفع به المسلمون ، فحقنت الدماء هكذا هنا تحفظ دول الاسلام بهذه المعانى المستخرجات فى هذا الزمان بعد نصب العلماء فيها أجيالا وأجيالا ، فزال الاشكال ، وحلّ العقال ، وارتقى الاسلام .

قلنا ان قول الله كفعله ، وللفعل ثمرات تقدم وصفها ، هكذا للقول زهرات وهذا شرحها ، هى هذه الحروف فى أوائل السور ، وحروف أوائل السور متميزات منيرات ، والزهرات رمز الثمرات ، فهذه الحروف رمز لثمرات هى علوم ومعارف قد أظلّ أوانها ، وأقبل ابانها ، وحان حينها ، ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ ان هذه الحروف دلالات على علوم هى سعادات أمم الاسلام فى هذه الأيام وفى مستقبل لزمان ، إن هذه العلوم والسعادات قد ظهر نموذجها فى هذا التفسير ، إن أمم الاسلام قد أخذت تخطو إلى العلا ، إن أمما وأمما فى زماننا وبعد مبارحتنا هذه الدار سيقرءونه ويأتون بعلوم وحكم لم يحن حينها ، وليس هذا الجيل بمستعدّ لها ، ولتعلمنّ نبأه بعد حين ، فالحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

فلما سمع ذلك صاحبى قال : لقد شفيت نفسى ، فقلت : الحمد لله رب العالمين . انتهى الكلام على اللطيفة الأولى فى سرّ [ا ل م] فى قوله تعالى : « أفلم ينظروا » الخ ابتدأت فى كتابة هذا المقال قبل فجر هذا اليوم وهو آخر ديسمبر سنة ١٩٣١ وانتهيت من كتابته بعد صلاة الفجر الساعة السادسة إلا دقائق فالحمد لله على التمام .

اللطيفة الثانية

فى أسرار قوله تعالى : أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج

أى فى المبحث الأوّل من مبحثيها ، وهو مبحث عجائب العين التى اختصت بنظر السماء

هذا ما انشرح له صدرى قبيل الفجر ليلة الجمعة ١١ ديسمبر سنة ١٩٣١ م — استيقظت قبل الفجر فى ذلك التاريخ ، ونظرت إلى السماء ، ولحظت نفسى الكواكب التى كنت ألحظها فى الأعوام السابقة فى مثل هذه الأيام ، وهى الثريا والدبران والهقعه والهنعه ومايشبهها ، وقد تقدم الكلام عليها فى ﴿ سورة الصافات ﴾ فى أوّلها . وتقدم أيضا قبل ذلك فى سورة أخرى ، ولكن الذى توجه له نظرى فى تلك الليلة غير ذلك وهو أمران : كيف أنظر السماء ؟ وما نوع الرحمات التى أنعم الله بها علىّ فى عينىّ حتى نظرت هذه السموات ، أخذ منى العجب كل مأخذ ، وأخذت أتأمل : ياليت شعرى سماء واسعة سعة لاندرى مداها ! هاهم أولاء بنوآدم فى الأرض يبحثون ، فياهم أولاء لم يتجهوا للسموات نهاية ، وقد وصلت نجومها إلى ٢ على يمينها ٢٤ صفرا ، وهذا عدد ماهس وعظيم ، هذه جنات تجلت للمكرين فى الدنيا ، وانما الذى زاد دهشتى أن لى عينين تنظران هذه السماء ، والعين صغيرة عبارة عن كرة قدر الجوزة وهى مدبجة فيها صور وعجائب لاحدّ لها ، وباجتماعها أمكنى النظر ، عين صغيرة تجمع هذه العوالم كلها ، كيف بنيت عينى ؟ وماهى المناسبة بين عينى وبين الشمس والقمر والكواكب والأصوار فى أرض ؟ ؟ أنت عجيبة جدا أيتها العين ، اترك الكلام على السموات الآن ، ولنشرع فى دراستك حتى نعرف بذلك بعض ما أعطينا من الرحمات فى الأرض ونحن ذاهلون جاهلون ، ضعفاء عميان عن الجلال والحكم والبدائع ، كل ذلك لمعرفة الرحمة فى أوّل هذه السورة التى جاء بها الحض على النظر لهذه السموات .

مسامرة بيني وبين صديقي العلامة الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير

بينما أنا أكتب هذا إذ حضر صديقي العالم وقرأ ما قدم فظهر عليه السرور والبهجة والنور ، وأخذ يظهر الاعجاب بهذا الموضوع ، ثم سكت قليلا وقال : انك الآن تريد البحث في العين ، والبحث في السموات حتى نفهم كيف ننظر وبعد ذلك تبحث في عالم السموات . فقلت نعم . فقال : أليس هذا مكررا مع ماتقدم في أول سورة ﴿ آل عمران ﴾ ومع ماتقدم في ﴿ سورة المؤمنون ﴾ عند ذكر السمع والبصر هناك ، ولقد شرحت العين في ﴿ سورة آل عمران ﴾ شرحا بديعا جميلا لم أرَ له نظيرا ، وهناك وضعت رسمها ، وهكذا فعلت في ﴿ سورة المؤمنون ﴾ ولكن الرسم في هذه كان أوضح من الرسم في الأولى التي أبديت فيها عجائب للعين بديعة تشرح الصدور وتسرّ الناظرين ، فأما السموات فانك شرحتها في البقرة عند ذكر السماء في أوّل السورة وفي : « إن في خلق السموات والأرض » فيها أيضا ، وفي أوّل ﴿ آل عمران ﴾ وفي ﴿ سورة الأنعام ﴾ في أوّلها ، وفي آية ابراهيم : « واذ قال ابراهيم لأبيه آزر » الخ وفي آية : « ان الله فالق الحب والنوى » وفي سور أخرى مثل ﴿ سورة يونس ﴾ في أوّلها عند ذكر السماء ، وفي أواخرها عند قوله تعالى : « فاليوم ننجيك ببدنك » فهناك تبدّت عجائب مثل صور البروج التي وجدت مرسومة على صندوق أحد الفراعنة ، وهي صور واضحة عجيبة وتبعها هناك صورة الهرم وعجائبه المدهشة ، وكيف كان للهرم نسبة عجيبة الى الشمس وبعدها عنا ومدار الأرض حولها في السنة ، وكيف كان بين مساحات الهرم وبين المكاييل والموازين المصرية ومساحاتها نسب عجيبة . كل هذا تقدم وهكذا في آخر الكهف وسورة الفرقان ويس وأوّل الصافات وهكذا فالكلام على العين وعلى السموات قد استوفيته فيما تقدم أفليس يكون الكلام هنا تكرارا ؟ فقلت : أما أحمد الله إذ وفقني أن أرى أمثالك من الفضلاء أهل العلم وأما لا أزال حيا يقرءون هذا التفسير في أثناء تأليفه وطبعه ويتعقبونه ويذكرونني بما نسيت .

ومما يشجعني على السير في هذا الموضوع الآن أن أجدك قد استوعبت أكثر ما كتبته وهو حاضر في ذهنك ، ومن استوعب ماضي فقد استعدّ استعدادا تاما لما ألقيه الآن ، لأني سأذكر في العين مالم أذكره قبل الآن ، ومن فهم ماتقدم فهو جدير أن يفهم ما أكتبه الآن وهكذا ماسأكتبه في السموات .

الله أكبر : إن حياتنا كلها جمال ولكن يظهر لي أنا أشبه بقوم حبسوا في قصر ملك عظيم كريم ، وأمروا أن يغضوا أعينهم ، لأنهم لو نظروا جمال القصر لزال عنهم لمناء ولأحسوا بفرح كأهل الجنة في الجنة ، انا الآن في الأرض محبوسون ، وهذا الحبس به قلت سعادتنا ، ولكن الله عزّ وجل يريد لشدّة رحمته بنا أن يفتح لنا باب السجن شيئا فشيئا حتى نشاهد النور خارجه ، ولا أعرف بابا لهذا السجن إلا الدرس والعلم والنظر في هذا الكون .

أيها الصديق : من نحن ؟ وماهذه الحياة ؟ وماهذه العناية العظيمة بنا ؟ لو أن شابا أحبّ فتاة وهو محبوس عنها ولكنه يعلم أن لها به عناية وعطفا لفرح بهذه العناية فرحا لا حدّ له ، ويصبح الحب غذاء له ، وسعادة لا حدّ لها ، ونحن الآن في الأرض عمي عن اجسامنا وعقولنا . لا نفكر في خلقها والأعمار قصيرة ، فكيف تمرّ هذه الأعمار ولا نفتح هذا الكتاب لدى نفيس بين دفتيه ؟ وهو هذه الدنيا ، وأقرب شيء إلينا أجسامنا ومن عجائب أجسامنا عيوننا التي ترى هذه السماء ، ومتى عرفنا العناية أحببنا من هذه أعمالها . وصارت دار الدنيا سعادة .

انى أحيا لذكى ليلة الجمعة الماضية لما نظرت إلى السماء أحدّ النظر بمجاهدة حتى كادت الشمس تطلع حتى فتحت كتاب « علوم الجميع » في الجزء الذي هو رأيت فيه ما يأتي :

العين ومنفعتها

وقد كتب تحت هذا العنوان مانرجمته : « ما أسهل على الانسان أن يستعمل آلة وهو يجهل تركيبها ، ولا يعلم أيّ شيء عن أجزائها مطلقا ، إن آلافا من السياح فى كل سنة يأخذون الصور فى الجبل والسهل ، وهم لايعلمون أى شيء عن عجائب تلك الآلة التى بها يأخذون تلك الصور ، و بأيّ وسيلة تمكنت هذه الآلات العجيبة من احضار الصور البعيدة عنهم فجعلتها أمامهم .

وكم آلاف آلاف الملايين من الناس يستعملون عيونهم فى جميع الساعات التى هم فيها مستيقظون مدى حياتهم وهم مع ذلك لايعلمون شيئا عن بناء تلك العين وهندستها ونظامها ، وبدائع طبقاتها الباهرة الباقية للناظرين ، ولكن اذا أخذ الانسان يبحث فى عجائب العين فما أسهل أن يفهمها ، وأن يدرس دراسة كافية حتى يفهم :

(١) كيف ركبت طبقات العين ؟ .

(٢) وكيف كانت طبقاتها تعمل متحدة بهيئة موسيقية منتظمة عجيبة .

(٣) وكيف أمكننا بهذه الآلة المنظمة أن نعرف الصور ، والأحجام والمسافات وغيرها .

وههنا أخذ يضرب لذلك مثلا ، فقال : اذا أردنا أن نعرف الآلة المسماة [بالتلسكوب] فاننا لابدّ أن نفك تلك الآلة ونجعل كل جزء منها على حدته ، وندرس تلك الأجزاء ، ومتى انتهينا من دراستها كلها عرفنا نفس [التلسكوب] هكذا فلنفعل فى العين ، فكما فصلنا ونظرنا ودرسنا أجزاء التلسكوب هكذا يجب أن نفصل أجزاء العين واحدا واحدا ، ومتى تابعنا البحث فيها بدقة ، ووالينا التجارب والموازنات فيها فاننا لاجرم نصل تماما إلى ماتوجهت نفوسنا الى فهمه وهو : كيف تركبت العين وما منفعتها ؟

ومن حسن الحظ لهذا الموضوع أن عين بترة أونعجة أوذكريهما كافية لدراسة هذا الموضوع ، فاذا أرسلت إلى [القصاب] الحرار وطلبت منه زوجا من العيون أرسل لك ذلك بسهولة كما اتفق لى ، فمتى حصلت على العين فأوّلا أزل ما عليها من اللحم المحيط بجوانبها واذن ترى بعينك أن العين كرة وفيها حبل أبيض خارج من خلفها ، وهذا الحبل يمدّ فى داخل العين ، وقد كان قبل أن يقطع قويا متينا موصلا العين بالمخ ، اننا نستطيع أن ندرس العين من غير قلعها بأن ننظر فى المرآة بها وندرس أجزاءها الظاهرة دراسة سطحية بمجرّد النظر إلى المرآة :

(١) فلننظر أولا الجزء المقدّم الشفاف الكروى البارز المغلب ألا وهو [القرنية] .

(٢) إن هذه القرنية متصلة بالطبقة البيضاء المسماة بالصلبة ، وهى التى بها تحفظ كرة العين وتثبت فهى لها حفاظ يصونها .

(٣) وتحت هذه القرنية الشفافة يرى الانسان حلقة ذات لون وماهى هذه إذن ؟ هى القزحية أوالعنبية قد نسبت لقوس قزح من حيث ألوانه ، ولاشبهة من حيث لونها كذلك .

(٤) وفى وسط هذه القزحية ترى [البؤبؤ] وهو الساس العين ، وهى فتحة يدخل منها الضوء فيصل إلى البلورية و تتجه إلى الشكية كما سترا متصلا .

(٥) هنا نستطيع أن نصنع فتحة لنتمكن من داخل العين ، فلأخذ إذن آلة حادّة ونجس فى عين البقرة مثلا فتحة ، ولا كان السائل يتسرب حتى يبقى الحال كما هو نأتى بسدوفة بالغة [كوبس سيوم] و نغرسها بسرعة [الرطبة البيضاء] وهى بيضاء .

(٦) فاذا اتممت هذه العملية إتماما كاملا فاسحب كرة العين بملقط فانك ترى عصبا هو أحمر

الأعضاء فى العين ، وماهو إذن ؟ هوالعدسية المسماة البلورية والجليدية ، لأنها شفافة كالبلور وكالجليد وهى حالية من الشوائب مثلهما ، وهذه البلورية شفافة عند الصغار والشبان ، أماالرجل المسنّ فانها تكون أقرب إلى الصفرة ، وهذه الصفرة تحدث خللا فى نظر الكبير لاحاجة لتفصيله الآن لئلا نخرج عن المقام .

(٧) ثم أخذ المؤلف يصف المادّة الزجاجية التى تقع تحت البلورية التى تتصل بها من فوقها الرطوبة البيضية .

ووصف الشبكية ومن ورائها المشيمية التى تليها الصلبة التى تقدّم الكلام عليها ، وأنا لا أطيل الكلام فى هذا المقام ، لأنى أعرف أيها الأخ أنك تعلم تفصيل هذه الأجزاء مما تقدم فى هذا التفسير ، فلنجمل القول أوّلا برسم هذه الصورة التى رسمها المؤلف المسمى [ويليم اكروبد] وهى هذه (انظرشكل ١)

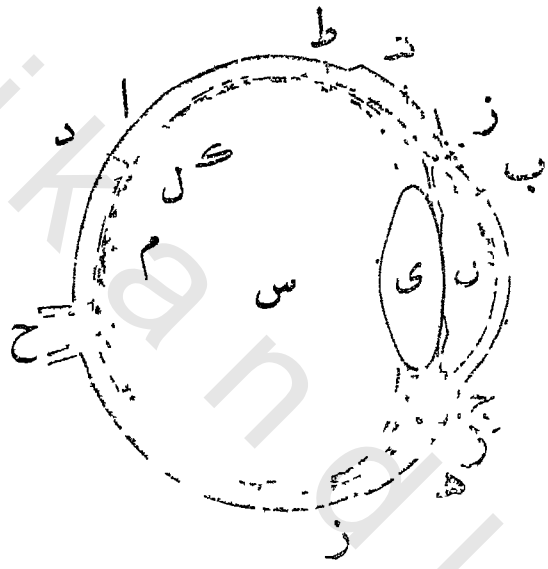

(شكل ١ — قطعة من العين الانسانية)

(١) — (ا) الصلبة .
(٢) — (ب) القرنية .
(٣) — (ج) الملتحمة .
(٤) — (د) غطاء المشيمة .
(٥) — (ه) عضلات هدبية شعرية .
(٦) — (و) ابتداء الأمداد الشعرية .
(٧) — (ز) الفرجية المسماة أيضا عنبية
(٨) — (ح) مبدأ العصب البصرى .
(ط) — (ط) محيط لشبكية .
(١٠) — (ى) الجليدية وتسمى البلورية .
(١١) — (ك) المشيمية
(١٢) — (ل) الشبكية .
(١٣) — (م) النقطة الصفراء فى الشبكية
(١٤) — (ن) الرطوبة البيضية
(١٥) — (س) الرطوبة الزجاجية .
. . . . . .

فلما سمع صاحبى ذلك وطن أنى قد انتهيت من مقال وبارحه الصورة . وقد [illegible] لكنا الآن أوّلا لم نصل للمقصود وهو اتصال هذه العيون [illegible] ، وكنت قد [illegible] رسمت صورة العين التى تقدّمت فى سورة المؤمنون هذا فان قارئ [illegible] لا يرى يهمه اختلاق حقّ

الفهم ، ثالثا : انك ذكرت أن المؤلف يقول : علينا أن ننظر عيون البقر والغنم ، ولاجرم أن المشاهدة بالعين أقوى أثرا من قراءة الكتب ، وقد جرت عادة الله ألا يجعل للقائلين قبولا عند سامعيهم ، ولا للمؤلفين عند قرّاء كتبهم إلا اذا كانوا هم موقنين بما يقولون ، وأىّ ايقان لكم أكثر من اطلاعكم بأنفسكم كما قال تعالى « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » وهذه هى الشهادة بالحقّ التى ذكرها الله فقال : « إلا من شهد بالحقّ وهم يعلمون » وأىّ شهادة بالحقّ أكثر من الاطلاع على نفس العين وتشريحها ، لاسيما أن المؤلف الذى ترجمت أنت كلامه قد فتح الباب أمامك ، وسهل الطريق قدامها معبدة ، فما أسهل السير فيها على السارين ، وما أسهل عيون البقر والغنم للطالبين وللمؤلفين . فقلت أيها الذكىّ : أما قولك انا لم نصل للمقصود فهو حقّ وماذكرته الآن إنما هو مقدمة ، وهاك صورة العين المرسومة فى ﴿ سورة المؤمنون ﴾ فيما تقدم فى الجزء الحادى عشر من التفسير (انظر شكل ٢)

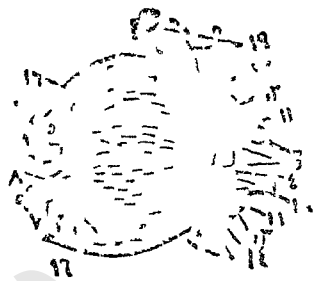

(شكل ٢)

وأما ماذكرت من أنه يحسن بى أن أنظر بعينىّ هذا فقد تمّ هذا اليوم صباحا ، وذلك أننى لما نظرت إلى السماء قبل فجر يوم الجمعة الفائتة ، وتاقت نفسى للمعرفة المفصلة قرأت ذلك الكتاب يوم السبت ، وفى هذا اليوم (الأحد ١٣ سبتمبر سنة ١٩٣١ ميلادية) توجهت إلى [السلخانة الأميرية] وهى قريبة من منزلنا ، وأخذت منها عينى بقرة ، وتوجهت بهما إلى المستشفى الرمدى بالحيزه ، وقابلت أحد الأطباء هناك ، وطلبت منهم تشريح العين ، إذ هم أدرى بذلك ، فشرّحوها لى ، ونظرت كل هذه الأجزاء المذكورة المتقدمة ، وفوق ذلك أرانى مديرا مستشفى العين الصناعية وهى مكبرة جدا ، وشاهدت البلورية وما فوقها من الأوردة والشرايين والقرحية والبلورية ، وبقيه الطبقات ، ورجعت وقت الظهر ، وهاأنا ذا الآن أكتب ما أيقنت به بعد المطالعة . فقال : الحمد لله إذ ذكرتنى هذا فأنا الآن جالس معك وأقرّ أن كثيرا من الشبان فى هذا الزمان وفى المستقبل سيبحثون بأنفسهم فى كل شىء كما بحثت أنت الآن ، وستصير هذه ملكة راسخة فى بلاد الاسلام فيبحثون كل شىء كما بحثت أنت الآن ، وتصير هذه أعظم الآلات للشيب والشبان . فقلت : أ. ذلك من الموقنين .

جمال العين وبهجتها ، وعجائب اتقانها

وما فيها من الآلات البصرية ومنافعها

ثم قلت . أيها الأخ الذكى . هل رأيت من هذا الوجود عجائب الآلات البصرية فى العين ، وقد عرفت نظامها وتشريحها ، وما فيها من الجسية الزجاجية ، والبيضية ، والبلورية ، والزجاجية ، الشكلية ، وهذه الآلات هى مطمح أنظار العقلاء إلى معرفتها ، أمثال مما يستطاوبه ، إن العلم ان لم يتصل بما يعرفه من كيفية وجود هذه الآلات البصرية فليس ما أتى (انظر شكل ٣) فى الصفحة التالية

شكل ٣

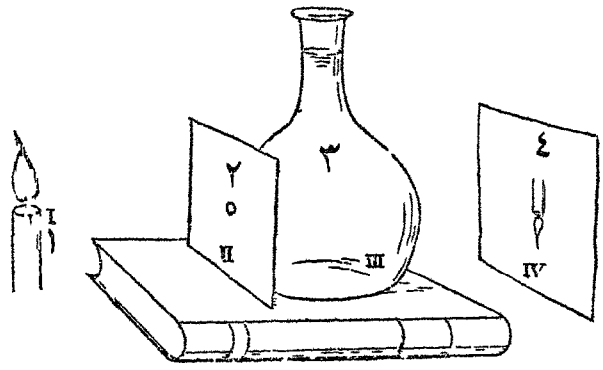

(شكل ٣ ــ تجربة تبين منفعة أجزاء معلومة من العين)

(١) المصباح (٢) لوح أبيض مثقوب (٣) زجاجة مملوءة ماء (٤) لوح أبيض غير مثقوب لقبول الصورة الواردة من نمرة (١) المخترقة ثقب نمرة (٢) الواصلة إلى الزجاجة المائية نمرة (٣) . ومن صفات هذه الزجاجة وأمثالها أن الضوء إذا اخترقها ولم يكن هناك نمرة (٢) قبلها ووصل إلى نمرة (٤) فانه لا يكون واضح الصوره (وهى مقلوبة طبعا) بل هى تكون أقرب الى الزرقة ، ولكن اللوحة المثقوبة نمرة (٢) لابدّ منها لاصلاح تلك الصورة

واذا تأملت هذه الآلات ألفيت نمرة (٢) تمثل الترجية ونمرة (٣) وهى الزجاجة المائية تمثل البلورية واللوح نمرة (٤) القابل للصورة يمثل الشبكيه ، وعلى هذا ظهرت هنا قيمة القزحية لأنها فى علم البصر لها منفعة عظيمة فى بعض الصور إذ هى المساعدة لتمام الصورة على اللوحة .

وأنت من هذا أيها الأخ الذكى عرفت أن أهمّ الأدوات البصرية فى أعيننا إنما هى القزحية والبلورية والشبكية التى مثلناها (١) اللوحة البيضاء المثقوبة (٢) والزجاجة المملوءة ماء ، واللوحة البيضاء القابلة التى لا ثقب فيها ، هذه أهمّ تلك الأدوات .

الكلام على المنشورات البلورية القائمة مقام الزجاجة المملوءة ماء

إنما قدّمنا المثال المذكور لسهولته ، ولأنه فى متناول الجميع ، ذلك أن الزجاجة يعرفها العام والخاص ، وهى تمثل لنا البلورية التى فى أعيننا والتى رأيتها أمس حين تشريح عين البقرة فى مستشفى الحميرة ، ولكن العلم يعوزه ماهو أرقى من تلك الزجاجة الا وهى أجسام زجاجية مصلعة يسمى كل منها بالمنشور (انظر شكل ٤)

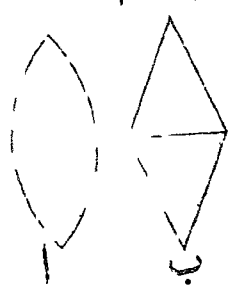

(شكل ٤)

(ا) قطعة من بلورتين محدبتين .

(ب) جزء من منشورين وضعت قاعدة [illegible]

لقد بسطنا الكلام على قزحية وبلورية [illegible] الصورة التى مرّت فى زجاجة المائية . فلنبحث الآن فى مستقر [illegible] من [illegible] (ب) التى رسمناها لتفهم

بها (ا) وهى البلورية المحدبة ، و بيانه أن البلورية فى العين ثخينة من وسطها ، رقيقة عند طرفيها ، وهذه الصفة تجعلها مشبهة منشورين معا ، فلوأننا ضممنا بلورتين ثم قسمناهما قسمين لرأينا أحد القسمين المذكورين من مجموع البلورتين يشبه مافى صورة (ا) شكل ٤ وهذه الصورة ليست مخالفة لصورة (ب) التى فيها قد وضع المنشوران معا قاعدة أحدهما ملتصقة بقاعدة الآخر ، ولاجرم أن النور وهومارّ بالمضلعات المنشورية تجتمع أصوله السبعة فتصير لونا أبيض ، وهكذا يفعل الضوء فى صورة (ا) لأنها تماثل صورة (ب) فبهذا تشابهت البلورية والمنشور فى توحيد أجزاء الضوء اذا مرّ منهما .

تحليل الضوء إلى ألوانه السبعة اذا مرّ فى المنشور

إنك أيها الذكىّ تعرف من دراسة العلوم ، أومما تقدم فى كتابنا هذا أن الضوء اذا مرّ فى منشور فانه يحلل إلى أصوله السبعة وهى : الأحمر ، والبرتقالى ، والأصفر ، والأخضر ، والأزرق ، والنيلى ، والبنفسجى . ومن عادة الأزرق أن يميل ميلا كثيرا ، وللأحمر ميل أقلّ كثيرا (انظرشكل ٥)

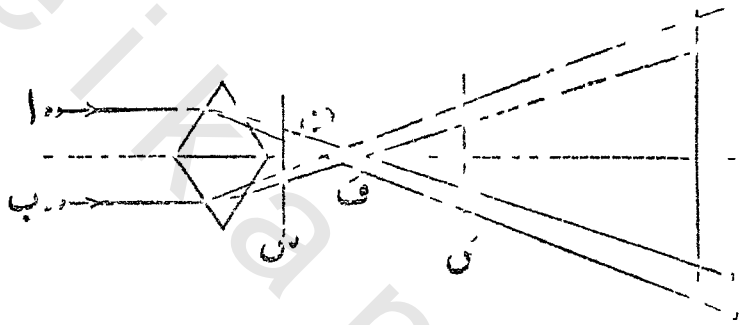

(شكل ٥ — ميل الضوء)

انظر إلى نقطتى (ا) و(ب) المصيبتين المشبهتين قاعى رصاص رقيقين فى (شكل ٥) وقد مرّ هذا الضوء فى المنشورين المرسومين أمامك ، وقاعدة أحدهما ملتصقة بقاعدة الآخر ، فتأمل فى سير الضوء أيها الاخ فانك ترى الأشعة الزرقاء أسرعت فاجتمعت عند حرف (ف) فأما الأشعة الحمراء فانها اجتمعت بعد ذلك عند حرف (ق) .

واذا نحن وصعنا بلورتين معا كما وصعنا فانا نرى سير الضوء فيهما كسير الضوء فى المنشورين الموضوعة قاعدة أحدهما ملاصقة لقاعدة الآخر .

حال الضوء فى وسط الحقل الضوئى وفى أطرافه

وههنا ملاحظ أن الضوء الجارى فى هذين المنشورين المتلاصقين منضمة أجزاؤه ، متحدة فى وسطه ، فيكون لونا أبيض ، فأما فى الطرفين فان الأمر بخلاف ذلك على خط مستقيم ، كيف لا ونحن نرى النور عند حرف (س) التى تمر المؤرة الصوئية التى اجتمع فيها الضوء يميل الى الحمرة والبرتقالية ، ولكننا نراه بعد مفارقة المؤرة الصوئية يميل الى الزرقة والبنفسجية (كس) .

هذه صفة المنشورين اللذين ذكرناهما يشبهان تمام الشبه البلورية التى فى أعيننا ، والتى وجدنا أنها تتألف من بلورتين متلاصقتين ، وقد كنا تقدمنا وذكرنا أن البلورتان المتحدتان معا تشبهان المنشورين المتلاصقين كما تقدم ، وقد أشرنا الى البلورتين الموصوفتين بما ذكر يشبه تمام المشابهة [illegible]

فائدة القزحية

هاأنت ذا أيها الأخ الذكى عرفت أن الضوء فى وسط الحقل الصوى أبيض ، وفى حافة هذا الحقل يكون أزرق أوأحمر برتقاليا ، ولاجرم أن ذلك نقص يعوق النظر ، ولقد احتال علماء الضوء فوضعوا ستارة حلقية فى الآلة البصرية [التلسكوب] فمنعت هـذا العائق ، ولقد حقق كثير من العلماء بمباحثهم أن القزحية التى فى أعيننا تعمل عمل هذه الستارة التى تشبه الحلقة ، فلها الفضـل فى حفظ الصورة الصوئيـة من ميل بعض أجزاء الضوء الأبيض كالزرقة والحمرة فيما تقدم عند مروره بالبلورية المسماة بالجليدية أيضا والعدسية ، إذن ظهر أن للقزحية فائدتين : إحداهما أنها تفعل فعل اللوح المثقوب فى أنها تجعل الصورة واضحة على اللوحة التى تقبـل الصورة ، وثانيتهما أنها اذا مرّ الضوء من منشورين أو بلورتين فانها تحفظ هذا الضوء من ميل بعض عناصره إلى الجوانب .

وظائف القزحية والبلورية والشبكية

فههنا استبان أن وظيفة القزحية أن تحفظ الصورة واضحة لاخلل فيها ، ووظيفة البلورية أنها ترسلها إلى ماوراءها فترسم على الشبكية ، ووظيفة الشبكية أنها تصدرها إلى الدماغ فيراها الانسان والحيوان ، ولقدفصلنا القول فى القزحية والبلورية فلنفض الكلام على الشبكية فنقول :

إن الشبكية عضو شفاف يختلف فى ثخنه من جزء من ٨٠ إلى جزء من ١٦٠ من البوصة الواحدة وهومبطن للسطح الداخـل من محيط كرة العـين كما رأيته فيما تقدم ، وكما رأيته أنا فى العين الحقيقية ، وفى صورتها المجسمة كما تقدم .

إن أى بقعة رقيقة من بقع الشبكية ماعدا مركزها الذى يسمى البقعة الصفراء ، وكذلك مدخل العصب البصرى كلاهما اذا نظر بالمكرسكوب فانه يبين لنا هذا الهيكل الذى تراه فى هذه الصورة (انظر شكل ٦)

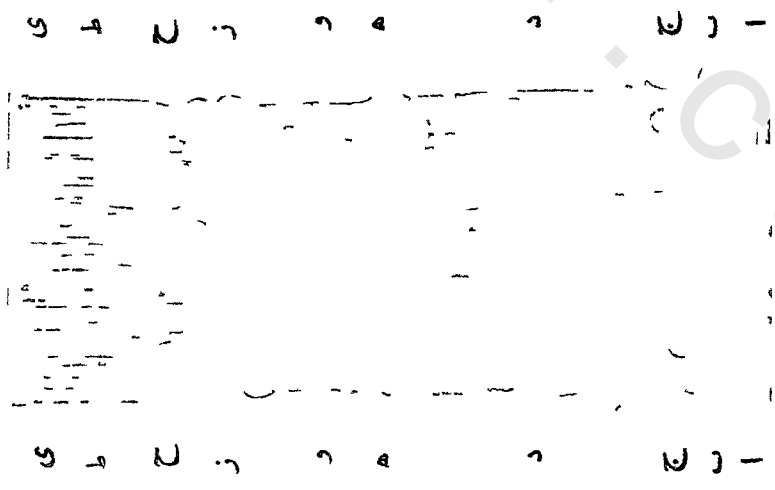

(شكل ٦ ـ شبكية العين الانسانية)

فأنت ترى أن هـذا الجسم من حرف (ب) الى حرف (ح) أجزاء عصبية مجتمعة بما يسمونه [النسيج الحافظ] وماوراء حرف (ح) المذكور هو بقية الشبكية المشتمل على الأغشية العصبية ذات الشكل الذى يشبه بعضه [العود] وبعضه يشبه [القصبة] وهذا الأخير أشبه بورق قصب السكر (انظر شكل ٧)

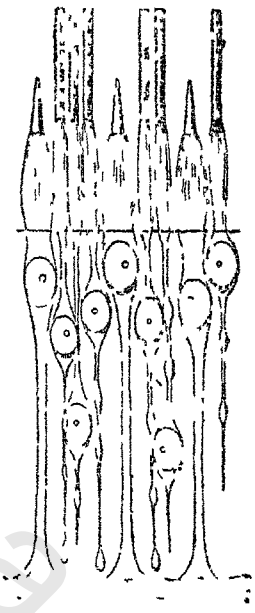

(شكل ٧ ــ العيدان والقصب بهيئة مكبرة ، فيهنا ثلاث قصبات تتخلل ستة عيدان)

(ا) سطح الشبكية عند اتصاله بالمادّة الزجاجية .
(ب) امتداد ألياف العصب البصرى
(ج) ذرّات ذات اجتماع بشكل دوائر ونحوها
(د) طبقات ذرّية وألياف عصبية
(ه) ذرّات مجتمعات تشبه الحب والنوى
(و) طبقات متدخلة وألياف عصبية حاملات مايشبه الحب فى الداخل
(ز) ههنا مايشبه الحب فى الطبقات الخارجة
(ح) سطح جعل حدّا لما تحته ومقاما يحمل العيدان والقصبات وبه ينتهى النسيج المحكم تحته
(ط) العصبات والقصبات
(ى) سطح وضع حدا للمشيمة فوقه .

إن العصب البصرى وهو داخـل فى كرة العين تتفرّع منه أغشية فى جميع الجهات به تتـكوّن الطبقة الأمامية عنـد حرف (ب) فى شكل ٥ المشتمل على الشبكية وهى بلاريب مرتبطة بالعصىّ والقصب من خلف . هذا ماعنّ لى أيها الصديق فى هذا المقام والحمد لله رب العالمين

هنالك قال صديقى العالم : ما هذه العجائب والبدائع ؟ أهذا كله لأجل أن نبصر الأشياء حولنا ؟ فقلت نعم . قال عجب عجاب ! انك قد فتحت لى باب الكلام بهذه المباحث ، فاسمح لى بذلك . فقلت : سل ماتشاء . فقال : هل الجزء الذى يتابل السوء من الشبكية هو الذى يتأثر به فينقله إلى المخ . فقلت له : إن الكلام فى هذا يحتاج إلى إيضاح ، إن العصى والقصبات ليست وماثل فيما تقدم هنّ القائمات بأمر الاحساس ، ولاحرم

أنهن فى آخر الشبكية من خلفها ، فهناك يقوم بهن الاحساس بالضوء بعد أن مرّ فى تلك الأوساط الشفافة الموضوعة قبل الشبكية فى طريق النور . فقال : لقد ذكرت فى هذا الموضوع ما كتبته أنت فى ﴿ سورة آل عمران ﴾ إذ رسمت العين والأذن هناك وشرحتهما ، وذكرت للعين نحو ١٤ حكمة ، وللأذن نحو ٢٦ حكمة ، ونقلت عن [اللورد أفبرى] فى كتابه [مسرات الحياة] مايأتى :

« إن فى الجسم الانسانى أكثر من مائتى عظم ، ولكل منها شكل مخصوص بها ، ولولا حسن صنعها لعاقت حركاتنا التى نأتيها كل يوم [يقول مؤلف هذا التفسير : وسيرد عليك قريبا هندسة الأعضاء وقياسها العجيب منقولا عن آبائنا حكماء الاسلام] » .

ثم قال : « وفيه ٥٠٠ عضلة كل منها تتغذى بمئات الأوردة والعروق تدبرها أعصاب كثيرة ، والقلب وهو بين هذه العضلات ينبض فى السنة ثلاثين مليون مرة ، فاذا توقف عن الخفقان قضى الأمر وانقطعت الحياة ، ولو تأملنا فى أدوات الحس كالعين مثلا بما فيها من قرنية ، وعدسية ، وطبقات مائية ، وزجاجية تنتهى فى الشبكية لتولانا العجب ، فان هذه الشبكية التى لاتزيد عن ثخن الورقة تتألف من تسع طبقات مختلفة أبعدها يتألف من نحو ثلاث ملايين مخروط ، ونحو ثلاثين مليون اسطوانة ، وأعجب من هذا كله الدماغ فقد حسب أحد الفسيولوجيين أن المادّة السنجابية التى فى تلافيف الدماغ نحو ستمائة مليون خلية تتألف كل منها من ألوف من الدقائق الطاهرة ، وكل دقيقة تتكوّن من ملايين الجواهر » . وقد قال قبل ذلك : « لقد نحيا السنين الطوال ولا نكاد نشعر أن لنا جسما » انتهى

فهل ثلاثة الملايين من نوع الأشكال المخروطة والثلاثون مليونا من الاسطوانات كلها من هذا القبيل ؟ فقلت نعم وربى ، فالأشكال المخروطة يراد بها هنا القصبات ، والأشكال الاسطوانية هى المعبر عنها هنا بالعصى . فقال : إذن هذه المخاريط ، وهذه الاسطوانات كلها لأجل احساسنا . قلت نعم . فقال : ولماذا هذا كله ؟ قلت لأن النور من عالم الحس وأمره سهل ، ولكن وصول صوره إلى نفوسنا التى ليست من المادّة فى شىء يعوزه آلات لها خواص فوق عقولنا ، وهذه الآلات هى الاسطوانات والمخاريط اللاتى تعدّ بعشرات الملايين ، نحن هنا فى مقام الجمال والبهجة .

إن أكثر هذا النوع الانسانى يعيشون ويموتون ولاهم يذكرون ، وكم من رجل يدرس علم الضوء وعلم التشريح وهو غافل عن هذه العجائب التى يقرؤها ولالذة لها فى نفسه لأنه مجبور على الدرس ، مقهور على التحصيل ، والله عزّ وجل لم يرفع أمة بعد ضعتها إلا بأناس يختارهم هو ، يخلقون فى الأمم ، وهم الذين يعشقون هذا الجمال الذى يتضاءل فى جنبه كل جمال ، فهؤلاء يؤثرون فى أممهم لأن القلوب تحس بالقلوب وان طال المدى ومضت عصور ودهور ، وأى أمة خلت من هؤلاء العشاق لهذا الجمال فهى لامحالة مريضة مرضا لايزيله إلا ظهور حكماء عشاق لهذا الجمال ، فهؤلاء اذا اطلعوا على هذه الحكم يدهشون من كوكب بيننا وبينه آلاف السنين وضوؤه يصل إلى عيوننا ، وهذه العيون لما خلقت وضعت على مقتضى نواميس الضوء المرسل من أبعاد شاسعة ، وهذا الضوء يمرّ فى أوساط لكل وسط منزلة خاصة ، فمنها مايحفظ الصورة التى يحملها الضوء ، ومنها مايجمع الضوء ، ومنها مترسم الصورة عليه ويوصلها إلى ماخلفها .

إن الانسان اذا نظر إلى هذه الشبكية يدهشه أمرها ، فما هذه الطبقات فى تلك المسافة الضيقة ؟ فهل سمك الحدقة بتخلله تلك الملايين وثمانى الملايين ؟ إن ذلك أمر عجب !

علم الله أن المسلمين سيلمون نوما عميقا . رهم يتقلبون فى رحمته الواسعة لغفلة أكثرهم عن العلوم ، فأنزل بسم الله الرحمن الرحيم تقرأ فى الصلوات ، وفى العبادات وترجات . وفى مبدأ الاكل والملبس ، وكل أمر ذى بال ، إذن ذكر الرحمة ملازم للمسلم فى جميع شئونه . ليس هذا سعاة أدرسوا الرحمة أيها المسلمون

« أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » وهذه آية من القرآن ، فأين التدبر إذن ؟ إن العين وعجائبها وعجائب الضوء من الرحمة العامة التي غفل عنها أكثر الناس في الأرض ، وكل من درسها وتعمق فيها فانه في هذه الدنيا قد نال السعادة الحقيقية ، وأيّ سعادة لهذا الانسان أعظم من الاطلاع على الحقائق ، إن الحقائق وفهمها هي السعادة الحقيقية لهذا النوع الانساني ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون ولا يسعدون .

ومن أعجب العجب أن الاطلاع على هذا الجمال بدراسة العلوم سعادة للنفس فما نكتبه في هذا التفسير وغيره يرقى الناس في هذه الحياة الدنيا ، إذن فهم الرحمة في هذه العجائب مسعد للنفس في الدنيا والآخرة وسرقّ للدنية في هذه الحياة .

الله أكبر : أنا أقول سيكون في بلاد الاسلام كثيرون من هؤلاء العشاق ، لأن الله أذن بذلك اليوم ، وهؤلاء هم الذين يملؤن بلاد الله علما ، ويكونون رحمة لجميع الأمم بعد أن يرقوا أمم الاسلام ، لهذا أنزل الله « بسم الله الرحمن الرحيم » وكررت في كل مقام في جميع الأحوال .

تأثير الضوء في النبات والحيوان والجماد

فقال صاحبي : أتذكر أن في ﴿سورة يس﴾ كلاما حسنا على الضوء وتأثيره ، وهناك الصور الشمسية للورق ، وفي كل ورقة حجرات تمدّ بالآلاف ؟ فقلت نعم اننا ذكرنا هناك أن مقادير غاز حمض الكربونيك في الجوّ قليلة ، فهي بالنسبة إلى الهواء كنسبة واحد إلى ألف ألف ، والفحم الصافي في الجوّ ١٣٨ ألف ألف ألف طن تقريبا ، والنبات بتعرّضه للهواء يمتص غاز حمض الكربونيك من الجوّ بمساعدة الأوراق ، ولن يتم ذلك إلا بمساعدة الشمس ، إذن الشمس لها أثر في أعيننا نهتدي به في أعمالنا وطرقنا ، وفي النبات بإحدائها في معامل الأوراق تفاعلا به يكمل النبات ويعيش الحيوان والانسان ، وهذا الموضوع قد تعرّض له مؤلف كتاب [علوم للجميع] وقد أوضحناه الآن ايضاحا أتمّ ، وذكر أن المستشفيات أماكنها المعرّضات للشمس أكثر تكون أقرب الى صحة المرضى من غيرها . فقال : الحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات . وبهذا تمّ الكلام على تركيب العين ومعرفة أجزائها ليعرف المسلمون ماهو النظر المذكور في آية : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج » وهو المبحث الأوّل من اللطيفة الثانية

المبحث الثاني من اللطيفة الثانية

في عجائب السماء والكواكب

وإذ فرغنا من الكلام على العين فلنبحث الآن في نجوم السماء وشموسها ومجرّاتها وسدمها فنقول ومن الله التوفيق :

الكلام على السماء

قلت لك أيها الأخ المذكيّ بما تعلم من هذا العالم مايزيده جمالا ، وهذا الجمال مخبوء عنا ، وهو حاضر لدينا هذه عيوننا كيف نرى تركيبها في غاية العجب ، هي كالسحر ، فما هذه الشبكية التي تبلغ عشر طبقات ، وإذ كان غلظها لا يزيد على نحو من ستة أجزاء من مليمتر كيف تنقسم إلى عشر طبقات ؟ وكيف يكون في الطبقة الواحدة (٣) ملايين مخروط و (٣٠٠) مليون عمود ، والأعصاب المخاريطية تصويرها موضحة في صورة مر ومع ما ليس لأعصاب الأعمدة إلا تعيين سطوع مخاريطها تخرج ستة أماطين مرضحة باهرة جلية . فإن شعور كيف تكون الحالات العادية في شبكية العين من أشكال ، وإذا ضربنا عشرة في

(٣٣) مليون يكون عندنا (٣٣٠) مليونا كلها فى الشبكية والشبكية طبقة واحدة يحيط بها نحو تسع طبقات فتكون (٣٣٠) أخرى لطبقة واحدة من التسع ويصير الطبقتان نحو (٦٦٠) مليونا ، وليس هذا الحساب مدققا بل هو تقريبى ، وعلى هذا بقية الطبقات ، والعين الثانية كذلك فيكون عندنا ملايين تعدّ بالآلاف افرض أنها مثلها فى تعداد أشكالها ، واذا فكرنا فيما هو أعظم من ذلك وهو الدماغ وأخذنا جزءا صغيرا منه ، وهو المادّة السنجابية فاننا نراها (٦٠٠) مليون خلية ، والمادّة السنجابية بالنسبة للدماغ ضئيلة فكيف يكون جميع الدماغ ؟ وكيف يكون عدد خلاياه ، إن هذه العجائب العلمية المتقدّمة فى النظر تلفت عقولنا للمظورات السماوية والكواكب ، ونحن إذا أردنا الكلام على السموات فاننا لاندرى فى أىّ باب نكتب وهذا العلم له شعب كثيرة ، وخير ما نختاره اليوم أن نذكر سعة السموات وكثرة نجومها حتى نوازن مابين كثرة الكواكب وكثرة الأشكال العجيبة من أعين الحيوان والانسان :

(١) فنحن لانقف فى هذا المقام على بعد القمر عن الأرض .

(٢) وانه ٢٣٨٨١٧ ميلا

(٣) ولاعلى عطارد الذى يتم دورته المحورية فى ٢٤ ساعة و ٨ دقائق .

(٤) ولاعلى الزهرة التى لايزيد يومها عن ٢٣ ساعة ونيف .

(٥) ولاعلى المريخ لدى ظهر للعلماء أن الثلج فى قطبيه لايذوب إلا ببطء ويؤكد الاستاذ [بكرنج] أن ترع المريخ حقيقية لاخداع فيها وله غيوم تسير حوله ، ومن رأيه أيضا أن النبات فى المريخ مؤكد الآن ، وكذلك بعض الحيوان ، وقد كان الرأى السائد أوّلا أن فى المريخ سكانا ثم تغير الرأى فقالوا لاسكان فيه ، ثم رجعوا الآن وقالوا فيه سكان ، وقاسوا طول بعض العيم فيه فوجدوه بلغ (١٢٠٠) ميل والعرض (٥٠٠) ميل ويسير بسرعة ١٤ ميلا فى الساعة . ولم يقتصر العلامة [بكرنج] على أن فيه نباتا وبعض الحيوان ، بل قال ان فيه عقلاء وهم يريدون مخاطبتنا

(٦) وهكذا المشترى وأقماره التسعة .

(٧) ولانكتفى أيضا بمعرفة زحل وحلقاته الثلاث المتقدّمة فى هذا التفسير وأقماره العشرة .

(٨) ولا بأورانوس وأقماره الأربعة .

(٩) ولا بنبتون الذى يدور حول محوره فى سبع ساعات وخمسين دقيقة .

(١٠) ولا بالسيار الجديد الذى كشف سنة ١٩٣٠ فى ١٣ مارس المسمى [بلوطو] .

(١١) واذا بحثنا فى نظام شمسنا الآن فانما نجعله توطئة لما بعده ، لأن ذلك شرحناه سابقا فى سور كثيرة إن الشمس نجم صغير جدا بين مئات الملايين من الشموس الكبيرة وهى فوق سطح المجرّة وتبعد عنه (٥٠٫٠٠٠) خمسين ألف سنة نورية . وليست مقيدة بذلك بل هى دائرة مع شموس أخرى بسرعة مليون ميل فى اليوم ، وآخر كشف لبعده عن الأرض هو ٩٢٫٨٣١٫٠٠٠ ميلا وحرارتها على سطحها (٧٤٠٠) درجة بمقياس سنتغراد ، وذلك سنة ١٩١٠ م وعلى سطح الشمس قد ترى كف كبيرة كانى رآها العلماء سنة ١٩٠٧ م ومجموع مساحتها (٨٠٠) مليون ميل مربع ، ثم ظهر مجموع آخر بعد ذلك مساحته ألفا مليون ميل مربع ، وكما ظهرت هذه الكف تقلصت الحرارة على الأرض ، وهو من نتيجة ظهور كف الشمس ، ان الشفق القطبى الشمالى يعم بعض بلاد روسيا وبقاع أخرى حين تظهر كف الشمس ، ظهرات على وجهها تشبه براكين ثائرة فتدفع بنوامير تكون بمثابة تقرحات على سطح الشمس ويسبب الشفق القطبى ، ومنه الذى ظهر فى أوروبا مرارا بأشكال بديعة حتى وصل الى سوريا ورؤى رأى العين .

واذا ذكرنا نبذة عن الشمس فلننتقل إلى عوالم أخرى ونجوم جديدة ، إن أوّل نجم جديد عرفه الناس كان قبل الميلاد سنة ١٣٤ ق . م ثم ظهر من ذلك الزمن إلى الآن ١٩ نجما جديدا أى انها ظهرت أو خلقت بعد أن لم تكن .

ويقول الاستاذ شابلى فى جامعة [هرفرد] : إن النجم الصغير الذى اسمه [دورادس] تابع لغيوم مجلان بعده عنا (١٢٠) ألف سنة نورية ويلمع فوق لمعان شمسنا (٦٠٠) ألف مرة ، وظهر فى غيوم [مجلان] نجوم يفوق لمعانها لمعان شمسنا من (١٥٠٠٠) إلى (٦٠) ألف شمس .

يقول الدكتور (ديزن) فى خطبة تلاها فى المعهد العلمى بلندن : «إن من النجوم مايبعد عنا (١٠٠) برسك والبرسك (٢٠٠ر٠٠٠) مائتا ألف ضعف بعد الشمس عنا ، واشراقها يختلف أيضا فترى :

٢٤	نجما إشراق كل منها مثل	١٠٠	شمس	
٣٤٠	»	»	٥٠	شمسا
١٣٥٠	»	»	٢٥	»
٤٨٤٠	»	»	١٠	شموس .
١٣٢٠٠	»	»		شمس واحدة .
٩٣٣٠٠	»	»		جزء شمس .

فنجم القطب من النوع الأوّل و بعده عنها أربعة ملايين بعد الشمس عن الأرض أى ٣٧٢٠ مليون مليون ميل ، وهناك نجوم أبعد من نجمة القطب وأشدّ إشراقا منها ، فترى هناك ٢٦٩ من النجوم الحمراء بعدها عنا (٢٠٠) مليون بعد الشمس عن الأرض والنجوم السفراء منها مابعده عنا أقلّ من ٢٠ مليون بعد الشمس عن الأرض ، ومنها مابعده عنا أكثر من ١٠٠ مليون بعد الشمس عن الأرض .

شمس الشموس

لقد تقدم فى الجزء الأوّل فى هذا الكتاب فى أوّله أن جميع الشموس فى مجرّتنا تجرى حول شمس عظيمة ، وهذه الشمس تسمى [شمس الشموس] وهى العيوق [بتشديد الياء] الذى تدور كواكب المجرّة كلها حوله ، ويقولون : « إن جرمه أكبر من الشمس مليونين و٤٢٠ ألف مرّة ، واشراقه أكبر منها ٤٩٧٠٠ مرّة و بعده عنا ٤٨٩ سنة نورية .

ويقولون : ان جميع الشموس ومنها شمسنا تدور حوله ، وعدد هذه النجوم فى مجرّتنا ٣٠ ألف مليون نجم أوشمس ، وقطر المجرّة يقدّر بنحو ٣٠٠ ألف سنة نورية ، وقطر السديم الذى فى المرآة المسلسلة يبلغ عشرين ألف سنة نورية ، وأخفى السدم يبعد عنا ١٠ مليون سنة نورية .

ومن أعجب العجب أن تظهر اليوم [سدم] جديدة ، فقد كشف [هنزل] أكثر من ألفى سديم فى ٩٠ صورة فوتوغرافية ، ووجد نها ٨٠٠ سديم ألمع من غيرها ، ومن هذه ٣٠ حلزونية ، وهناك سدم لولبية ومنها سديم المثلث ، وهذا السديم يبعد عنا ٨٠٠ر٠٠٠ سنة نورية ، فهو أبعد جدا من المجرّة ، ومجرّتنا المذكورة يظنّ بعض علماء الفلك أنها سديم لولبىّ أيضا ، ولايراها هكذا إلا من كان بعيدا جدا ، و بعد سديم المرأة المسلسلة ٦٠٠ر٠٠٠ سنة نورية ، وطول قطره ٢٠ر٠٠٠ سنة نورية .

ويقول [هر] : إن بعده ٩٥٠ ألف سنة نورية ، ويعرف هذا السديم عرف إلى الآن . إن السدم على اختلاف أنواعها عبارة عن سحائب تجرى حول شمس كما تقدم . وقد قالوا ان سديم المرأة المسلسلة يحتوى على ٤٠٠ ألف سنة نورية ، وهناك فى جهة كوكبة [شعر برنيق]

والسنبلة سدم بعدها عما مليون سنة نورية ، وسرعة بعضها ٣٠٠ كيلومترا فى الثانية ، وبعضها ٦٠٠ كيلومترا فيها ، وقد ظهرت أبعاد مجموع من نجوم وسدم تبلغ ٢٨٢٢ للاستاذ شابلى اذ أبعدها كلها مليون سنة نورية ، فلوأن كوكبا منها فقد منذ ٩٠٠ ألف سنة فان نوره لايزال يجرى الى الأرض ، ويبقى بعدنا مائة ألف سنة ، وهذه عجائب فوق عقولنا ، ما أوسع هذا الكون ؟ ان النور يسير فى الثانية ١٨٦ ألف ميل ، واذا دارحول الارض لم يستغرق أكثر من سبع ثانية ، واذا دارحول هذا العالم احتاج الى مائة مليون سنة نورية . وأرضنا لوصغرت كالجوهر الفرد (كما قدمنا) وصغر العالم على مقتضاها لرأينا ألف مليون أرض منتشر حولها .

قدمنا أن فى مجرتنا (٣٠) ألف مليون شمس ، وكل شمس لها سياراتها وتوابعها كشمسنا ، وفى الفضاء مليونان من السدم ، وكل سديم أشبه بمجرتنا ، وفى الكون فضاء يفوق الفضاء الذى يرى بالتلسكوب ألف مليون ضعف ، ويقدر عدد السدم فيه إذ ذاك بما يبلغ ألفى مليون مليون سديم ، فاذا كان فى كل سديم منها ألف مليون نجم كان عدد النجوم فى الفضاء المنظور وغير المنظور نحو ٢ على يسارها ٢٤ صفرا ، أو ٢ مليون مليون مليون كوكب ، أو ٢ ألف ألف ألف ألف ألف ألف ألف كوكب .

ولأقتصر على هذه الخلاصة الآن من علم السماء لتعرف أيها الأخ رحمة الله الواسعة ، واسعاده لنا ، واشراق نوره علينا .

الله أكبر : ما هى هذه السماء ؟ وما هى عينى التى تنظر السماء ؟ اللهم عرفنا فى جمالك ، ماهذه السماء ؟ وأى عالم تسير فيه الكواكب ؟

الله أكبر : انظر أيها الأخ الذكى فيما كتبناه فى ﴿ سورة الصافات ﴾ فى أولها ، واعجب من أن عالم الأثير الذى تجرى فيه هذه الكواكب المذكورة عالم لايحس ولايرى ولكنه وهو كالمعدوم أثقل من الحديد والرصاص والذهب أضعافا مضاعفة ، أى انه لوكان جرما لكان كذلك ، فارجع إليه هناك وادرسه ، فهذا الفضاء المملوء بالأثير الذى لاندرك وجوده أثقل من أثقل المواد الأرضية ، وهذا أمر عجيب غريب ، وهو مع غرابته تسبح فيه عوالم تبلغ اذا عرفت كلها ملايين الملايين ، وكل عالم منها يشابه مجرتنا التى تجمع ٣٠ ألف مليون شمس ، وهذه الأعداد مدهشة .

هذا هو الفضاء فوقنا ، وهذه عوالمه ، ألست أيها الذكى وأنا أدرس العين معك قد رأينا هناك ملايين من الأشكال فى طبقة واحدة من عشر طبقات من الشبكية ، وهناك طبقات أخرى ، والعين جزء صغير من أجسامنا فكيف تكون حال المخ ؟ وكيف تكون حال بقية الجسم كله ؟ أفلاترى معى أيها الذكى أن عيوننا تحوى من العوالم نحو عدد ماتحويه مجرتنا من الشموس ، وأن مخنا فى عظمته يشبه شمس الشموس فى عظمتها ، وأن جسمنا كله يشبه المجرات كلها والسدم كلها فى عدد كراتها .

دهشنا يا الله من عجائب عيوننا ، ومن عجائب أجسامنا ، ومن عجائب عوالمك الكبيرة ، وبهذا عرفنا بصيصا من قولك : « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج » .

إن فى هذه السورة : (١) الرحمة فى السماء (٢) والنظر (٣) والسماء فى الآية ، ولمعرفة هذه الثلاث كتبنا هذه المقالة ، وسيدرس ذلك المسلمون بعدنا قرونا وقرونا . وستتسع لهم أبواب وأبواب فى هذه الثلاث ، ولكنهم بعد آلاف السنين يخاطبهم الله قائلا « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

أيها المسلمون : « ألسنة الخلق أقلام الحق » ، قد اشتهر فى كل مجلس ومنتدى مقولة العامة والعلماء على حد سواء وهو : « القرآن لاتنتهى عجائبه ، ولا تقضى غرائبه » . وفى الحديث : « إن أعلاه لمثمر ، وان

أسفله لمغدق ، وانه يعلو ولا يعلى عليه » .

الله أكبر : هاهوذا باب العجائب قد فتح الآن ، فلجوه وادرسوا ، فتح على مصراعيه فاستبشروا بالسعادات والهناء والكمال .

تطبيق أقوال الصلاة على عجائب البصر وعجائب السموات

سيقرأ هذا المقال فى تفسير الرحمة ، وتفسير : قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ، فيقولون : اننا فى الرفع والاعتدال نقول : « ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ماشئت من شىء بعد » ، ثم يقولون : « إن الحمد ليس مادة تملأ بها السموات ، وانما الحمد ثناء بالجميل على من له جميل اختيارى ، وهذا الثناء لفظى لا ينبعث إلا عن امتلاء القلب بجميل أفعال الممدوح ، إذن الحمد لا يصح إلا بعد العلم بمزايا الممدوح ، والله أبرز لنا هذه العوالم وكلها بديعة ، فنحن نحمده عليها وليس يصح حمدنا عليها إلا بعلمنا بها ، والعلم إنما هو حضور صورة المعلوم فى نفس العالم ، وعلى مقدار استكمال العلم فى نفس الحامد يكون استكمال حبه للمحمود ، وهذا الحب يحرك اللسان بالثناء ، والجوارح بالأفعال ، فالمصلى يكون حمده على مقدار إحاطته بالعوالم ، فذكر المصلى للسموات والأرض وما بينهما وما بعدهما يراد علمها سواء أكان قليلا أم كثيرا والحمد على مقتضاه ، وكلما ازداد المصلى علما بهذا ازداد من ربه قربا .

هذا معنى ملء السموات والأرض إلى آخره ، لأن صفات الله ظهرت آثارها فى هذه العجائب ، وعبر عن إحاطتها بالعلم بلفظ الملء ، كأن المصلى العالم قد أدرك الأشياء فكأن علمه أحاط بها وملاها ، وكل امرئ يملأ العوالم ، هذا فى حال الرفع والاعتدال ، فأما فى حال السجود فان المصلى يقول : « سجد وجهى للذى خلقه وصوّره ، وشق سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخالقين » فههنا ذكر المصلى السمع والبصر والله يقول : « واسجد واقترب » فههنا الاقتراب لأن الدقة فى صنع السمع والبصر كما قدمناه أحرى بأن تقرّب العبد من ربه » والنظر للسماء فى حال الرفع أشبه بالمقدمة لذلك ، فالمسلم فى ذكره السموات كالمبتدى ، وفى ذكره السمع والبصر فى السجود كالمنتهى ، وهذا هو الحق الصراح ، ألا ترى رعاك الله أن موضوع البصر الذى شرحناه فى هذا المقام يأخذ بلب العارف به ويرى فى نفسه شوقا وحبا وغراما ، ويكاد فؤاده يطير من الحب والبهجة والجمال ، ولكن ذلك لا يكون إلا لقليل من الأذكياء فى هذا النوع الانسانى ، بهذا يقترب الانسان من ربه اقترابا علميا مع الحب والبهجة .

هذا معنى قوله تعالى : « واسجد واقترب » فهاهوذا سبحانه ذكر السجود والاقتراب بعد ذكر السمع والبصر ، وتشريح السمع والبصر ، والوقوف على عجائبهما ، وهذا يذهل اللب فيكون الحب والقرب ، أما النظر إلى السماء فليس فيه هذه البدائع ، فليس المدار على عظمة الأجرام كأجرام الكواكب ، ولكن المدار على احكامها ودقتها كدقة حدقة العين التى تقدم شرحها .

الله أكبر : ان الآلات الدقيقة المعدنية الفلكية قد تساوى درهما أو دراهم قبل صنعها وهى بعد الصنع قد تساوى مئات الجنيهات ، وهل هذا الثمن إلا لدقة صنعها ؟ ولما كان المدار على دقة الصنع والإحكام ، لا على عظم الأجرام حثنا الله فى هذه الأرض وأمرنا ألا نطير منها الى عوالم أخرى ، يريد منا أن ندرس هذه الأرض وما حولها وهو يعلم أننا لن نفرسها إلا اذا احتجنا إلى ما فيها ، وهل هناك حاجة أكبر من حياتنا نحن وبقائها فحتم علينا أن نعتنى منها بما هى ، وأوحى الينا العمل لاستخراج كنوزها ، وكل هذا نتيجته ارتقاء نفوسنا ، وكل هذا يفهم من أقوال المصلى فى صلاته إذ شكر ربه على السمع والبصر بعد أن شكره على السموات والأرض ، ثم سمعه الله يقول : « واسجد واقترب » إذن السجود به يكون الاقتراب ، لماذا ؟

لأنه درس أدق الأعضاء ، فأما دراسة العوالم كلها اجمالا فانما هو تشويق للباحث الجزئية .

اللهم إنا نحمدك حمدا كثيرا على نعمك ، ونشكرك على آلائك ، نحمدك على العلم ، ونشكرك على الفهم ، ومن أجل النعم أن دين الاسلام يمتزج بمصالح الدنيا بحيث ان أجل العبادات وأشرف الأعمال ما كانت وجهته المنفعة العامة للأمة ، فهاهي ذه مسألة العين وطبقاتها وابداعها وجمالها كيف كانت دراستها من أسباب حبك ، والاستغراق فى بهجة جمالك ، والهيام بالحكمة ، والازدياد من العلم ، وكيف كان المصلى فى رفعه ، وفى سجوده فى أقواله يجمع مابين مبادئ العلوم فى الأول ونهاياتها فى الثانى ، وكيف كانت اقواله فى الرفع منطبقة على الدراسة العامة فى المدارس الثانوية فى جميع مدارس العالم ، لأن تلك الدراسة يراد بها الالمام بالعوالم المحيطة بنا بقدر الامكان ، ثم كيف كانت أفعاله فى السجود فى حال اقترابه منك موافقة كل الموافقة للدراسة الخاصة التى بها يكون الانسان مستحوذا على علم خاص قد ملك ناصيته .

ومن أعجب العجب أن ما تقدم فى دراسة العين ومافيها من دقة الوضع وحسن الاتقان بصائر للناس وهدى ورحمة .

تسبيح المخلوقات

فهذا يفهمنا بصيصا من معنى قوله تعالى : « وان من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا » ، ألم تر يارعاك الله إلى سواد القزحية ، وضبطه للنور فيما تقدم ، وحفظه للصورة التى حملها حتى تصل الى المخ ، فهذا السواد ينظر له كل امرئ على مقتضى ادراكه ، فأما العاشق فلا يهمه إلا أنه جمال ظاهرى فيكون إذ ذاك سببا للتناسل ودوام العيش فى الحياة ، وأما الطبيب فانه ينظر اليه من حيث الصحة والمرض ، وفى الحال الثانية يستعمل العقاقير ، فأما الحكماء فانهم أرقى منزلة ، وأرفع قدرا ، ألا ترى رعاك الله أنهم ينظرون نظرا عاما فيقولون : ان هذا السواد انما وضع هنا لحكم ، فيه حفظ الصورة وضبط الضوء ، وهذه تذكرنا بألوان الحيوان المذكورة فى ﴿ سورة المؤمنون ﴾ وفى ﴿ سورة الروم ﴾ وكيف نرى أن الجمل والأسد والنمر كانت ألوانها موافقات لبيئاتها ، وللرمال والجبال حولها ، وكيف كان سواد الفأر لكثرة أعدائه ، فلو كان بلون غيره لأظهره النور فصار طعمة للمترسات ! ثم كيف نرى ذلك الطائر الأبيض فى أمريكا يظهر بذيله الطويل ليلا وهو غير خائف ولا وجل مما حوله من الفاتكات ، ذلك لأن له رائحة خبيثة يطلقها على كل من اقترب منه وآذاه ، كما يفعل الظربان من ذوات الأربع فى القفار ، ثم كيف نرى الزنبور ظاهرا برقشه ونقشه لايخاف عدوا ، ولايبالى بصروف الأيام ، ذلك لأن له حجة تفتك بالأعداء .

هذا كله مشروح شرحا وافيا فى ﴿ سورة المؤمنون ﴾ وفى ﴿ سورة الروم ﴾ مع الصور الشمسية فارجع إليه ، أليس هذا كله تنزيها لله عن العبث فى أفعاله ، وأنه لايضع لونا ولاشكلا ولاحجما إلا لحكمة ، ولم يلوّن العين ويجعل فى قزحيتها السواد مثلا ، ولم يجعل لها قرنية ولاطوبة بيضية ولاقزحية ولاانسان عين وهى الفتحة فى القزحية ، ولاباورية ، ولاطوبة زجاجية ، ولاشبكية ، ولامشيمية ، ولاصلبة إلا لحكمة خاصة ترجع للنظر .

فياليت شعرى هل للتسبيح معنى إلا هذا ؟ هذا تسبيح وهذا حمد ، أما الحمد فعلى هذه النعمة وهى نعمة العين ، وأما التسبيح والتنزيه فذلك أن هذه الأشكال وهذه الطبقات وهذه الألوان ظهر أنها كلها محكمة تفوق الوصف ، بهذا يفهم المسلمون قوله تعالى : «وان من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم» أوليس من العجب أن التعبير بلفظ الفقه وهو دقة الفهم يذكرنا آية الأنعام إذ يقول : « وفلق الاصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم » .

ثم قال : « وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقرّ ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون » جعل العلم فى جانب علم الملك ، والفقه فى جانب الانسان وعلم التشريح ، إذن قوله تعالى : « ولكن لا تفقهون تسبيحهم » يشير إلى ما فى الطبيعة من العجائب كطبقات العين وبدائعها المذكورة ، وقوله : « إنه كان حليما غفورا » ، فأما حلمه فهو ظاهر ، فان الانسان ما يحلم على الأطفال والجهال إذا أخطأوا وجهلوا ، ويرى الانسان طفله لا يعقل نعمه ولا يفهم مقدارها فيحلم الانسان عليه لقلة إدراكه ، وهذا هو السبب فى قوله تعالى : « إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا » فهكذا يعامل الله عباده ، فهو يعلم أنهم يجهلون جهلا فاضحا ما أعطاهم من النعم ، فاننا لا نجد عالما ولا جاهلا فى نوع الانسان يدرك نعمة العين مثلا ، ولكنه يفهم مقدار الطعام عند من أكرمه به ، ويفهم العطايا المعتادة ويصبح محبا لمن أعطاه ، ولكنه قط لا يتذكر نعمة العين ، بل هو يجهل تفصيلها ، إذن الله يعامل عباده لجهلهم بنعمه معاملة أحدنا ولده ومعاملة أشرافنا وأنبيائنا الفقراء والمساكين لأنهم لا يعرفون نعم المحسنين لهم ، فهذا معنى كون الله « حليما » فى هذا المقام ، وأما الغفران فهو راجع لمن أعطاهم الله استعدادا للعلم والفهم فدرسوا هذه العلوم فعرفوا النعمة فأحبوا مسديها كما يحب الرجل العامى من أعطاه مالا ، أو كساه ثوبا ، والغفران هنا كالغفران فى أول سورة الفتح الذى جعل بابا للفتح بالعلم والمعرفة ، فالله حليم على عبده لجهله ، فاذا استعدّ للعلم وبه يعرف النعمة ويحب ربه يجعل الغفران مقدمة لذلك الفتوح والله هو الولىّ الحميد .

سرّ من أسرار حِكَم العين وسواد قزحيتها

سواد القزحية حفظ النور كما تحفظ الجسور ماء الأنهر ، وكما تحفظ القوّة الغضبية أشخاص الحيوان ، فههنا نور حفظه سواد القزحية فى العين ، وههنا ماء حفظه الجسور ، وههنا قوّة شهوية فى الحيوان أحاطت بها قوّة غضبية لتحفظ بقاءها بمدافعة الفاتكات ، وههنا أمم تحفظها جيوشها من هجوم الأعداء ، إذن سواد العين ، وجسر النهر ، وغضب الحيوان ، وجيوش الدول ، كل هذه حافظات لما ينفع الناس من نور وماء وحياة فرد أو حياة أمة . انتهى الكلام على اللطيفة الثانية فى آية : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها فروج » أى مبحثيها معا وهما مبحث العين وطبقاتها ، ومبحث السماء ونجومها ، وكل هذا قد لوحظ فى بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة

فى قوله تعالى : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب »

فى هذه اللطيفة مقالتان

المقالة الأولى فى قوله تعالى : وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج

لما وصلت إلى هذا المقام حضر صاحبى العالم وقال : لقد تقدم فى هذا التفسير مقالات كثيرة فى النبات ، ولكنى أريد اليوم الوقوف على ملخص علم النبات بحيث يكون كأنه حاضر أمامى . فقلت : أيها الأخ الذكىّ : إن هذه الأرض والعوالم حولها كثيرة كثيرة لا يضابط لها إلا العلم ، ولا جرم أن النباتات على الأرض مبعثرة مشتتة ولن يضبطها إلا الوحدة ، فقال ما معنى الوحدة هنا ؟ فقلت : إن عقول الناس فى هذه الأرض كلها مشغوفة بالوحدة لأن الوحدة هى التى تطمئن بها القلوب ، ألا ترى أنهم يجعلون لكل منزل رب أسرة ، ولكل بلدة رئيس ، ولكل أمة ملكا ، أو أميرا ، أو رئيس جمهورية ، كل ذلك للوحدة ، ونظر هذا فى العلوم فانهم

قسموها إلى مجموعات كل مجموعة سموها علما ، ثم قالوا : هذه العلوم كلها تسمى واحدا ، وهذا الواحد انقسم إلى علوم ، وكما يرجعون جميع الأعداد إلى الواحد ويرجعون العالم كله الى الوحدة فيقولون : الله خلق العالم أى بعد البحث والتمحيص ، فهناك تطمئن القلوب الحديمة التى درست هذا الوجود كله دراسة حقيقية ، أما العامّة وصغار المتعلمين فهم من واد واحد يعيشون ويموتون وهم متحسرون على السعادة الحقيقية وهى الاطمئنان ووقوف النفس على الحقائق ، لاسعادة لأهل هذه الأرض إلا فى هذه المسألة التى هى مسألة المسائل فهكذا فيما نحن فيه وهو علم النبات ، وماعلم النبات إلا كجميع هذه العوالم ، نراها مبعثرة مشتتة : نهر ، بحر أرض ، جل ، جبل ، خيش ، أكواخ ، سحب ، كواكب ، هواء ، ذئب ، أسد ، جمل ، حمار ، غزال مسك وهكذا أمور لايدرى الانسان أوّلها ولا آخرها ، فبالعلوم والحكمة تضبط هذه كلها ، كذلك علم النبات فانا نقول : أرز ، نخل ، حشائش ، عبل ، جُل ، صنوبر ، قمح ، وهكذا لاضابط ولاقانون فلاعلم ، وانما هى أمور مبعثرات هنا وهناك ، فاذا رجعناها للوحدة سعدنا وأحسسنا فى أنفسنا بسعادة علمية جزئية ، ومتى درسنا مجملات العلوم كلها ورجعناها لوحدتها سعدنا السعادة التى لانهاية لها فى نفس هذه الحياة سعادة محققة . فقال صاحبى : والله لقد شوّقتنى إلى هذه الوحدة فى النبات التى بها تكون سعادتى . فقلت : إن جميع الكائنات الحية نباتية كانت أوحيوانية مركبة من وحدة أو وحدات صغيرة تسمى كل منها خلية ، وهذه صورتها (انظر شكل ٨ الآتى)

وأشرحها لك فأقول : « اذا تركب جسم النبات من خلية واحدة سمى « وحيد الخلية » أما اذا تركب من جملة خلايا فيقال له « عديد الخلايا » وتتركب مادّته من جدار خارجى مادّته كربوأيدراتية صلبة مرنة شفافة تسمى « السليولوز » وفى داخل الجدار مادّة لزجة تسمى « البروتوبلازم » وهو الجزء المهمّ فى الخلية ، لأنه هو المادّة الحية ، ولسنا نعرف بالضبط كنه الحياة ، غيرأن للمادّة الحية المسماة « البروتوبلازم » صفات تميزها عن الأجسام الميتة منها :

أوّلا : ان للبروتوبلازم القدرة على هضم وتمثيل الغذاء [أى تحويله إلى مركبات بروتوبلازمية] .

ثانيا : انه يؤكسد الغذاء ويخرج الفضلات .

ثالثا : ان له القدرة على النموّ .

رابعا : ان له القدرة على الحركة .

خامسا : انه يتأثر بالضوء والحرارة والرطوبة .

سادسا : ان له القوّة على التكاثر والتوالد .

وبروتوبلازم الخلية يشمل جسما برّاقا أكثر كثافة منه يسمى « النواة » والمادّة البروتوبلازمية التى حول النواة تسمى « السيتوبلازم » .

النواة

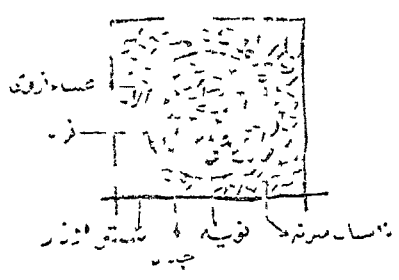

(شكل ٨)

تتركب النواة من شبكة مكوّنة من قضبان صغيرة تسبح فى سائل يعرف « بالسائل النووى » ويحيط بالنواة من الخارج غشاء رقيق هو « الغشاء النووى » (انظر شكل ٨) وقد يوجد داخل النواة جسم كروىّ صغير يسمى « النوية » وقد تحتوى النواة على نوية واحدة أو أكثر .

والنواة أهمّ جزء فى الخلية ، ويمكن الاستدلال على ذلك بقطع خلية إلى قسمين : يشمل الأوّل منهما نصف البروتوبلازم بما فيه النواة كلها ، ويكون الثانى خاليا من النواة ، أما القسم الأوّل فينمو ويستعيد ما نقص منه ، وأما الثانى فيموت بعد فترة من الزمن اهـ

فقال صاحبى : إذن هذه الخلية هى أصل كل حيوان وكل نبات ؟ فقلت نعم . فقال : يظهر لى أن هذه الخلية أشبه بمنزل فيه أسرة تسكنه لأنه محيطها والسليلوز يحفظ ما فى داخلها وهو الجزء المهم ، إذن هى كالجوزة ، أو كرأس الانسان لها عظام فى داخلها المخ ؟ قلت نعم نطقت بالصدق ، وأيضا فى الحيوان قوّة يحافظ بها على نفسه تسمى غضبية ، وقوّة بها يعيش وهى الشهوية ، فالأولى كالمسكن ، والثانية كالسكان ، إذن القاعدة واحدة فى هذا النظام العالمى ، وهذه الآراء هى مبدأ السعادة التى حدّثتك عنها ، فاذا أمكننا ارجاع كل نبات إلى تلك الوحدة وأخذنا نفرّع عنها فروعا تشمل كل نبات كان ذلك سعادة جزئية خاصة بالنبات . فقال : أريد التفصيل بعد هذا الاجمال ؟ فقلت : إن النباتات على قسمين : دنيئة ومرتقية ، فالدنيئة يكون انقسام الخلية فيها انقساما مباشرا ، والمرتقية يكون الانقسام فيها غير مباشر :

١ ـ الانقسام المباشر

تكون طريقة الانقسام فى خلايا بعض النباتات الدنيئة فى الغالب بسيطة ، فيحصل خزّ فى وسط النواة يمتدّ إلى باطنها شيئا فشيئا حتى تنقسم إلى قسمين : يتبع ذلك انقسام السيتوبلازم ، ويسمى هذا النوع بالانقسام المباشر .

٢ ـ الانقسام غير المباشر

انقسام النواة فى الخلايا العادية للنباتات الراقية يكون أكثر تعقيدا منه فى الحالة السالفة (شكل ٩) فعند ماتأخذ النواة فى الانقسام تنفصل القضبان التى تتكوّن منها الشبكة النووية ، ثم ينشطر كل منها طوليا إلى شطرين متساويين ومتشابهين من كل الوجوه ، وينجذب كل من الشطرين إلى قطب الخلية المقابل له ، فتجتمع أنصاف القضبان فى قطب ، والأنصاف الأخرى فى القطب الآخر ، ثم تتحد أفراد كل مجموعة مكوّنة بذلك شبكة نووية جديدة ، وينشأ بعد ذلك تكوّن غشاء فى السيتوبلازم يفصل النواتين الجديدتين ، وتنقسم الخلية بهذه الطريقة إلى خليتين تكون نواتاهما متشابهتين فى صفاتهما وعدد قضبانهما ، وتسمى هذه الطريقة بالانقسام غير المباشر اهـ

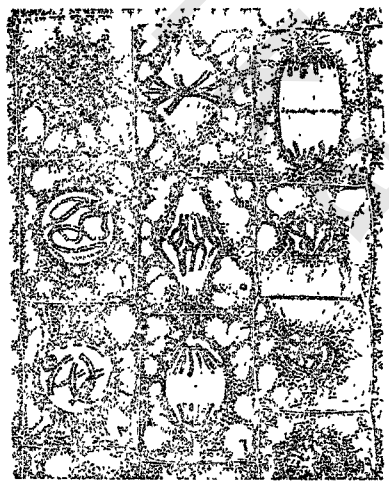

(شكل ٩)

انقسام الخلية غير المباشر ١ ـ ٩ أدوار مختلفة فى الانقسام

ثم قلت : انظر أيها الصديق إلى الخلية الواحدة ، ألا تراها كمنزل تسكنه أسرة ، ثم انظر كيف صار هذا المسكن مساكن بطريقة تخالف طرائقنا فى بناء مدننا ، فنحن نبنى بيتا بجانب آخر ، أما هذه الخلية فانها تكبر وتنقسم بطريقتين مختلفتين . فقال : حسن ولكن أريد أن أعرف هل هذه الخلايا شكلها كلها واحد أم هى أشكال مختلفات ؟ فقلت : كما أن الناس اختلفت أشكالهم هكذا تختلف أشكال هذه الخلايا ، بل ان هنا أمرا عجبا ! ذلك أن هذه الخلايا تعمل عمل العقلاء من الناس ، فان العقلاء يجعلون الهواء يتخلل بيوتهم هكذا هذه الخلايا فهى مختلفة فى صورها كالناس محكمة نظام وضعها بحيث يتخللها الهواء (انظر شكل ١٠)

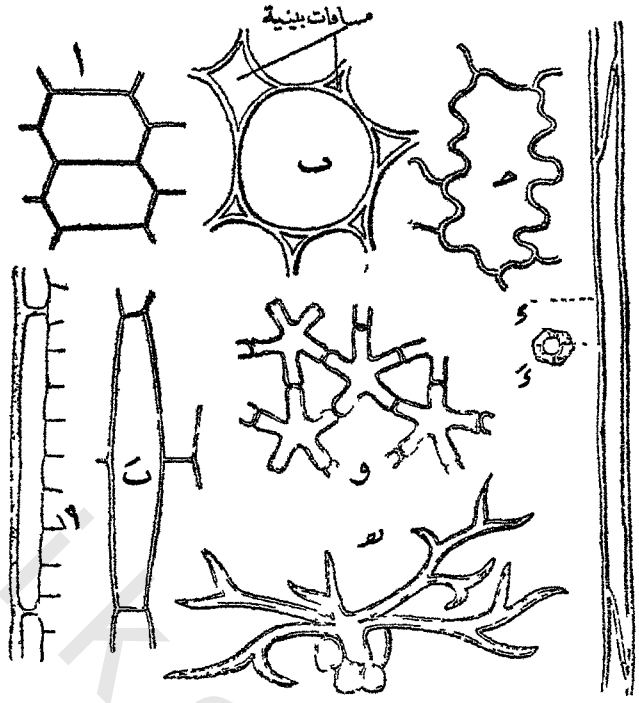

(شكل ١٠ — (ا) خلايا مرستيمية (ب بّ) خلايا برنشيمية (جـ جّ) خلايا البشرة ويرى جدارها العلوى غليظا (د دّ) خلايا ليفية (هـ) خلية شعرية وبرية متفرّعة ، (و) خلايا نجمية الشكل بينها مسافات بينية واسعة)

إن الخلايا البالغة متعددة الأنواع ، مختلفة التركيب ؛ فما كان منها متساوى الأقطار كرويا أومستطيلا قليلا رقيق الجدران ، وبه فجوة وسطية سمى بالخلايا البرانشيمية ، وعندما تنمو الخلايا البالغة تتفكك أركانها ، ويتكوّن بينها وبين بعضها مسافات يتخللها الهواء تسمى بالمسافات البينية (شكل ١٠ — ب) وهى موزعة فى النبات بحيث يتمكن الهواء من تخلل جميع أجزائه ، وقد تستعمل المسافات البينية لتخزين بعض منتجات الخلايا كما فى نبات الصنوبر .

ثم قلت : انظر للصنوبر والبرتقال والليمون مثلا كيف فعلت ما نفعله نحن فنا نضع أمتعتنا فى الخلاء الذى فى داخل مساكننا ، والى العاب كيف تحللت منه خلايا ليكون فيها هواء كما تفعل الحكومات إذ تهدم أبنية لتجعل فيها الشوارع .

فقال صاحبى : أما الآن فانى قد فهمت وحدة النبات فهما حقيقيا ؛ فأريد الآن أن أعرف أدنى النباتات وأعلاها . فقلت : أما أدنى النبات فهى النباتات الدنيئة التى تتركب أجسامها من خلية واحدة ، تقوم هذه الخلية بجميع الوظائف اللازمة كالامتصاص والتنفس والنمو والحركة والتناسل ، أما فى النباتات الراقية فيتكوّن جسم النبات الواحد من عدد لايحصى من الخلايا ، ولكى يقوم النبات بوظائفه خير قيام تتخصص مجاميع من خلاياه بأعمال خاصة ، وتسمى كل مجموعة بالنسيج ، وعلى ذلك يكون النسيج عبارة عن مجموعة من الخلايا المتشابهة فى الأصل ، وغالبا فى الشكل تقوم بعمل متمائل ، وأنسجة النبات الحىّ تتعاون جميعا فى تأدية وظائفه الحيوية ، ولايمكن للنسيج الواحد منها أن يستقلّ بذاته ونوعمل عن باقى الأنسجة فتتحلله تدريجا .

ثم قلت : انظر أليس تركيب النبات تقسيمه كتركيب الجسم الانسانى هذا . فقال : وكيف ذلك ؟ فقلت :

ألست ترى أن النباتات الدنيئة التى هى من خلية واحدة وهى التى لانراها بأعيننا التى تشبه فى صغرها أدنى وأصغر الحيوانات الذرية التى لانراها أيضا قد أشبهت رجال البادية ، فان البدوى فى خيمته هو كل شىء ، هو الذى له السلطة على منزله ، وهو المدافع عنه ، وهو الحافظ له ، و يعيش مستقلا كأنه دولة واحدة ، أما النباتات الراقية فهى حتما أشبه بالأمة التى فيها جماعات كل جماعة لها عمل كرجال المالية والعسكرية والزراعة والتجارة والطب الخ ، وكما أن كل جماعة من هؤلاء فى الجمعية الانسانية لاقيمة له مستقلا ، هكذا كل جماعة من جماعات الخلايا اذا استقل فان خلاياه تموت .

وسترى فى سورة الواقعة عند آية : « انهم كانوا قبل ذلك مترفين الخ » أن الأمم كلما كانت أقرب إلى خط الاستواء كانت أكثر تعرضا للأمراض ، وكلما بعدت عنه كانت أبعد عن تلك الأمراض ، وذلك أن الرطوبة والشمس بهما تنتشر الأمراض فى الأول ، وعلى ذلك اذا لم تقم كل جماعة بما يخصها من حفظ البلاد كدرس حال الجو وحال الحشرات وأسبابها والوقاية منها فان الأمراض تكثر وتضعف الأمة كما يهلك النبات الراقى بدسل جماعات منه وضعفها .

فلما سمع صاحبى ذلك . قال : أريد أن تشرح لى أولا النبات ذا الخلية الواحدة ، و بعد ذلك تشرح لى النبات المركب من خلايا كثيرة منه ؟ فقلت : أذكرك بما مر فى سورة حم فصلت فى المجلد التاسع عشر عند آية : « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة » فانك ترى هناك البكتريا وأنواعها مرسومة مختلفة الأشكال وبها الحياة و بها الموت ، فلولاها لم يكن نبات مما ننتفع به لأنها هى التى تفتت المواد الغذائية لتكون صالحة لأن يمتصها النبات ، ومنها تكون الجراثيم القتالة المهلكة لنوع الانسان ، ولكن منافع هذه الأنواع أكثر من ضرها ، لذلك أبقاها الله فى الأرض ، ومن النبات الدقيق الفطرى الذى هو خلية واحدة الخميرة ونحوها ، هذا هو الذى تقدم .

فنحن إذن لانعيده هنا فانه موضح هناك أى إيضاح . فقال نعم . فقلت : إذن نرجع إلى ما نحن فيه ونشرح تركيب ساق الشجرة ، فاذا كان النبات المركب من خلية واحدة قد تقدم شرحه فلنتمم الآن النبات المركب من خلايا ، ونبدأ بشرح ساقه سواء أكان النبات من ذوات الفلقتين أم من ذوات الفلقة الواحدة ، فذوات الفلقتين مثل : الكرنب ، والقنبيط ، والفجل ، واللفت ، والشليك ، والتفاح ، والكمثرى والمشمش ، والخوخ ، والكريز ، والبرقوق ، والورد ، والباذنجان ، والطماطم ، والتبغ ، والبطاطس ، والفلفل ، والسنط ، والقثاء ، واللبخ ، والمستحية ، والتمرهندى ، والخروب ، والسنامكى ، والفول البلدى ، والفول الرومى والفاصوليا ، والعدس ، والحلبة ، والحمص ، والفول السودانى ، واللوبيا ، والبسلة ، واللبلاب ، والترمس ، والبرسيم البلدى ، والبرسيم الحجازى ، والقطن ، والباميه ، والخبازى ، واللوف ، والحنظل . فهذه كلها من ذوات الفلقتين .

أما ذوات الفلقة الواحدة فذلك مثل : البصل ، والثوم ، والكراث البلدى ، والكرات أبوشوشه ، والهليون ، والصبار ، والنخل والدوم ، وجوز الهند ، والقمح ، والأرز ، والذرة الشامية ، والذرة العويجة الرفيعة ، والشوفان ، والشيلم ، والدخن ، والدنيبه ، وقصب السكر ، والعاب .

فقال : هذا حسن ، قد عرفت ذوات الفلقة الواحدة وذوات الفلقتين ، وكنت أود أن أعرف ذلك من قبل ولكن الحمد لله على نعمة العلم ، فأريد الآن أن تشرع فى شرح ساق كل منهما لأنك شوقتنى إليه ، فانى أرى الفول والفاصوليا والعدس والحلبة والحمص مثلا وآكلها ، ولكن لا أعرف كيف يكون تركيب ساقها ، ومن العار أن يكون الجاهل حاضرا أمام العالم ونحن عنه غافلون كالعميان أمام الفادات الحسان ! فقلت : إن النبات ذا الفلقتين تكون أول طلقة منه يراها الانسان :

(١) مايسمى [كيوتين] وهى مادّة شفافة مرنة ، تمنع نفاذ الماء والهواء ، وبذلك تقى النبات تأثير الجفاف من زيادة بخر مائه الداخلى ، وقد يكون الكيوتين سميكا فى النباتات التى تعيش فى المناطق الجافة ورقيقا فى النباتات التى تعيش فى المناطق الرطبة ، هذه هى الطبقة الأولى . ثم قلت :

(٢) الطبقة الثانية : البشرة المركبة من طبقة سمكها خلية واحدة ، وهى خلايا متلاصقة حية ، وليست بينها مسافات .

(ا) وهذه البشرة قد يمتدّ منها شعر رفيع ، وكل شعرة من خلية أوخلايا ، وقد يفقد الشعر مافى داخله فيمتلئ بالضوء فيظهر كأنه أبيض ، وتارة تكون فيه مادّة لاذعة تحافظ على النبات مما يأكله ، فهى له وقاية حقيقية .

(ب) وفى هذه البشرة ثقوب ، وتسمى ثغورا ، وظيفتها أن يدخل منها الهواء ويخرج .

(٣) الطبقة الثالثة : القشرة وخلاياها رقيقة جدا ، بينها مسافات ، وتارة تكون خلاياها سداسية الشكل تقريبا .

(٤) الاسطوانة الوعائية ، ويليها كتل مثلثة الشكل ، مرتبة على شكل دائرة ، وهى قطاعات عرضية للحزم الوعائية .

(٥) الحزمة الوعائية :

(ا) وفى أعلاها حواجز تشبه الغربال تسمى الحاجز الغربالى ، وتسمى اللحاء .

(ب) وفى اسفلها من جهة مركز الساق قسم يعرف بالخشب أوالزيلم .

(ج) ويفصل اللحاء عن الخشب قسم يسمى [الكمبيوم] .

(د) وخارج اللحاء قد تكون هناك ألياف ، وهذه قد تتكوّن منها اسطوانة كاملة حول الحزم الوعائية .

(٦) النخاع .

(٧) أشعة نخاعية وهى تصل القشرة بالنخاع بواسطة خلايا تمرّ بين الحزم الوعائية .

فقال صاحبى : هذا حسن ولكنى لم أفهم منه شيئا ، لأنها أقوال وتعريفات صامتة ، وهذه سبعة أحوال وقد دخل أحوال أخرى تبلغ نحوها فى العدد ، فأرجو إيضاح هذا بالأشكال . فقلت : (انظر شكل ١١)

(شكل ١١ ــ قطاع عرضى فى ساق حديثة)

فهذه ظهر فيها : الشعاع النخاعى ، واللحاء ، والخشب ، والبشرة ، والكمبيوم ، والنخاع ، والقشرة .

فقال : ولكن أين [الكيوتين] ذلك الذى يحفظ للزرع مافيه من الماء إلى آخر ماتقدم . فقلت : انظر شكل ١٢ وهذه صورته

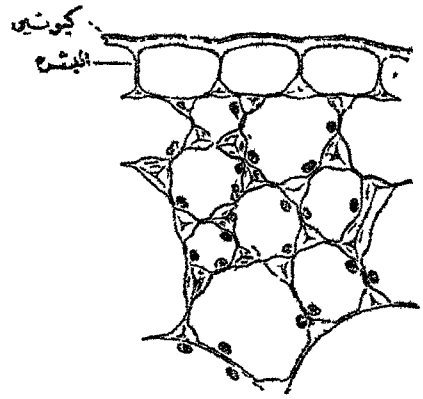

(شكل ١٢)

فقال : أنا مارأيت الحزم الوعائية ؟ فقلت : هاهى ذه (انظر شكل ١٣) :

(شكل ١٣ ـ قطاع عرضى فى حزمة وعائية صغيرة)

فقال : وأين الحاجز الغربالى ؟ فقلت هاهوذا (انظر شكل ١٤)

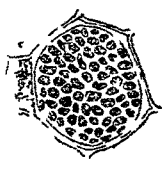

(شكل ١٤ ـ حاجز غربالى)

فقال : ولكن أين الحلايا الليفية ؟ فقلت (انظر شكل ١٥ فى الصفحة التالية)

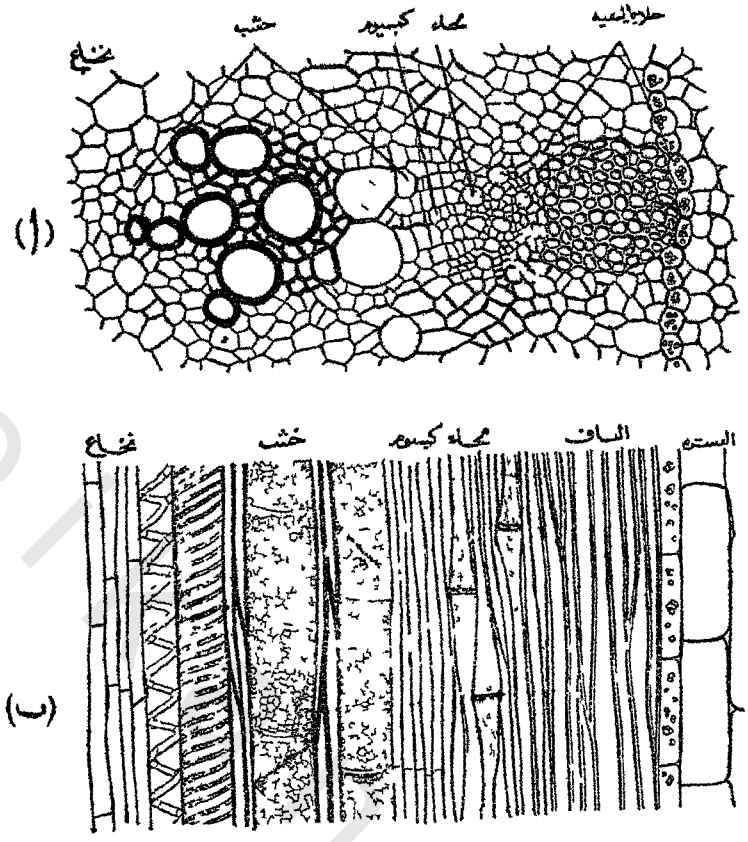

(شكل ١٥)

(أ) قطاع عرضى فى حزمة وعائية ، وترى الألياف بجوار اللحاء

(ب) قطاع طولى فى نفس الحزمة .

فقال : قد فهمت سوق النباتات ذات الفلقتين ، ولكنى أريد أن أمتحنها بنفسى فى الخارج . فقلت : من السهل الميسور مشاهدة الخيوط الليفية التى تمتد طولا فى ساق نبات رخو كالحلبة أو الملوخية بإزالة ما يحيط بها من الأنسجة الرخوة ، ويعرف مجموع تلك الألياف فى الساق بالاسطوانة الوعائية ، والحيط الواحد بالحزمة الوعائية ، وتقوم هذه الحزم الوعائية بتوزيع الأغذية المختلفة فى النبات ، ومن السهل أيضا مشاهدة الأنسجة الرخوة التى تحيط بالاسطوانة الوعائية من الداخل والخارج ، فالنسيج الذى فى داخل الاسطوانة ويشغل الجزء المركزى من الساق يسمى [النخاع] والذى يحيط بالاسطوانة من الخارج يسمى [القشرة] وتغلف الساق من الخارج بنسيج شفاف رقيق مكوّن من طبقة واحدة من الخلايا يعرف بالبشرة كما فى شكل ١١ المتقدم قريبا .

فقال : وكيف تكون هيئة النباتات ذى الفلقة الواحدة ؟ فقلت : الحزم الوعائية فى سوق ذوات الفلقتين مرتبة على شكل دائرة منتظمة ، أما فى سوق ذوات الفلقة الواحدة فإنها كبيرة العدد مبعثرة بغير نظام واضح (انظر شكل ١٦ و ١٧ فى الصفحة التالية)

ولذلك لا يمكن تمييز مناطق القشرة والاسطوانة الوعائية والنخاع بوضوح فيها ، وزيادة على ذلك فان

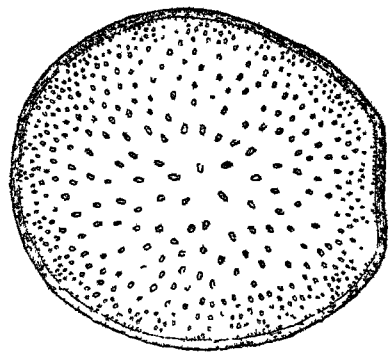

شكل ١٦
قطاع عرضى فى ساق من سوق ذوات الفلقة الواحدة

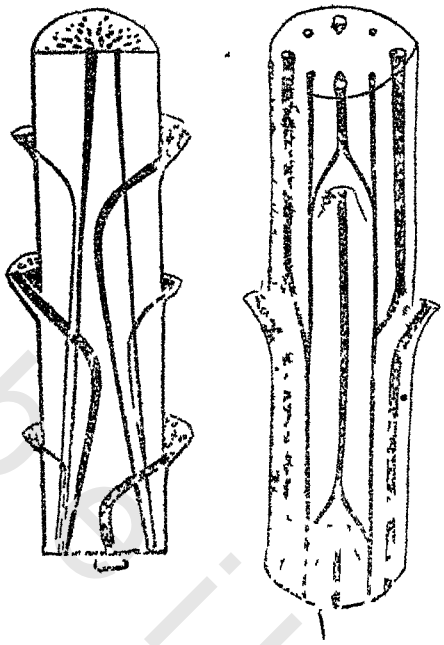

(شكل ١٧)
(ا) يبين سير الحزم الوعائية فى ساق ذوات الفلقتين .
(ب) يبين سير الحزم الوعائية فى ساق ذى الفلقة الواحدة .

حزم سوق ذوات الفلقة الواحدة خالية من الكمبيوم (انظر شكل ١٨)

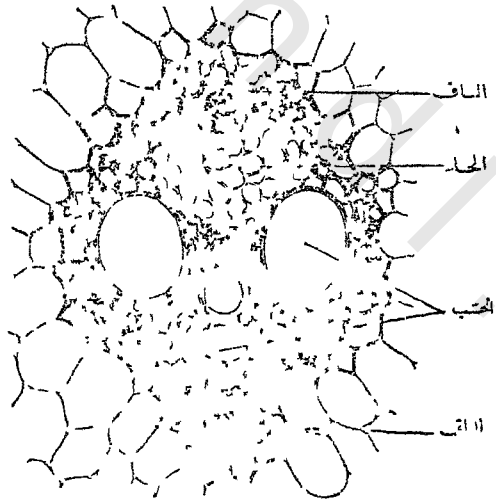

(شكل ١٨ ــ قطاع عرضى فى حزمة وعائية من ذوات الفلقة الواحدة)

فقال صاحبى : أريد أن أعرف الفرق بين نمو ساق النبات ذى الفلقة الواحدة وساق النبات ذى الفلقتين

فقلت : إن ساق النبات ذى الفلقتين يزداد فى السمك عاما بعد عام إلا فى بعض أحوال شاذة (انظر شكل ١٩) مثلا فى شجر الجيز ، أو اللبخ أو السنط ، وكلها من ذوات الفلقتين ، يلاحظ أن أطراف الأفرع (أى أحدث أجزاء الساق سنا) رفيعة ، وأنها تأخذ فى الغلظ كلما اقتربت من أسفل الساق (أى جزء الساق الأكبر سنا) ، أما فى النخل وهو من ذوات الفلقة الواحدة ، فيلاحظ أن غلظ الساق متساو تقريبا على طول النبات ، وذلك لعدم حصول زيادة فى السمك .

شكل ١٩

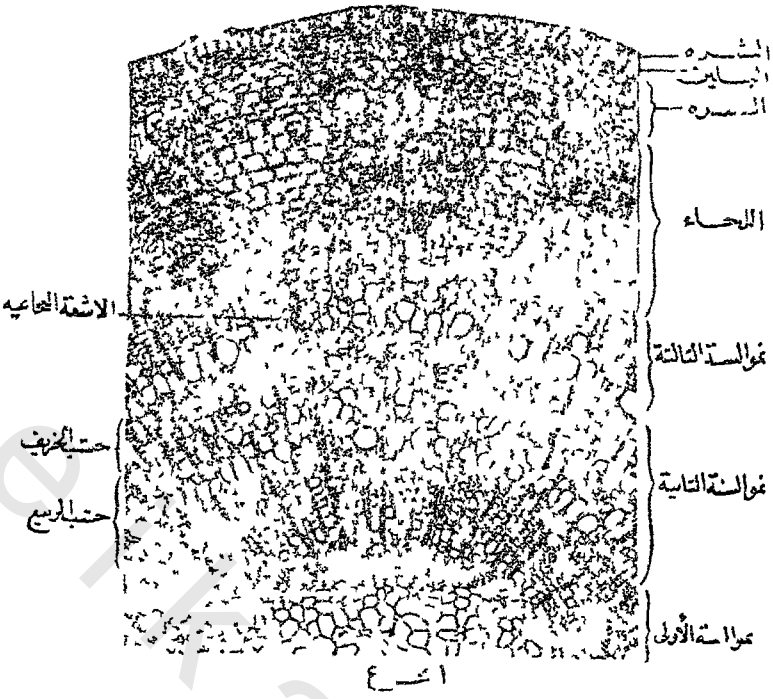

(شكل ١٩ ـ قطاع عرضى فى ساق عمرها ثلاث سنوات)

والزيادة فى السمك ترجع الى نشاط طبقة الكمبيوم التى فى حزم الساق بين الخشب واللحاء ، فتنقسم خلايا الكمبيوم مكوّنة خشبا فى الداخل (أى فى جهة النخاع) ولحاء من الخارج (أى فى جهة القشرة) وفى نفس الوقت تتحوّل خلايا الأشعة النخاعية التى توصل بين كمبيومى حزمتين متجاورتين إلى خلايا مرستيمية وتكون خشبا فى الداخل ولحاء من الخارج ، وتتصل بذلك حلقة الكمبيوم .

الحلقات السنوية شكل ١٩

الخلايا الخشبية التى تتكوّن فى الربيع تكون كبيرة الحجم ، رقيقة الجدر ، وذلك لأن النبات يحتاج فى فصل الربيع (أى فى فصل النشاط الذى يلى فصل السكون إلى مقدار وافر من العصارة لنموّ أوراقه وأزهاره الخ

أما فى فصل الخريف فتكون خلايا الخشب صغيرة الحجم ضيقة غليظة الجدر ، وذلك لعدم احتياج النبات إلى مقدار كبير من العصارة فى ذلك الوقت بعد أن يكون قد أتمّ نموّه السنوىّ وبدأ يستعدّ لطور السكون . وفى الربيع التالى تتكوّن الخلايا الخشبية الواسعة مرّة أخرى ، ولذلك يلاحظ فى القطاع العرضى للساق المسنة حلقات ناشئة من وجود خلايا خشبية صغيرة مجاورة لخلايا خشبية كبيرة (شكل ١٩) وكل حلقة من هذه الحلقات تدل على مقدار نموّ سنة كاملة ، ولذلك تسمى بالحلقات السنوية ، ويمكن تقدير عمر الساق اذا عمل فيها قطاع عرضى وعدت حلقاته السنوية شكل ١٩ ثم ٢٠ فى الصفحة التالية .

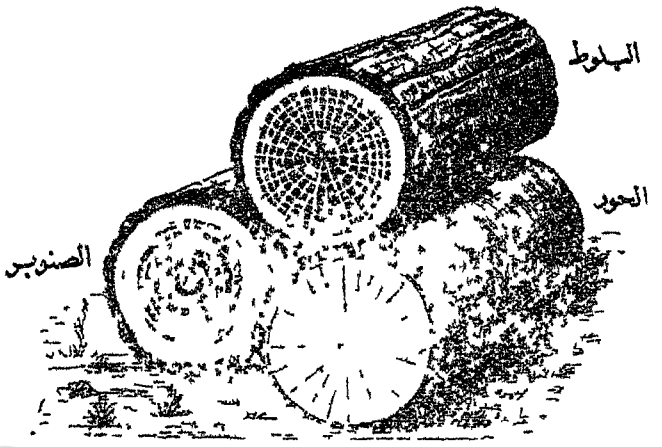

(شكل ٢٠)
شكل الخشب فى أشجار مختلفة . لاحظ الحلقات السنوية والقلف

وتشاهد الحلقات السنوية فى سوق النباتات التى تتساقط أوراقها فى أواخر الخريف ، وخصوصا فى البلاد التى فيها فارق عظيم بين درجتى حرارتها فى الصيف وفى الشتاء ، أما فى الأشجار المستديمة الاخضرار فمن الصعب تمييز هذه الحلقات ، وذلك لأن النمو يستمر طول السنة تقريبا .

فقال صاحبى : كفى ماتقدم فى ذوات الفلقة وذوات الفلقتين إجمالا ، ولكنى أريد أن أعرف شيئا قليلا عن تركيب الجذر ؟ فقلت : إن الجذور يطول الكلام عليها ، ولكن أذكر منه أمرا واحدا ، وهى المنطقة الدائمة فيه (انظر شكل ٢١)

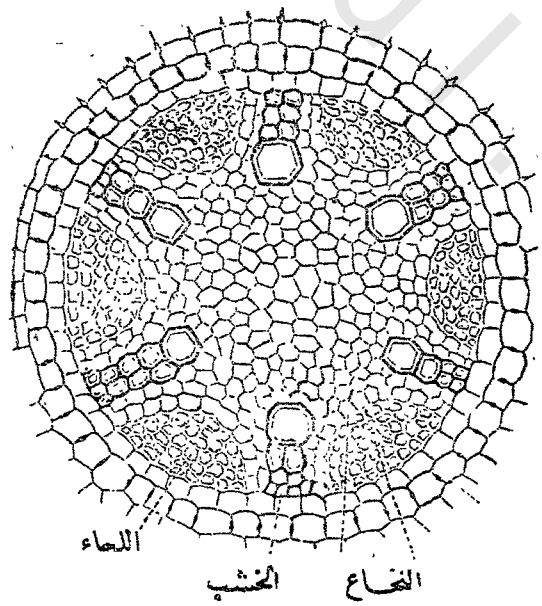

(شكل ٢١ ــ قطاع عرضى فى الإسطوانة الوعائية لجذر)

فقال : أنا الآن اكتفيت بما تقدم فى تشريح النبات ، فأرجو أن أعرف أقسام المملكة النباتية .
فقلت : هى أربعة تعرف كل منها بالمجموعة النباتية وهى :

(١) مجموعة النباتات الثالوسية .
(٢) مجموعة النباتات الحزازية .
(٣) مجموعة النباتات السرخسية .
(٤) مجموعة النباتات البذرية .

ثم قلت : أما النباتات الثالوسية فهى التى تقدمت فى سورة فصلت ، وقد عرفت آنفا ملخص ماهنالك فان فيها البكتريا والفطر [بضم الفاء والطاء] والطحالب ، وهـذه كلها واضحات هناك فارجع إليها ، فانك تعرف أكثر مما هو حاضر فى ذهنك ، وهناك صورجيلة توضح الموضوع . فقال : أريد معرفة النباتات الحزازية . فقلت (انظرشكل ٢٢ و٢٣ و٢٤) وهاك صورها :

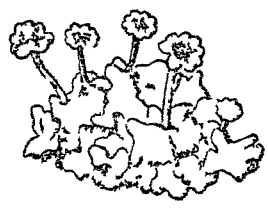

شكل ٢٢ نبات حزازى منبسط

شكل ٢٣ نبات حزازى قائم

(شكل ٢٤ ـ الخيط الأولى وعليه برعم)

فقال : وما مثال النباتات السرخسية ؟ فقلت انظرشكلى ٢٥ و٢٦ فى الصفحة التالية

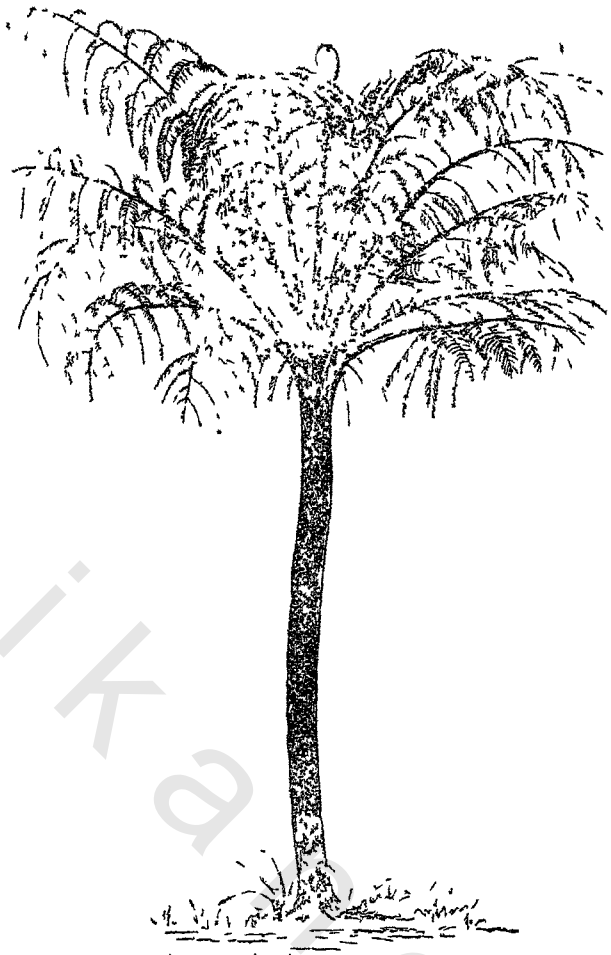

(شكل ٢٥ ـ أحد النباتات السرخسية الشجرية)

(شكل ٢٦)

فقال لم يبق إلا الكلام على النباتات البذرية . فقلت : الكلام عليها يطول ولكن نختصره هنا فنقول :
تعتبر النباتات البذرية أرقى المجاميع النباتية ، وتمتاز نباتاتها بتكوين البذور من البويضات التي تكون في أعضاء خاصة تعرف بالأزهار ، وتنقسم النباتات البذرية إلى قسمين رئيسيين : —

(١) النباتات المعراة البذور : وهي التي تكون بويضاتها معرّضة للخارج ، ولا تحاط بغلاف خاص (مبيض) كالصنوبر والسرو ، ونباتات هذا القسم في الغالب خشبية ، وكانت عظيمة الانتشار في العصور الجيولوجية الغابرة ، غير أنها أخذت في النقص والاضمحلال بعد نشوء النباتات المغطاة البذور .

(٢) النباتات المغطاة البذور : وهي التي تحاط بويضاتها بغلاف خاص مقفل كالصندوق يسمى المبيض . وهذا القسم من النباتات البذرية له أهمية اقتصادية كبيرة ، إذ أن معظم نباتات المحاصيل تابع له .

وتنقسم النباتات المغطاة البذور إلى : —

(١) النباتات ذوات الفلقة الواحدة .

(٢) النباتات ذوات الفلقتين .

وتختلف نباتات هذين القسمين من عدة وجوه ، والجدول الآتي يبين أهم مواضع الاختلاف :

موازنة بين النباتات ذوات الفلقة الواحدة وذوات الفلقتين

ذوات الفلقتين	ذوات الفلقة الواحدة
(١) لأجنتها فلقتان .	لأجنتها فلقة واحدة .
(٢) الحزم الوعائية تحتوي على كمبيوم بين الخشب واللحاء ، وهي مرتبة على شكل دائرة في الساق .	الحزم الوعائية لا تحتوي على كمبيوم بين الخشب واللحاء ، وهي مبعثرة بدون نظام خاص في الساق .
(٣) تزداد سوقها في السمك عاما بعد عام .	لا تزداد سوقها في السمك إلا في أحوال نادرة وبطريقة تختلف عما في ذوات الفلقتين .
(٤) عروق الأوراق متفرّعة على شكل شبكة .	العروق عادة متوازية ، وفي النادر شبكية .
(٥) أجزاء الزهرة ثنائية أو رباعية أو خماسية .	أجزاء الزهرة ثلاثية أو مكرّرات ثلاثة .

والى هنا تمّ الكلام على المقالة الأولى ، والحمد لله رب العالمين .

المقالة الثانية في قوله تعالى : تبصرة

اللهم إنا نحمدك على توفيقك ، وإلهامك ، واسعادك ، وامدادك ، ها نحن أولاء يا رباه عرفنا إبداعك في نباتك :

(١) فانك أبدعت في تركيبه بحيث جعلت في كل ساق مجموعات من النسيج الخلوي ، ولكل مجموعة منها عمل خاص ، فهي إذن أشبه بهيئة دولة لكل طائفة منها عمل ، وليس في عملك معطل : « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين » .

(٢) ونراك أبدعت البشرة (انظر شكل ١١) بحيث جعلت خلاياها ملاصقة تمام الملاصقة : وجعلت ما يلي الهواء أغلظ مما سواه لتقاوم على تحمل ما يحيط بها .

(٣) وجعلت الكيوتين لمنع الماء من البخر .

(٤) وجعلته سميكا فى البلاد الحارّة رقيقا فى غيرها .

(٥) واذا كانت هذه البشرة قد أعدّت لمنع دخول ماهوخارج عنها لحفظ النبات ، والنبات لايصبر عن الهواء الخارجى ، فقد قضت الحكمة أن تكون فيها ثقوب ليدخل منها الهواء لحياة النبات .

(٦) ثم كيف كانت نفس هذه البشرة مزروعة بشعر يخرج منهافيحفظ بكثرته ما فى باطن النبات من الماء ، ويمنع تأثير الضوء الخارجى ، فالشعر إذن ذومنفعتين داخلة وخارجة .

(٧) ولما كانت البشرة وشعرها لاتكفى لمنع الحيوان قضت الحكمة أن يكون فى الشعرمادّة يكرهها الحيوان فيحفظ النبات .

(٨) ياليت شعرى : ما هذه الكتل المثلثة المرتبة على هيئة دائرة فى الحزم الوعائية (شكل ١١) وما هذا التنظيم الجميل ؟ .

(٩) ثم ماهذا الخشب (شكل ١٥) الذى ينقل العصارة من الجذور إلى الأوراق وغيرها ، إذن هو فى النبات قائم مقام القطار فى سكة الحديد ، أوالمراكب الشراعية لنقل الميره .

(١٠) ثم ماهذه العرابيل (شكل ١٤) التى تنقل ما تمّ نضجه فى الأوراق كالمادّة السكرية ونحوها إلى أجزاء النباتات الأخرى ، فهذه الغرابيل أشبه بالخدم يقدّمون الطعام إلى ساداتهم .

(١١) ثم ماهذه الألياف ؟ وماهذا المسمى [الكمبيوم] الذى يتحوّل تارة إلى لحاء وتارة إلى خشب (شكل ١٥) فيزداد الساق غلظا ، إذن هوأشبه بمقوّم لما نرفع عليه بيوتنا ، فهو مقوّ للساق ، والساق يرتفع عليه البنيان .

(١٢) ثم ماهذه الحلقات السنوية (شكل ١٩) و (شكل ٢٠) .

(١٣) ثم ماهذه الحلايا التى جعلت مخازن لنحو السكروالنشاء والزيت .

(١٤) عناية جليلة وأمر بديع ، وهنا نسائل أنفسنا : ماهذه الأعمال كلها ، وماهذه البدائع ، أعراس والله وأفراح ، وزينة منصوبة ، لجلّ الله الذى غشى على عقولنا فلم نعرف هذه الزينة البديعة ، شمس تضيء ونورها يمتدّ على الأرض ، وبه حياة النبات ، ولكن النبات اذا أحسّ بشدّة ضوئها ظهرله شعركشعرالانسان ، وذلك الشعر يحميه من شدّة ضوئها كما يساعد البشرة فى حفظ الماء فى داخل النبات من البخر .

هذه أعمال عجيبة وجيلة ، ولم كانت هذه كلها ، إنما كانت لأجل حياتنا نحن فى الأرض ، ربع مليون من أنواع النبات ، وكلها ذات أفراح وأعراس وجمال و بهجة ، وكلها لأجلنا نحن ، ثم اننا نرى فى أنفسنا من العجائب والبدائع أضعاف مارأينا فى النبات ، والا فما هذه القرنية فى العين [انظر هذا المقام مفصلا فى سورة آل عمران وفيما تقدّم فى هذه السورة قريبا فهى أكثر تفصيلا : تلك القرنية الشفافة ، ومن تحتها العنكبوتية والقزحية ، وانسان العين فى وسطها ، ثم ماهذه البلورية ، وهى المسماة أيضا عدسية وجليدية أيضا ، ثم ماهذه الرطوبة البيضية فى أوّل العين ، والرطوبة الزجاجية التى بعدالعدسية ، ثم ماهذه الشبكية والمشيمية والصلبة ، تلك الطبقات والرطوبات المنتظمات اللاتى أدهشن العلماء بنظامها ودقيق ، واذا كنا نرى النبات قد حفظت الشعرات النابتات على البشرة ما فيه من ماء ، ومنعت عنه مايزيد من الضوء ، وهكذا نرى فى البشرة ثغورا مدخلات فى الذات الهواء ، فهكذا رأينا أهداب العين حفظها من دخول الغبار وان أباحت دخول الضوء ، وساعد على ذلك شعر الحواجب .

سبحانك اللهم يا خالق القدوس ، تقدّست أن تفعل الا بالحكمة ، صنعت هذه النباتات كلها ،

وجعلتها قوادم لنا ، وأودعت فينا حكما لاحدّ لها كلها للمحافظة على حياتنا ، إذن حياتنا أمر عظيم ، وكيف لا يكون عظيما ، وهذه العين كما سبق قد كملت أوصاف وضعها ، وقد رأيت بالرسم أن الشبكية مع أنها لايزيد سمكها عن الورقة مقسمة عشر طبقات ، وفى آخرهنّ اسطوانات ومخروطات تعدّ بالملايين كلهنّ جعلن لأجل ابصارنا ، هذا كله لحياتنا نحن .

الله أكبر : حياتنا لاقيمة لها والله إلا بأن نعلم هذه العجائب ، وهذه هى التبصرة المذكورة فى الآية ، فبدراسة هذه العجائب تقوى عقولنا وتكون لنا بصائر ، وتتمرّن على النظام والحكمة ، وتتسع قوانا وتنفع أممنا ، هذه هى التبصرة ، ولهذا المعنى نجد هذه العلوم تدرس اليوم فى أوروبا وأمريكا واليابان ، لماذا ؟ لتعطيهم التبصرة فلذلك ارتقوا فى الحياة ، إن الانسان عند مشاهدة هذه الحكم يكون مطلعا على أعمال معلم النبيين والمدرّسين فى الأرض ، بل الانسان إذ ذاك يشهد الملكوت بنفسه .

رجال أوروبا وقوّاد شعوب أمريكا كلهم يدرسون أمثال هذا بهيئة أوسع ، وهذا عين قوله تعالى : « تبصرة » والانسان بدون تبصرة لاقيمة لحياته . ذلك أن هذه النباتات ونحوها الموزعات على الأرض لم تخلق لأجل الطعام واللباس والدواء فحسب ، وانما هذه المذكورات مغريات بالدراسة ، والدراسة توسع العقول وهو المقصود ، وهذا معنى التبصرة ، فعلى المسلمين أن يدرسوا هذه العلوم جميعها فى المدارس الثانوية كما تدرس فى جميع الأمم حولنا لنفهم قوله تعالى : « تبصرة » . فأفّ لمن مات وهو بهذه العجائب جهول ، وأفّ لأمم الاسلام بعدنا اذا هم أهملوا ما ذكرناه . وأقول وأنا واثق مما أقول : ان أمم الاسلام بعدنا خير أمة أخرجت للناس ، وسيكون رقىّ الانسانية على يديهم ، وهذا الكتاب من مقدّمات نهضتهم ، والله هو الولىّ الحميد .

المقالة الثالثة فى قوله تعالى : وذكرى لكل عبد منيب

عرفنا اجمال علم النبات ، وعرفنا كيف كان تبصرة فلم يبق إلا أن نفهم معنى الذكرى ، درسنا النبات ، وعرفنا عجائبه ، وازدادت بصائرنا فصارت عقولنا راجحة لأنها مرنت على ما رأته من الحكمة ، فهى لامحالة تكون حكيمة فى أقوالها وأفعالها ، ولكن نفوسنا الشريفة العالية بعد هذا كله تقول : لكل مخلوق نتيجة وما نتيجتى أنا ؟ ، والاجابة على ذلك أن نتائج أرواحنا أنها تتذكر : أى تتذكر عالمها الذى أخرجت منه ، إن المادّة جميعها نقط ضوئية أصلها كهارب ، والكهارب نواتج من موجات فى بحر الأثير ، وهذه الأضواء صارت موادّ نراها مختلفة الأشكال وهى غليظة ، ولكن أرواحنا أرقى منها ، فهى جاءت من عوالم أرقى ، فهذه الدروس تذكرها بعالمها ، وهو عالم الجمال والحكمة .

ايضاح هذا المقام

اللهم إنك أنت الملهم المعلم خلقتنا وخلقت فينا برحمتك آلاما تسوقنا إلى الغذاء والكساء والدواء ، ثم خلقت حولنا ٢٥٠ ألف نبات وأبدعتها ، وقلت لنا : « هاؤم اقرءوا كتابيه » فقرأناه فوجدنا عجبا ! وجدنا أننا نعمل لازالة هذه الآلام ، وفى أثناء ذلك نجد عندنا أمرا عجيبا ! وهى لذات نحسّ بها فى نفوسنا من الدراسة ، وهذه اللذات نوع آخر شريف نحسّ به عقولنا كما نحسّ بالطعام معدتنا ، نرى الناس ما داموا أحياء لايسعدون إلا بصور تدخل عقولهم فتفرحهم ، وهكذا جميع المدارس والديانات والعلوم الرياضية والطبيعية والروايات والشعر والنثر ، ومحادثات الاخوان ، وقراءة الجرائد والأخبار ، ولن نرى أحدا فى الأرض يشبع من دخول الصور عقله كل لحظة ، لأن التفكر لايقف لحظة ، ولامعنى للفكر إلا الصور ذهنية ، وكما تنوّع

النبات فكان منه مايمتد على الأرض ، ومنه مايوضع فوق عروش ، ومنه شجر ، ومنه نجم : أى لاساق له وهو أنواع شتى ، وكل منها له غرض فى حياتنا ، هكذا الصور الذهنية ، فالسمع أعدّ لمدارس العالم كلها وللروايات والمحادثات ، والبصر أعدّ لصور العوالم كلها ، وأمامه كل نبات ، وكل حيوان ، وبحر وبرّ ، فهذه كلها ترسل صورها والبصر يتقبلها ويرسلها للنفس فتتغذى بها ، النفس لاتفتأ تقبل كل صورة أرضية وسماوية من منظار العين ، وكل صورة مصدرها منطق اللسان وحركات الهواء والأمواج والموسيقى ، وتقبل الروائح من الأنف وأنواع اللذات من حاسة اللمس والذوق ، إذن هنا صور لاحدّ لها غذاء لأرواحنا ونحن لانعلم أنها غذاء لنا ، أوّلا لأنها كثيرة جدّا فغفلنا عنها كما غفلنا عن الهواء المحيط بنا ومنفعته ، وثانيا لأنها لايصحب غيبتها آلام كآلام الجوع والعطش بغية الطعام والشراب بل يكون الشوق بدل الألم ولاحياة للانسان بدونها بل هى ملازمة له ماد ام حيا ، إذن الناس يظنون خطأ أن غذاءهم الوحيد إنما هو الطعام ، وفاتهم أن عقولهم تتوارد عليها الصور دائما ، فغذاؤها دائم لامقطوع ولاممنوع ماداموا فى الحياة وهو ألزم لهم من الطعام ، وهذه الحال أشبه بضرب مثل للذات الناس فى عالم الأرواح ، لأن الروح لاغذاء لها أفضل من العلم والحكمة اذا كانت من الأشراف العظماء ، غاية الأمر أن الصور هناك لاسخافة فيها كسخافة الصور العقلية لذوى النفوس الضعيفة فى الأرض فهم يشمتون بالأعداء فيظنون أنهم سعداء بهذه الشماتة وهم غافلون ، فهذا غذاؤهم كما تتغذى الفيران والحشرات بالقاذورات .

أما الأرواح الشريفة العالية بعد الموت فانها تتوارد عليها صور جليلة علمية ، وهذا الذى نراه فى عجائب العين نوع منها ، فهذه كما أنها غذاء لعقول شريفة هنا هكذا تكون تغذيتها أعظم للروح اذا خلصت من الجسم ويشير إليه ماورد فى الأخبار أنهم يلهمون التسبيح كما نالهم نحن النفس ، وماهو التسبيح ؟ هو التنزيه والله منزه عن النقص فى أفعاله فتكون أفعاله كاملة ، وهذا هو الكمال والحكمة ، هذا الذى تقدم فى النبات ونحوه نموذج لحكمة الله تعالى ، وهذه الحكمة هى التى بها تنزه الله عن النقص فى فعله ، وهذه اللذة العلمية يحسّ بها الناس الآن فى الدنيا ، بل يرونها أعظم اللذات ، فهى هى حقائق التسبيح ، فالتسبيح اللفظى عنوان عليه والا فلامعنى لحقيقة التسبيح إلا بأمثال ما ذكرناه والله يقول : « سبح لله مافى السموات ومافى الأرض » الخ ويقول : « يسبح لله مافى السموات والأرض » الخ .

التسبيح والتحميد والتكبير

جاء فى الحديث : « ان الجنة طيبة التربة عذبة الماء وغراسها سبحان الله والحمد لله والله أكبر » وجاء فى القرآن : « وان من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم » والمسلم يسبح فى كل ركوع وسجود ، ووراء الصلوات ، وقبل طلوع الشمس ، وقبل غروبها ، وقبل النوم يسبح ويحمد ويكبر ٣٣ مرة بعد الصلاة ، فهذا التسبيح والتحميد والتكبير غراس الجنة ، ونسمع علماءنا رحمهم الله يقولون : « إن كما يفعل تسبيح المخلوقات باللفظ ونحن لانسمع » ويقول آخرون . كلا . بل هو تسبيح بلسان الحال .

واعلم أن الناس ماداموا على شاطئ بحر المعرفة فانهم يختلفون كما يختلف الصيادون وهم على شاطئ نهر أو بركة فى كثرة الأسماك وقلتها بحسب استعداد كل منهم والعلامات التى يراها ، فاسمع الحقائق الواضحة ودع القشور ، هذا التفسير فيه من كل فاكهة من فواكه العلم زوجان ، فاعجب لما ذكرتك به آنفا كيف ترى هدب العين وشعرات الورق تمنع شدة الضوء عن العين وعن النبات ، وكيف تكون مادّة [الكيوتين] حائطة للماء فى داخل النبات كما يحفظ لون القرحية الصور الداخلة فى العين من التشويش كما رأيته مبرهنا

عليه فى أوّل هذه السورة فى تفسير البسملة مع آية « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » .

وههنا حكمة ومعها آلاف الحكم مرّت وستمرّ فى هذا الكتاب ، ألست أيها الذكىّ تحسّ فى نفسك متى طاب الوقت ، وصفا الزمان ، وخلوت من المشاغل الشاغلة لك أنك أسعد من على الأرض لأنك كأنك فى حضرة الجمال والحكمة ، ألست ترى فى نفسك بهجة لم يحلم بها إلا أمثالك فى ذلك الجمال والحكمة ، وعلى ذلك تكون حياة الحكيم المعجب بهذا الجمال فى الدنيا حياة فوق كل حياة ، والناس فى الأرض جميعا تبع لهذه الطائفة الممتازة بصفاء البصيرة والحكمة ، إن العين وطبقاتها ، والنبات وعجائبه ، وكل نظام منظور ومسموع يحدّثنا حديثا حقا ويقول : أنتم شهدتم الحكمة ، وشهدتم النظام ، وهذا الحديث الذى نشعر به هو سرّ التسبيح ، لأن العقل حالا يشهد شهادة عيان أن العالم فى غاية النظام ، واذن منظمه حكيم ، وهذا النظام المحكم نتج عن نعم لاحدّ لها ، وهذا هو الحمد بعينه ، فالتسبيح والتحميد متلازمان ، وهذا هو السرّ فى قوله تعالى : « وسبح بحمد ربك » إذ لا معنى لتنزيه عن النقص إلا بالكمال ، فالله منزه عن النقص فى أفعاله ، وذلك بالحكمة فى النظام ، والحكمة فى النظام نجم عنها نعم كثيرة ، وهى التى تستوجب الحمد ، ومع هذا كله فهذه النعم وهذه الحكم كلها شىء يسير بالنسبة لصانع العالم ، فاذن يقال : الله أكبر : هذا هو السر فى طلب التسبيح والتحميد والتكبير فى كل آن فى الدين الاسلامى ، إذن هذه بذور بذرت فى بلاد الاسلام كما أن الله عزّ وجل أودع فى نباتات البرية وغيرها بذورا ، وأمر الرياح أن تحركها فجرت هنا وهناك ، ونبتت فى أماكن شتى لمنفعة كل حيوان ، ولكن رجال الطب الذين يعرفون قيمة هذه الحشائش أندر من الكبريت الأحمر ، ونظيرهم هنا فى التسبيح والتحميد رجال الحكمة الدارسون العلوم الذين سيكثرون بعد ظهور أمثال هذا التفسير ، ولكنهم قوام هذه الأمة ، وهم هم الذين عرفوا سرّ التسبيح والتحميد ، وهم الذين يفهمون سرّ الحديث الشريف : « وأن الجنة غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » ويقولون ان الجنة للجهلاء وصغار العلماء تكون قريبة من الحسات الحسية ، وهؤلاء يكتفون بظواهر التسبيح وهو العبادة بتكرار اللفظ فى المناسبات المتقدّمة ، والعامة لهم درجات عند ربهم ونعمة وهم بها فرحون .

أما أكابر الأمة فهم هم الذين شهدوا هذا النظام ، وأصبحوا فى نعمة لاحدّ لها ، مبدؤها فى الدنيا وبعد الموت مباشرة يحسون بمالا حدّله من النعيم لأن أرواحهم تفرّغت لما كانوا يعشقون فى الدنيا ، إذن التسبيح اللفظى فى الحقيقة أشبه بمقدّمة للتسبيح الحقيقى الذى يفقهه الحكماء فى الاسلام .

اعتراض على المؤلف وجوابه

فلما اطلع على هذا صديقى العالم الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير . قال : ماذا تقول فى الشيخ الدباغ ؟ فقلت : لقد نقلت عنه فى التفسير كثيرا ، وهو رجل مفتوح عليه فقال انه يخالفك فانه يقول انه كان فى بداية أن فتح عليه يستحم فى ماء فسمع أصواتا لاحصر لها تسبح الله ، فخرج يجرى من فوره ، وسمع أصوات الأحجار بلغات مختلفات ، وسمع حجرا منها له أصوات مختلفات فى التسبيح ، ثم بحث عنه فعرف أنه مجموع من أحجار كثيرة .

فهذا دليل على أن تسبيح المخلوقات لفظى . فقلت : أوّلا نحن لاندرى هل هذا القول المنسوب له ورد عنه أم لا ؟ وان كان فى نفس الكتاب . ثانيا أنه سمع ذلك وهو فى أوّل أن فتح عليه ، وما هذه الأصوات المختلفات بالتسبيح إلا كتسبيحنا نحن ، وما تسبيحنا إلا ألفاظ تدل على معان ، وامتلاء عقولنا بالمعانى المفصلة

هو المطلوب كما أن تسبيح هذه العوالم يقصد منه ماوراءه وهو أنها تعرف هذه المعانى على التسليم بأنها تعقل ، وما تسبيح هذه المخلوقات أمام المفتوح عليهم إلا خوارق للعادات ، وخوارق العادات غير مقصودة لحكماء الأمم الاسلامية وعقلائها ، والقرآن صرّح بأنه لا مدار عليها ، فرجع الأمر إلى أن المسبحين بعد أن كانوا عددا معلوما وهم بنوآدم أصبحوا أعدادا لانهاية لها ، واذا كان تسبيح المسلمين العقلاء أنفسهم لاقيمة له إلا بمدلوله ومدلوله هى هذه العلوم التى ندرس بعضها فى هذا التفسير ، فاذن التسبيح الحقيقى لكل عاقل من ملك وانس وجنّ إنما هو ماشرحنا بعضه فى هذا الكتاب ، إذن التسبيح اللفظى إنما هو نموذج والتسبيح الحقيقى هو المقصود ، فاذا سمعنا الله يقول : « سبح لله مافى السموات ومافى الأرض » واذا سمعناه يقول : « يسبح له مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » عرفنا أن هذا هو معناه ، فأما عقلاء بنى آدم فان تسبيحهم اللفظى مقدمة لهذا التسبيح ؟ فليسبح المسلمون فى جميع الأوقات ، فهذا عبادة فى حدّ ذاته ، وأكابرهم يصلون للحقائق وينفعون بها اخوانهم فى الدنيا والدين ، كما أن نبات الأرض غذاء لكل حيوان ، وبنوآدم له زارعون ، وعلماء النبات فى نوع الانسان لحكماء الاسلام فى أمة الاسلام .

فقال صاحبى : هذا حسن ولكن أليس الكلام على التسبيح والتحميد كان الأليق به آخر ﴿ سورة الطور ﴾ عند قوله تعالى : « وسبح بحمد ربك حين تقوم » الآية ، أوأوّل ﴿ سورة الحديد ﴾ : « سبح لله الخ » فقلت نعم ان هذه المعانى كلها خطرت لى وأنا أشاهد المزارع خارج القاهرة وكانت مقرونة بهاتين الآيتين اللتين ذكرتهما ، ولكنى بعد ذلك حين قدّمت هذه السورة للطبعة وجدت أن الآية فى هذه السورة يعوزها الكلام على النبات ، ووجدت المناسبة تامّة فجعلتها فى هذا المقام لهذه المناسبة . فقال : وهل سؤال آخر ، وهو : هل آية « وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » يعوزها هذا كله ؟ فلت نعم وأكثر منه . فقال : ولكن المتقدّمون لم يطيلوا فى مثل هذا كما أطلت أنت . فقلت : قد أطالوا أكثر مما أطلت أنا . فقال : وكيف ذلك ؟ فقلت : إن آباءنا كانوا يحكمون الأمم فاحتاجوا إلى العلوم التى بها يضبطون تلك الأمم فكان علم الفقه إذ نبغ أمثال امامنا الشافعى وأبى حنيفة ومالك وابن حنبل وزيد وأئمة الشيعة رضى الله عنهم أجمعين فعلموا ملوكهم ، وأقاموا الدين بالقسط ، ولم يدعوا العامّة يتخبطون فى ديجور الظلام ، بل سهلوا لهم أحكام الأفراد من صلاة وصوم وغيرها ، فهم رحمهم الله أفادوا وأجادوا فيما يحفظ كيان دولهم ، ويحفظ العبادات ، ونحن جئنا فى زمان وجدنا الأمم الاسلامية كثيرة ، والأحكام مدوّنة ، والعلماء كثيرون والحمد لله ، ووجدنا الأمم فى الأرض قد ارتقت مداركها ودرست هذه العلوم ، ووجدنا القرآن اهتمّ بها اهتماما عظيما ، فرأيت بل أيقنت أننى يجب علىّ أن أؤلف لهذه الأمم الاسلامية أعظم علوم الاسلام لكى نترك لعظماء الاسلام بعدنا الطريق ممهدة ، ليربوا هذا الشعب المسكين التربية التى لم تكن لتحدث فى الزمان الماضى لأن الأمم لم تكن مستعدّة لها ، والقرآن جاءنا بأمرين اثنين : أوّلهما نظام الأمم وحكمها وتهذيبها ، وثانيهما تربية العقول تربية راقية علمية حكمية ، ولما كانت الفرس والروم أيام السوّة قد اختلت دولهم ، وورث المسلمون أرضهم وديارهم ، ونساءهم وأموالهم ألهم علماءهم وأئمتهم أن يعينوا ملوكهم بتلك الأحكام ، ويعينون المحكومين بما يجب عليهم فى أحوالهم الخاصة فنفعوا عباد الله ، ثم دالت دولهم ، وأصبحنا اليوم نرى أممنا وأممنا وعلوما وعلما ، فلنفعل نحن فى هذه العلوم لتربية الأفراد والأمم مافعله آباؤنا فى تلك الأحكام ﴿ وبعبارة أصرح ﴾ اذا رأينا آيات الطلاق المعدودات ، وآيات الدين وغيرها تؤلف لها كتب تعدّ بالآلاف عند الطوائف المختلفة ، وذلك كان واجبا فى ذلك الزمان ، فهكذا نحن فى زماننا نفعل ما فعله آباؤنا فى زمانهم بعد أن أتموا ماعليهم ، واذا سمعنا الشافعى رضى الله عنه يستخرج من آية : « فاعتبروا يا أولى الأبصار » نحو ربع الأحكام الشرعية وهو القياس ،

ويقول انها توجب علينا القياس ، واذا رأينا آية الوضوء تستنفد جهد العلماء فى التأليف وتشغلهم شغلا عظيما فأولى ثم أولى ثم أولى منها آية « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » . إن الوضوء شرط للصلاة ، والصلاة للتسبيح والتحميد ، والتسبيح والتحميد نتيجتهما هذه المعارف ، والعلوم والمعارف هى المخبوءات فى نحو هذه الآية ، وأنا واثق جدّ واثق ، بل كأنى أشاهد أمامى أمم الاسلام فى أقرب زمن وفيما بعد إلى ماشاء الله ، وهم يدرسون كل علم ، ويرون أن مانكتبه الآن ان هو إلا مذكرات لما يدرسون ، ومقدّمات لما يعلمون ، ونور لما هم به مستبصرون ، والله من ورائهم محيط . والله بكل شىء عليم ، وفوق كل ذى علم عليم ، والحمد لله رب العالمين . انتهى يوم الثلاثاء ٦ اكتوبر سنة ١٩٣١ م

جمال العلم وبهجة الحكمة

ها نحن أولاء درسنا أعيننا وعجائبها ، والسماء وسعتها وكواكبها ، فاذا كانت أعيننا لاحدّ لعجائبها ، وهى مركبة فى أجسامنا المشتقة من أرضنا فكيف تكون عجائب أرضنا ! هى بالأولى لاحدّ لها ، ونذكر منها قلا من جلّ بعد ما كتبناه فيما سبق فى هذا التفسير مثل ما جاء فى تفسير قوله تعالى : « وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب » وغيرها ، فنشرح وادى الموت وغور الشيطان والجليد الخ :

(١) أما وادى الموت فهو فى الجنوب الشرقى من أمريكا ، ومادخله أحد إلا مات لشدّة حرارته ، فلا يعيش فيه نبات ولا حيوان ، ولكن فيه كنوز عجيبة ، وماهى هذه الكنوز ؟ هى [البورق] وقد كشفه رجل اسمه [هارون ونترس] كان يسكن بعيدا عن ذلك الوادى بمئات الأميال ، فذكر له رجل أنه اذا مزج البورق بمادّة كيماوية معلومة اشتعل بلهب أزرق ، فتذكر راسبا أبيض فى طرف ذلك الوادى ، فسار هو وزوجته ٢٠٠ ميل ، وابتاعا بعض ذلك من الأمريكيين الحمر ، وامتحن ذلك الراسب الأبيض ، فوجد لهبه أزرق ، فطار فرحا ، وباع هذا الكشف بخمسة آلاف جنيه ، ولقد وجدوا فى ذلك الوادى مناجم كثيرة للبورق ، ولكن الصعوبة فى نقله ، لأنه يميت من يدخله ، وقد مدّوا لوادى الموت سكة حديدية ، وأنشئت قرية للعمال فى نفس الوادى ، وفيها بناء طوله ٨١٦ قدما ولهم فيه ٢٠٠ غرفة للنوم ، فيه جميع مايلزم للراحة ، وغرفة للمائدة تسع ٢٠٠ نفس ، والآجر الذى بنى به ذلك البناء قليل التوصيل للحرارة ، واذا كانت درجة الحرارة فى الظل هناك تبلغ ١٢٠ درجة فهى فى غرف النوم لم تزد عن ٨٩ درجة ، لأنهم يبرّدون هواء البناء بجعله يمرّ فى رشاش الماء ، ويستخرجون من ذلك الوادى كل سنة ١٢٠ ألف طن من البورق ، وهى تساوى نصف مليون جنيه ، واذا بيعت فى بلاد الانجليز فانها تساوى ستة ملايين وستمائة ألف جنيه ، هذا ماجاء فى كتاب العلم والعمران ، وهل لك أيها الأخ الذكىّ أن تتذكر ماتقدّم فى ﴿سورة ابراهيم﴾ إذ ذكرت لك هناك «البحر الميت» وأن ثروته أكبر من ثروة جميع المسلمين الآن فى الأرض ، وقد جهلها المسلمون وعرفها الفرنجة وهم يستخرجونها ، وهاهو ذا وادى الموت الذى لايصلح للحياة ظهر أنه كنز عظيم ، وهذا هو قوله تعالى : «والأرض فرشناها فنعم الماهدون» وقوله تعالى هنا «والأرض مددناها الخ» نعم الله ممدوح على تمهيد هذه الأرض ، فلمعادن الجيلة النافعة يجعل استخراجها صعبا ، والمزارع يجعلها فى غاية السهولة ، وما أشبه إدراك الحقائق التى يجهلها أكثر الناس إلا بالبحر الميت فى فلسطين ووادى الموت فى أمريكا ، كلاهما يعرفه الناس فى حال جهالتهم ولكنهم ينظرون إليه بالسخرية والاستهزاء ، فاذا جاء أهل العلم استخرجوا مايشاءون من الكنوز ،

هكذا أعيننا وأجسامنا والكواكب حولنا ، يراها العالم والجاهل على حدّ سواء ، فالجاهل يحقر البحث فى هذه العجائب والعالم هوالذى يعرف قيمتها و يصرف نفيس عمره فى المعرفة كما تجشمت انكلترا مشاق الحرب فى الحرب العظمى ، و بلغت ما ربها فى البحراميت ، وكما صرفت الشركة الأمريكية آلاف آلاف الجنيهات فى استخراج كنوز وادى الموت وهوالبورق الكثير هناك .

أيها الذكىّ : اصرف عمرك كله فى استخراج حقائق العوالم فأنت سعيد بذلك الاستخراج وقوم بعدك سيقلدونك فى ذلك ، وآخرون يستخرجون منافع الأرض كالتى فى وادى الموت والتى فى البحراميت ، فهذه كنوز أقلّ من كنوز العلم ، ونفس مانكتبه الآن وأمثاله كما يحث الناس على الأعلى يحثهم على الأدنى ، ولكل من الناس درجة فى عمله والله هوالولىّ الحميد .

(٢) [غورالشيطان] : أما غورالشيطان فهو غور فى أرض صخرية بولاية [اريزونا] من ولايات أمريكا حيث الارتفاع (٦٠٠٠) قدم عن سطح البحر وهوكبير مستدير ، قطره نحو ١٣٠٠ متر وعمقه ١٧٥ مترا ، وهذا الغور انما حصل بسبب جرم سماوى مزّق ما وقع عليه من الطبقات الصخرية وأحدث هذا العمق الواسع ، وكانت سرعته تزيد على سرعة رصاص البنادق ٥٠ ضعفا ، فكسر الصخور الصلبة وسحق الهشة ، فانتشرت الكسر والسحيق حول الغور فى أرض مساحتها ٧٥ ميلا مربعا ، ولقد زحزح طبقات الصخور المجاورة فارتفعت من جهة وانخفضت من جهة أخرى ، وحول هذا الغور حجارة نيزكية ومغناطيسية ، وكلها فيها الحديد والنيكل والبلاتين والاريديوم ونحوها من المعادن الثمينة ، ولقد تألفت شركة منذ عشرين سنة لحفر بئر يصل إلى الجسم النيزكى الذى أحدث هذا الغور ، وقد صرفت الشركة أكثر من مائة ألف جنيه ، وأوصلت البئر إلى ١٤٠٠ قدما ، وهناك أصابت جسما أشدّ صلابة من الفولاذ ، لا تفعل فيه القنابل وترتدّ عنه ارتداد الحصى عن الصخر ، وهذا الجسم العجيب النيزكى الذى ترى هذه الشركة أنه كنز عظيم ، يقدّر قطره بنحو ٣٠٠ قدم ، ويقدّر ثقله بمليون طن ، و بعضهم يجعل قطره أربعة أمثال ماذكر ، ولما أصاب الأرض وغار فيها أخرج منها مانقله أكثر من ٣٠٠ مليون طن و بعثر ماحوله

(٣) الكلام على الجليد والفحم القطبى : إن العصر الجليدى الأخير الذى أصاب الجانب الشمالى الغربى من أوروبا : أعنى ارلندا واسكتلندا وأسوج ونروج والبلطيك ، كان قبل التاريخ بين ٣٠ ألف سنة و ١٨ ألف سنة ، ودام الى ٦٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، إن القطب الجنوبى قد كشفت فيه طبقات ضخمة سمكها كلها ١٥٠٠ قدم على الأقل ، ومن حيث العرض ٨٥ درجة على بعد ٥ درجات من القطب الجنوبى ، و بعض هذه الطبقات رقيق جدا ، ووجدت آثار الجذور فى الطين الذى وجد مع الفحم الحجرى ، وذلك دليل قاطع على أن تلك الأصقاع كانت حارّة وكانت الأشجار تغطيها عصورا متطاولة ، وذلك على مقتضى انتقال القطبين ، انتهى الكلام على اللطيفة الثالثة فى آية : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى » الخ والحمد لله رب العالمين .

ههنا ثلاث جواهر

الجوهرة الأولى فى بهجة العلم فى قوله تعالى : « وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » .

الجوهرة الثانية فى قوله تعالى : « تبصرة وذكرى لكل عبد منيب »

الجوهرة الثالثة فى قوله تعالى : « مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد »

الجوهرة الأولى

بهجة العلم فى قوله تعالى : وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج

سيأتى فى ﴿ سورة الذاريات ﴾ الكلام على الذكور والأناث من النبات ، وأن علماء النبات حاروا فى تقسيمه ، فان قسموه بواسطة مايرون من شجرات وشجيرات وأنجم ، وهى الزروع المعروفة التى لاساق لها فان ذلك التقسيم لايفيد وكيف يفيد إلا بتحديد الاقسام تحديداتاما ، وان قسموه بواسطة أنه نبات سنوى وغير سنوى كما سيأتى ، فهذا غير كاف ، لأن البرسيم مثلا وحده بعضه سنوى و بعضه غيرسنوى ، فاذن قدالتجأوا أخيرا إلى دراسة الزهرة والحب والفاكهة فانتظمت الأقسام حينئذ ، ورأوا أيضا أن من الأزهار ما يكون ذكرانها على شجرة و إناثها على شجرة أخرى كما سيأتى إيضاحه هناك ، وذلك كشجرالنخل ، فاذا كان بين النخلة والاخرى مسافة بعيدة ، فان الهواء يحمل الطلع من الذكر إلى الأنثى ، والانسان لاعلم له بهذا « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

حكاية

جاء فى كتاب [الآيات البينات ، فى علم النبات] للاستاذ أحمد أفندى قدرى مانصه : « إن التلقيح فى النباتات دات المسكنين يمكن حصوله من بعد عظيم ، وهناك عدّة أمثلة نافعة لبيان هذه الظاهرة فكان منذ زمن طويل يستنبت شجرتان من الفستق الأنثى ، وكانت كل شجرة منهما تحمل كل سنة أزهارا ولايتحصل منهما ثمار أصلا ، فتعجب المعلم [جوسيو] لما رأى أن هاتين الشجرتين قد انعقدت ثمارهما ونضجت على ماينبغى فى سنة من السنين ، ومن ذلك الوقت خطر بباله أنه لابدّ أن يكون بباريز أوفى أكنافها شجرة فستق ذكر حاملة لأزهار ، فشرع فى البحث عن ذلك ، فعرف أن شجرة فستق ذكر أزهرت أول مرّة فى جنينة تربية النباتات الكائنة بقرب [لوكسامبور] فأتى الطلع المحمول بالهواء من فوق أبنية جزء من باريز ولقح نبات الاناث ، وهناك نبات يسمى [السنيريا سيرالس] أى الحلزونى الذى هونبات ذومسكنين (من الفصيلة البشنينية) ينبت بمقدارعظيم فى الترع وفى القنوات ، ففى هذا النبات ظاهرة عجيبة جدا فى زمن تلقيحه ، وهى أن يكون النبات موضوعا فى قاع الماء أى فاطنا فيه تماما ، وذكوره وإناثه تنبت مختلطا بعضها ببعض ، فالأزهار الاناث المحمولة على ذنيبات زهرية طولها قدمان أوثلاثة تقريبا ، وملمعة على هيئة حلزون تأتى على سطح الماء لكى تبتسم ، وأما الأزهار الذكور فكل جلة منها تكون موضوعة فى لفافة غشائية وهى محمولة على ذنيب زهرى قصير جدا ، فاذا أتى زمن التلقيح تفتح وتمزق اللفافة القرطاسية ، وتنفصل من حاملها الزهرى العام ، وتأتى على سطح الماء فتبتسم وتلقح الأزهار الاناث ، و بعد زمن يسير تنزل هذه الأزهار الاناث تحت الماء ، ثانيا بالتفاف الذنيبات الزهريه الحلزونية التى تحملها ، وفيه تصل ثمارها إلى نضجها التام » انتهى

أقول : وهذا من أعجب العجب ! ان هاتين العجيبتين تفتح لنا أبواب علوم كثيرة ، كيف لا وهذه شجرة الفستق كانت لاتثمر وهى أنثى ، ولكن لما طهرت شجرة فستق ذكر جاء لها الطلع منها فأثمرت ، إن هذه الدنيا جميلة وبديعة ، أليس هذا من أعجب الابداع ، يلقح النبات من نبات آخر والناس لايعلمون . وكيف يكون البشنين نابتا فى برك بلادنا ونحن ننظر إليه نظرة جاهلة لأنه ينبت فى البرك ولكنا نراه نضحك وهيئة أزهاره جميلة ، وهل كان يدور بخلدنا ونحن نلهو ونلعب فى حال طفوليتنا أن هذه الزهرة الضاحكة المستبشرة هى الأنثى ، وأن الذكران قد انتبذوا مكانا قصيا فى قاع البركة ، وانهم وقت الالقاح هم بدورهم سيخرجون

من أجدائهم سراعا وهم فرحون مستبشرون ، فيجدون هؤلاء العانسات واقفات منتظرات قدومهم فيحصل الالقاح فى أمن وأمان ، ولم يبق لهؤلاء الذكران من فائدة ، أما الاناث فانهن ينزلن إلى قاع البركة ، وهناك يتم نموّ الثمرات « فتبارك الله أحسن الخالقين » . « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون » . « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » فلنتذكر فى أمر السياسة ونقول :

إن الله الذى خلق النبات هو نفسه الذى خلق الأمم ، ولقد يخيل لى الآن أن فى الشرق عقولا وتلك العقول كانت مغطاة فى قاع بركة هذه الدنيا كما ان ذكران البشنين كانت ملتفة بأغشية فى قاع بركة الماء وهاهوذا اليوم أقبل الزمان الذى فيه تظهر تلك العقول من أغشيتها وتلقى على العالم دروسا كما ظهرت ذكور البشنين فى وقت الالقاح وفعلت ماخلقت له وتمّ الالقاح .

إن للشرق لصولة فوق صولة الغرب ، ومن هذه العجائب نفهم قوله تعالى : « لكل أجل كتاب » ، وقوله : « إن ذلك فى كتاب إن ذلك على الله يسير » . وقوله : « وكل شيء عنده بمقدار » .

واذا كان لقاح البشنين بمقدار فهكذا لقاح عقول الشرقيين له زمان لا بدّ منه ، وهل اللقاح غير التعليم ؟ الله أكبر ان من أنواع اللقاح فى الشرق الكتب والجرائد المنتشرة اليوم ومنها هذا التفسير ، إن لقاح العقول الشرقية اليوم حاصل ، والشرق يغلى كما تعلى القدور : « وربك يخلق مايشاء ويختار وهو اللطيف الخبير » انتهى يوم الأربعاء أوّل يونيو سنة ١٩٣٢ م

الجوهرة الثانية

في قوله تعالى : تبصرة وذكرى لكل عبد منيب

رباه : جل فعلك ، وحسن قولك ، كم نتفيأ ظلال الأشجار ، ونجلس فى الحقول ، ونأكل من الفاكهة والحب مالذ وطاب ، نعيش ونموت ونحن غافلون عن الجمال ، وعن الحكمة ، وعن عجائب الابداع ، كم من ورق تحيط به أوبار ونحن ننظرها ولاندرى ماحكمتها ، تشرق الشمس وتغرب ، ويطلع القمر ويأفل ، ونحن نشاهد تلك الأوراق الكاسيات بتلك الأوبار ، ولاندرى لماذا كانت هذه الأوبار أو الأشعار ، نظرت فى كتاب [جمال الطبيعة] للمورد أفبرى صفحة ١٠٩ فألفيته شرح هذا الموضوع شرحا واضحا ، فاستبان به أن الوبر أعدته العناية الإلهية ، إما ليقى النبات من شرّ هاجم من خارج النبات ، واما ليكون حافظا لما فى النبات من قوّة حيوية بها بقاؤه ونظام حياته ، فأما أوّل الأمرين فذلك :

(١) ان من النبات ما تعترضه الحيوانات السائمة فتقطع عليه حياته فيكون ذلك الوبر وقاية له .

(٢) ومنه ماتهاجمه الحشرات فيكون ذلك الوبر حصنا حصينا .

(٣) ومنه ماتحيط به الرطوبة فتكاد تهلكه لولا ذلك الوبر الكاسى للاوراق .

(٤) ومنه ماتلح عليه حرارة الشمس فيكون ظلّ تلك الأوبار حافظا النبات من البوار كما يحفظ جسم الانسان من الحر بالملابس : « وجعل لكم سرابيل تقيكم الحرّ وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون »

ولوعلم المسلم أن نعمة الملابس ليست خاصة به ، بل هناك ملابس تحفظ النبات من الهلاك ليكون نعمة له أيضا ومتاعا لحرّ صعقا ولدهش من تلك العناية التى تحير الألباب . هذا هو الأمر الأوّل .

أما الأمر الثانى فذلك أن من النبات ماينبت فى الصحراء فتلح عليه الشمس فيتطاير منه البخار ، فما الذى يحفظ حياة النبات إذن اذا حرج بالحاح الشمس بقية الرطوبة فى ذلك النبات ؟ أعدّ الله تلك الأنابيب

الشعرية الوبرية ، فهى المانعات من ذلك البخر فيعيش ذلك البات . هذه نبذة من معنى قوله تعالى هنا « تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » .

أيها المسلمون : لاحياة إلا حياة العلماء ، والجاهلون جميعا موتى ، فليكن الانسان عالما أومتعلما أومستمعا أومحبا كما فى الحديث ، وليحذر أن يكون كارها للعلم فذلك من الأخسرين ، والحمد لله رب العالمين . انتهى الكلام على الجوهرة الثانية .

الجوهرة الثالثة

فى قوله تعالى : مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد

لقد تقدم الكلام على هذه الآية فى ﴿ سورة الحجرات ﴾ وقد ذكرنا هناك عشرا من آفات اللسان من [إحياء علوم الدين] للغزالى رحمه الله ، وكذلك بعض غوائل الأعمال القلبية من كتابنا [جوهر التقوى] وأرجأنا بقية مافى الاحياء ومافى كتاب [جوهر التقوى] إلى هذا المقام هنا فى سورة ق فلنبدأ بالكلام على مافى الاحياء فنقول :

الآفة الحادية عشرة : السخرية والاستهزاء

وهذا محرّم مهما كان مؤذيا كما قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولانساء من نساء عسى أن يكنّ خيرا منهنّ » ومعنى السخرية الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه ، وقد يكون ذلك بالمحاكاة فى الفعل والقول ، وقد يكون بالاشارة والايماء ، واذا كان بحضرة المستهزأ به لم يسم ذلك غيبة ، وفيه معنى الغيبة ، قالت عائشة رضى الله عنها : (١) حاكيت انسانا فقال لى النبىّ ﷺ والله ما أحب أنى حاكيت انسانا ولى كذا وكذا ، وقال ابن عباس فى قوله تعالى : « ياويلتنا مالهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها » : ان الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمن ، والكبيرة القهقهة بذلك ، وهذا اشارة إلى أن الضحك على الناس من جملة الذنوب والكبائر ، وعن عبدالله بن زمعة (٢) أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو يخطب فوعظهم فى ضحكهم من الضرطة فقال علامَ يضحك أحدكم مما يفعل ، وقال ﷺ (٣) « إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال هلمّ هلمّ فيجىء بكربه وغمه فاذا أتاه أغلق دونه ، ثم يفتح له باب آخر فيقال هلم هلم فيجىء بكربه وغمه فاذا أتاه أغلق دونه فما يزال كذلك حتى ان الرجل ليفتح له الباب فيقال له هلم هلم فلا يأتيه » . وقال معاذ بن جبل (٤) قال النبىّ ﷺ : « من عير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمله » وكل هذا

---

(١) حديث عائشة : حكيت انسانا فقال لى النبى ﷺ مايسرّنى أنى حاكيت انسانا ولى كذا وكذا أبوداود والترمذى وصححه .

(٢) حديث عبد الله بن زمعة : وعظهم فى الضحك من الضرطة وقال علامَ يضحك أحدكم مما يفعل متفق عليه .

(٣) حديث : ان المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال هلمّ هلمّ فيجىء بكربه وغمه فاذا جاء أغلق دونه . الحديث ابن أبى الدنيا فى الصمت من حديث الحسن مرسلا وروياه فى ثمانيات الجيب من رواية أبى هدبه أحد الهالكين عن أنس .

(٤) حديث معاذ بن جبل : من عير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمله . الترمذى دون قوله قد

يرجع إلى استحقار الغير والضحك عليه استهانة به واستصغارا له ، وعليه نبه قوله تعالى : « عسى أن يكونوا خيرا منهم » أى لا تستحقره استصغارا فلعله خير منك ، وهذا إنما يحرم فى حق من يتأذى به ، فأما من جعل نفسه مسخرة وربما فرح من أن يسخر به كانت السخرية فى حقه من جملة المزاح ، وقد سبق مايذم منه وما يمدح ، وانما المحرّم استصغار يتأذى به المستهزأ به لما فيه من التحقير والتهاون ، وذلك تارة بأن يضحك على كلامه اذا تخبط فيه ولم ينتظم ، أوعلى أفعاله اذا كانت مشوسة كالضحك على خطه وعلى صنعته أوعلى صورته وخلقته اذا كان قصيرا ، أوناقصا لعيب من العيوب ، فالضحك من جميع ذلك داخل فى السخرية المنهى عنها . انتهى الكلام على الآفة الحادية عشرة ، والحمد لله رب العالمين .

الآفة الثانية عشرة : إفشاء السر

وهومنهىّ عنه لما فيه من الايذاء والتهاون بحق المعارف والأصدقاء ، قال النبىّ ﷺ (١) اذا حدث الرجل الحديث ثم التفت فهى أمانة ، وقال (٢) مطلقا (كذا) الحديث بينكم أمانة ، وقال الحسن : ان من الخيانة أن تحدث بسرّ أخيك ، ويروى أن معاوية رضى الله عنه أسرّ إلى الوليد بن عتبة حديثا فقال لأبيه يا أبت ان أمير المؤمنين أسرّ إلىّ حديثا وما أراه يطوى عنك مابسطه الى غيرك قال فلا تحدّثنى به فان من كتم سرّه كان الخيار اليه ، ومن أفشاه كان الخيار عليه ، قال فقلت يا أبت وان هذا ليدخل بين الرجل و بين ابنه فقال لا والله يابنىّ ولكن أحب أن لا تذلل لسانك بأحاديث السرّ ، قال فأتيت معاوية فأخبرته ، فقال ياوليد أعتقك أبوك من رق الخطأ فافشاء السرّ خيانة ، وهوحرام اذا كان فيه اضرار ولؤم إن لم يكن فيه اضرار وقد ذكرنا ما يتعلق بكتمان السرّ فى كتاب آداب الصحبة فأغنى عن الاعادة . انتهى الكلام على الآفة الثانية عشرة ، والحمد لله رب العالمين .

الآفة الثالثة عشرة : الوعد الكاذب

فان اللسان سباق الى الوعد ، ثم النفس ربما لا تسمح بالوفاء فيصير الوعد خلفا ، وذلك من أمارات النفاق قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » وقال ﷺ (٣) « العدة عطية » وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « الوأى مثل الدين أو أفضل » والوأى الوعد ، وقد أثنى الله تعالى على نبيه اسماعيل عليه السلام فى كتابه العزيز فقال : « انه كان صادق الوعد » قيل انه وعد انسانا فى موضع فلم يرجع إليه ذلك الانسان بل نسى فبقى اسماعيل اثنين وعشرين يوما فى انتظاره ، ولما حضرت عبد الله بن عمر

تاب منه وقال حسن غريب وليس اسناده بمتصل قال الترمذى قال أحمد بن منيع قالوا من ذنب قد تاب منه .

(١) حديث : اذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهى أمانة ، أبوداود والترمذى وحسنه من حديث جابر

(٢) حديث : الحديث بينكم أمانة ابن أبى الدنيا من حديث ابن شهاب مرسلا .

(٣) حديث : العدة عطية الطبرانى فى الأوسط من حديث قباث بن أشيم بسند ضعيف وأبونعيم فى الحلية من حديث ابن مسعود ، ورواه ابن أبى الدنيا فى الصمت والحرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث الحسن مرسلا .

(٤) حديث : الوأى مثل الدين أوأفضل ابن أبى الدنيا فى الصمت من رواية أبى طيعة مرسلا ، وقال : الوأى يعنى الوعد ، ورواه أبومنصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث علىّ بسند ضعيف .

الوفاة قال انه كان خطب الى ابنتى رجل من قريش وقد كان منى إليه شبه الوعد فوالله لا ألقى الله بثلث النفاق أشهدكم أنى زوّجته ابنتى (١) . وعن عبدالله بن أبى الحمساء قال : بايعت النبىّ ﷺ قبل أن يبعث و بقيت له بقية فواعدته أن آتيه بها فى مكانه ذلك فنسيت يومى والغد ، فأتيته اليوم الثالث وهو فى مكانه ، فقال يافتى لقدشققت علىّ أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك ، وقيل لابراهيم : الرجل يواعد الرجل الميعاد فلايجىء ؟ قال ينتظره إلى أن يدخل وقت الصلاة التى تجىء ، وكان رسول الله ﷺ (٢) اذا وعد وعدا قال عسى وكان ابن مسعود لايعد وعدا إلا و يقول ان شاء الله وهوالأولى ، ثم اذا فهم مع ذلك الجزم فى الوعد فلابدّ من الوفاء إلا أن يتعذر فان كان عند الوعد عازما على أن لايفى فهذا هو النفاق ، وقال أبوهريرة قال النبىّ صلى الله عليه وسلم (٣) « ثلاث من كنّ فيه فهومنافق وان صام وصلى وزعم أنه مسلم : اذا حدّث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا ائتمن خان » . وقال عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) « أربع من كنّ فيه كان منافقا ، ومن كانت فيه خلة منهنّ كان فيه خلة من النفاق حتى يدعها : اذا حدّث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا عاهد غدر ، واذا خاصم فجر » وهذا ينزل على من وعد وهو على عزم الخلف أوترك الوفاء من غير عذر ، فأما من عزم على الوفاء فعنّ له عذر منعه من الوفاء لم يكن منافقا وان جرى عليه ماهو صورة النفاق ، ولكن ينبغى أن يحترز من صورة النفاق أيضا كما يحترز من حقيقته ، ولاينبغى أن يجعل نفسه معذورا من غير ضرورة حاجزة فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) كان وعد أباالهيثم بن التيهان خادما فأتى بثلاثة من السبى فأعطى اثنين و بقى واحد فأتت فاطمة رضى الله عنها تطلب منه خادما وتقول ألاترى أثر الرحى بيدى فذكر موعده لأبى الهيثم فجعل يقول كيف بموعدى لأبى الهيثم ؟ فآثره به على فاطمة لما كان قد سبق بموعده له مع أنها كانت تدير الرحى بيدها الضعيفة (٦) ولقد كان صلى الله عليه وسلم جالسا يقسم غنائم هوازن بحنين فوقف عليه رجل من الناس ، فقال : ان لى عندك موعدا يارسول الله قال صدقت فاحتكم ماشئت ، فقال أحتكم ثمانين ضائنة وراعيها قال هى لك وقال احتكمت يسيرا ولصاحبة موسى التى دلته على عظام يوسف كانت أحزم منك وأجزل حكما منك حين حكمها موسى عليه

---

(١) حديث عبد الله بن أبى الحمساء : بايعت النبىّ صلى الله عليه وسلم فوعدته أن آتيه بها فى مكانه ذلك فنسيت يومى والعد فأتيته اليوم الثالث وهو فى مكانه ، فقال يابنىّ قدشققت علىّ أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك ، رواه أبوداود ، واختلف فى اسناده ، وقال ابن مهدى : ماأظن ابراهيم بن طهمان إلاأخطأ فيه .

(٢) حديث : كان اذا وعد وعدا قال عسى ، لم أجد له أصلا .

(٣) حديث أبى هريرة : ثلاث من كنّ فيه فهومنافق الحديث وفيه اذا وعد أخلف متفق عليه وقدتقدم .

(٤) حديث عبد الله ابن عمرو : أربع من كنّ فيه كان منافقا الحديث متفق عليه

(٥) حديث : كان وعد أبا الهيثم بن التيهان خادما فأتى بثلاثة من السبى فأعطى اثنين و بقى واحد فجاءت فاطمة تطلب منه الحديث وفيه فجعل يقول كيف بموعدى لأبى الهيثم فآثره به على فاطمة تقدم ذكر قصة أبى الهيثم فى آداب الأكل وهى عند الترمذى من حديث أبى هريرة وليس فيها ذكر لفاطمة .

(٦) حديث : انه كان جالسا يقسم غنائم هوازن بحنين فوقف عليه رجل فقال ان لى عندك موعدا قال صدقت فاحتكم ماشئت الحديث ، وفيه لصاحبة موسى التى دلته على عظام يوسف كانت أحزم منك الحديث ابن حبان والحاكم فى المستدرك من حديث أبى موسى مع اختلاف ، قال الحاكم صحيح الاسناد وفيه نظر .

السلام فقالت حكمى أن تردّنى شابة وأدخل معك الجنة ، قيل فكان الناس يضعفون ما احتكم به حتى جعل مثلا فقيل أشح من صاحب الثمانين والراعى ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « ليس الحلف أن يعد الرجل الرجل وفى نيته أن يفى » وفى لفظ آخر : « اذا وعد الرجل أخاه وفى نيته أن يفى فلم يجد فلا إثم عليه . انتهى الكلام على الآفة الثالثة عشرة ، والحمد لله رب العالمين .

الآفة الرابعة عشرة : الكذب فى القول واليمين

وهو من قبائح الذنوب ، وفواحش العيوب ، قال اسماعيل بن واسط : سمعت أبا بكر الصدّيق رضى الله عنه يخطب بعد وفاة رسول الله ﷺ فقال (٢) قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامى هذا عام أوّل ثم بكى وقال : إياكم والكذب فانه مع الفجور وهما فى النار ، وقال أبو أمامة (٣) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الكذب باب من أبواب النفاق » . وقال الحسن : « كان يقال : ان من النفاق اختلاف السرّ والعلانية ، والقول والعمل ، والمدخل والمخرج ، وأن الأصل الذى بنى عليه النفاق الكذب » وقال عليه السلام (٤) : « كبرت خيانة أن تحدّث أخاك حديثا هو لك به مصدّق وأنت له به كاذب » ، وقال ابن مسعود قال النبى صلى الله عليه وسلم (٥) « لا يزال العبد يكذب ويتحرّى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » (٦) ومرّ رسول الله ﷺ برجلين يتبايعان شاة ويتحالفان يقول أحدهما والله لأنقصك من كذا وكذا ويقول الآخر : والله لا أزيدك على كذا وكذا فمرّ بالشاة وقد اشتراها أحدهما فقال أوجب أحدهما بالاثم والكفارة ، وقال عليه الصلاة و السلام (٧) « الكذب ينقص الرزق » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث : ليس الحلف أن يعد الرجل الرجل ومن نيته أن يفى ، وفى لفظ آخر : اذا وعد الرجل أخاه وفى نيته أن يفى فلم يجد فلا إثم عليه ، أبو داود والترمذى وضعفه من حديث زيد بن أرقم باللفظ الثانى إلا أنهما قالا فلم يف .

(٢) حديث أبى بكر الصدّيق : قام فينا رسول الله ﷺ مقامى هذا عام أوّل ثم بكى وقال إياكم والكذب الحديث ابن ماجه والنسائى فى اليوم والليلة وجعله المصنف من رواية اسماعيل بن أوسط عن أبى بكر ، وانما هو أوسط بن اسماعيل بن أوسط واسناده حسن .

(٣) حديث أبى أمامة : ان الكذب باب من أبواب النفاق ، ابن عدى فى الكامل بسند ضعيف وفيه عمر بن موسى الوجيهى ضعيف جدا ، ويغنى عنه قوله ﷺ : ثلاث من كنّ فيه فهو منافق وحديث أربع من كنّ فيه كان منافقا قال فى كل منهما واذا حدث كذب وهما فى الصحيحين وقد تقدما فى الآفة التى قبلها

(٤) حديث : كبرت خيانة أن تحدّث أخاك حديثا هو لك به مصدّق وأنت له كاذب ، البخارى فى كتاب الأدب المفرد وأبو داود من حديث سفيان بن أسيد وضعفه ابن عدى ورواه أحمد والطبرانى من حديث النواس بن سمعان باسناد جيد

(٥) حديث ابن مسعود : لا يزال العبد يكذب حتى يكتب عند الله كذابا ، متفق عليه

(٦) حديث : مرّ برجلين يتبايعان شاة ويتحالفان الحديث وفيه فقال أوجب أحدهما بالاثم والكفارة أبو الفتح الأزدى فى كتاب الأسماء المفردة من حديث ناسخ الحضرمى ، وهكذا رويناه فى أمالى ابن سمعون ، وناسخ ذكره البخارى هكذا فى التاريخ ، وقال أبو حاتم هو عبد الله بن ناسخ .

(٧) حديث : الكذب ينقص الرزق ، أبو الشيخ فى طبقات الأصبهانيين من حديث أبى هريرة ورويناه

(١) « إن التجار هم الفجار فقيل يارسول الله أليس قد أحلّ الله البيع قال نعم ولكنهم يحلفون فيأثمون ، ويحدثون فيكذبون . وقال صلى الله عليه وسلم (٢) : « ثلاثة نفر لايكلمهم الله يوم القيامة ولاينظر إليهم : المنان بعطيته ، والمنفق سلعته بالحلف الفاجر والمسبل إزاره ، وقال ﷺ (٣) « ماحلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة إلا كانت نكتة فى قلبه إلى يوم القيامة » وقال أبوذرّ الغفارى (٤) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاثة يحبهم الله : رجل كان فى فئة فنصب نحره حتى يقتل أو يفتح الله عليه وعلى أصحابه ، ورجل كان له جار سوء يؤذيه فصبر على أذاه حتى يفرق بينهما موت أوظعن ، ورجل كان معه قوم فى سفر أوسرية فأطالوا السرى حتى أعجبهم أن يمسوا الأرض فنزلوا فتنحى يصلى حتى يوقظ أصحابه للرحيل ، وثلاثة يشنؤهم الله : التاجر ، أوالبياع الحلاف ، والفقير المختال ، والبخيل المنان . وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « ويل للذى يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له » . وقال ﷺ (٦) رأيت كأن رجلا جاءنى فقال لى قم فقمت معه فاذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس ، بيد القائم كلوب من حديد يلقمه فى شدق الجالس فيجذبه حتى يبلغ كاهله ثم يجذبه فيلقمه الجانب الآخر فيمدّه فاذا مدّه رجع الآخر كما كان فقلت للذى أقامنى ماهذا ؟ فقال هذا رجل كذاب يعذب فى قبره إلى يوم القيامة ، وعن عبد الله بن جراد قال (٧) سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله : هل يزنى المؤمن ؟ قال قد يكون ذلك ، قلت يانبىّ الله هل يكذب المؤمن ؟ قال لا ، ثم أتبعها ﷺ بقول الله تعالى : إنما يفترى الكذب الذين لايؤمنون بآيات الله ، وقال أبوسعيد الخدرىّ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم (٨) يدعو فيقول فى دعائه : اللهم طهر قلبى من النفاق ،

كذلك فى مشيخة القاضى أبى بكر واسناده ضعيف .

(١) حديث : ان التجار هم الفجار الحديث ، وفيه ويحدثون فيكذبون أحمد والحاكم وقال صحيح الاسناد والبيهقى من حديث عبد الرحمن بن شبل .

(٢) حديث : ثلاثة نفر لا يكلمهم الله يوم القيامة ولاينظر اليهم : المنان بعطيته ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب ، والمسبل إزاره ، مسلم من حديث أبى ذرّ .

(٣) حديث : ماحلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة إلا كانت نكتة فى قلبه الى يوم القيامة الترمذى والحاكم وصحح اسناده من حديث عبدالله بن أنيس .

(٤) حديث أبى ذر : ثلاثة يحبهم الله الحديث ، وفيه ثلاثة يشنؤهم الله : التاجر أوالبائع الحلاف أحمد واللفظ له وفيه ابن الأحمس ولايعرف حاله ورواه هو والنسائى بلفظ آخر باسناد جيد ، وللنسائى من حديث أبى هريرة أربعة يبغضهم الله : البياع الحلاف الحديث واسناده جيد .

(٥) حديث : ويل للذى يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له ، أبوداود والترمذى وحسنه والنسائى فى الكبرى من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده .

(٦) حديث : رأيت كأن رجلا جاءنى فقال لى قم فقمت معه فاذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس بيد القائم كلوب من حديد يلقمه فى شدق الجالس الحديث : البخارى من حديث سمرة بن جندب فى حديث : طويل .

(٧) حديث عبد الله بن جراد أنه سأل النبىّ ﷺ هل يزنى المؤمن ؟ قال قد يكون ذلك ، قال هل يكذب ؟ قال لا ، الحديث ابن عبد البرّ فى التمهيد بسند ضعيف ، ورواه ابن أبى الدنيا فى الصمت مقتصرا على الكذب ، وجعل السائل أباالدرداء .

(٨) حديث أبى سعيد : اللهم طهر قلبى من النفاق ، وفرجى من الزنا ، ولسانى من الكذب ، هكذا وقع

وفرجي من الزنا ، ولساني من الكذب . وقال صلى الله عليه وسلم (١) ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر . وقال عبد الله بن عامر (٢) جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيتنا وأنا صبيّ صغير ، فذهبت لألعب ، فقالت أمي : يا عبدالله تعال حتى أعطيك فقال صلى الله عليه وسلم وما أردت أن تعطيه ؟ قالت تمرا ، فقال : أما انك لو لم تفعلي لكتبت عليك كذبة . وقال صلى الله عليه وسلم (٣) لو أفاء الله عليّ نعما عدد هذا الحصى لقسمتها بينكم ثم لا تجدوني بخيلا ولا كذابا ولا جبانا ، وقال صلى الله عليه وسلم وكان متكئا (٤) ألا أنبئكم بأكبر الكبائر : الاشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، ثم قعد وقال ألا وقول الزور . وقال ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) : « إن العبد ليكذب الكذبة فيتباعد الملك عنه مسيرة ميل من نتن ماجاء به . وقال أنس (٦) قال النبيّ ﷺ « تقبلوا إليّ بست أتقبل لكم بالجنة فقالوا وماهنّ ؟ قال اذا حدّث أحدكم فلا يكذب ، واذا وعد فلا يخلف ، واذا أؤتمن فلا يخن ، وغضوا أبصاركم ، واحفظوا فروجكم ، وكفوا أيديكم . وقال صلى الله عليه وسلم (٧) إن للشيطان كحلا ولعوقا ونشوقا : أما لعوقه فالكذب ، وأما نشوقه فالغضب ، وأما كحله فالنوم . وخطب عمر رضى الله عنه يوما فقال (٨) : قام فينا رسول الله ﷺ كمقامي هذا فيكم فقال : أحسنوا إلى أصحابي ثم الذين يلونهم ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل على اليمين ولم يستحلف و يشهد ولم يستشهد . وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم (٩) « من حدّث عني بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين » . وقال صلى الله عليه وسلم

فى نسخ الاحياء عن ابن سعيد ، وانما هو عن أم معبد ، كذا رواه الخطيب فى التاريخ دون قوله وفرجي من الزنا ، وزاد : وعملي من الرياء ، وعيني من الخيانة ، واسناده ضعيف .

(١) حديث : ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم الحديث وفيه : والامام الكذاب ، مسلم من حديث أبى هريرة

(٢) حديث عبدالله بن عامر جاء رسول الله ﷺ إلى بيتنا وأنا صبيّ صغير فذهبت لألعب فقالت أمى يا عبد الله تعال أعطيك ، فقال وما أردت أن تعطيه ؟ قالت تمرا ، فقال : ان لم تفعلى كتبت عليك كذبة ، رواه أبوداود ، وفيه من لم يسم ، وقال الحاكم : إن عبد الله بن عامر ولد فى حياته صلى الله عليه وسلم ولم يسمع منه ، قلت : وله شاهد من حديث أبى هريرة وابن مسعود ورجالهما ثقات إلا أن الزهرى لم يسمع من أبى هريرة .

(٣) حديث : لو أفاء الله عليّ نعما عدد هذا الحصى لقسمتها بينكم ثم لا تجدوني بخيلا ولا كذابا ولا جبانا رواه مسلم وتقدّم فى أخلاق النبوّة .

(٤) حديث : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر الحديث ، وفيه ألا وقول الزور متفق عليه من حديث أبى بكرة

(٥) حديث ابن عمر : ان العبد ليكذب الكذبة فيتباعد الملك عنه مسيرة ميل من نتن ماجاء به ، الترمذى وقال حسن غريب

(٦) حديث أنس : تقبلوا الىّ بست أتقبل لكم بالجنة اذا حدّث أحدكم فلا يكذب ، الحديث الحاكم فى المستدرك والخرائطى فى مكارم الأخلاق وفيه سعد بن سنان ضعفه أحمد والنسائى ووثقه ابن معين ورواه الحاكم بنحوه من حديث عبادة بن الصامت وقال صحيح الاسناد

(٧) حديث : ان للشيطان كحلا ولعوقا الحديث الطبرانى وابو نعيم من حديث أنس بسند ضعيف وقد تقدم

(٨) حديث : خطب عمر بالجابية الحديث وفيه ثم يفشو الكذب الترمذى وصححه والنسائى فى الكبرى من رواية ابن عمر عن عمر

(٩) حديث : من حدّث بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين ، مسلم فى مقدمة صحيحه من حديث سمرة بن جندب .

---

(١) « من حلف على يمين بإثم ليقتطع بها مال امرئ مسلم بغير حق لقي الله عزوجل وهو عليه غضبان » . وروى عن النبي ﷺ (٢) أنه ردّ شهادة رجل فى كذبة كذبها وقال ﷺ (٣) « كل خصلة يطبع أو يطوى عليها المسلم إلا الخيانة والكذب » . وقالت عائشة رضى الله عنها (٤) : ما كان من خلق أشدّ على أصحاب رسول الله ﷺ من الكذب ، ولقد كان رسول الله ﷺ يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب فما ينجلى من صدره حتى يعلم انه قد أحدث توبة لله عزّوجل منها . وقال موسى عليه السلام : يارب أىّ عبادك خير لك عملا ؟ قال من لا يكذب لسانه ، ولا يفجر قلبه ، ولا يزنى فرجه . وقال لقمان لابنه : يابنىّ إياك والكذب فانه شهىّ كلحم العصفور عما قليل يقلاه صاحبه . وقال عليه السلام فى مدح الصدق (٥) : أربع اذا كنّ فيك فلا يضرّك ما فاتك من الدنيا : صدق الحديث ، وحفظ الأمانة ، وحسن الخلق ، وعفة طعمة . وقال أبو بكر رضى الله عنه (٦) فى خطبة بعد وفاة رسول الله ﷺ قام فينا رسول الله ﷺ مثل مقامى هذا عام أوّل ثم بكى وقال عليكم بالصدق فانه مع البرّ وهما فى الجنة . وقال معاذ قال لى ﷺ (٧) أوصيك بتقوى الله ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، والوفاء بالعهد ، وبذل السلام ، وخفض الجناح .

[وأما الآثار] فقد قال علىّ رضى الله عنه : أعظم الخطايا عند الله اللسان الكذوب ، وشرّ الندامة ندامة يوم القيامة . وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه : ما كذبت كذبة منذ شددت علىّ إزارى . وقال عمر رضى الله عنه : أحبكم إلينا مالم تركم أحسنكم اسما ، فاذا رأيناكم فأحبكم إلينا أحسنكم خلقا ، فاذا اختبرناكم فأحبكم إلينا أصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة . وعن ميمون بن أبى شبيب قال : جلست أكتب كتابا فأتيت على حرف ان أنا كتبته زينت الكتاب ، وكنت قد كذبت عزمت على تركه فعزمت من جانب البيت « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » . وقال الشعبى : ما أدرى أيهما أبعد

(١) حديث : من حلف على يمين مأثم ليقتطع بها مال امرئ مسلم ، الحديث متفق عليه من حديث ابن مسعود .

(٢) حديث : انه ردّ شهادة رجل فى كذبة كذبها ابن أبى الدنيا فى الصمت من رواية موسى بن شيبة مرسلا ، وموسى روى معمر عنه مناكير قاله أحمد بن حنبل .

(٣) حديث : كل خصلة يطبع أو يطوى عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب ، ابن أبى شيبة فى المصنف من حديث أبى أمامة ورواه ابن عدى فى مقدمة الكامل من حديث سعد بن أبى وقاص وابن عمر أيضا وأبى أمامة أيضا ورواه ابن أبى الدنيا فى الصمت من حديث سعد مرفوعا وموقوفا والموقوف أشبه بالصواب ، قاله الدارقطنى فى العلل .

(٤) حديث : ما كان من خلق الله شىء أشدّ عند أصحاب رسول الله ﷺ من الكذب ، ولقد كان يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب فما ينحل من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث لله منها توبة أحمد من حديث عائشة ورجاله ثقات إلا أنه قال عن ابن أبى مليكة أوغيره ، وقد رواه أبو الشيخ فى الطبقات فقال ابن أبى مليكة ولم يشك وهو صحيح .

(٥) حديث : أربع اذا كنّ فيك فلا يضرّك ما فاتك من الدنيا : صدق الحديث ، الحديث الحاكم والحرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث عبد الله بن عمرو وفيه ابن لهيعة .

(٦) حديث أبى بكر : عليكم بالصدق فانه مع البرّ وهما فى الجنة ، ابن ماجه والنسائى فى اليوم والليلة ، وقد تقدّم بعضه فى أوّل هذا النوع .

(٧) حديث معاذ : أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث أبو نعيم فى الحلية وقد تقدّم .

غورا فى النار الكذاب أو البخيل ؟ وقال ابن السماك : ما أرانى أوجر على ترك الكذب لأنى انما أدعه أنفة . وقيل لخالد بن صبيح : أيسمى الرجل كاذبا بكذبة واحدة ؟ قال نعم . وقال مالك بن دينار : قرأت فى بعض الكتب : مامن خطيب إلا وتعرض خطبته على عمله ، فان كان صادقا صدّق ، وان كان كاذبا قرضت شفتاه بمقاريض من نار كلما قرضتا نبتتا . وقال مالك بن دينار : الصدق والكذب يعتركان فى القلب حتى يخرج أحدهما صاحبه . وكلم عمر بن عبد العزيز الوليد بن عبد الملك فى شىء ، فقال له كذبت ، فقال عمر والله ما كذبت منذ علمت أن الكذب يشين صاحبه .

بيان ما رخص فيه من الكذب

اعلم أن الكذب ليس حراما لعينه لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره فان أقلّ درجاته أن يعتقد المخبر الشىء على خلاف ماهو عليه فيكون جاهلا ، وقد يتعلق به ضرر غيره ، ورب جهل فيه منفعة ومصلحة فالكذب محصل لذلك الجهل فيكون مأذونا فيه ، وربما كان واجبا . قال ميمون بن مهران : الكذب فى بعض المواطن خير من الصدق ، أرأيت لو أن رجلا سعى خلف انسان بالسيف ليقتله فدخل دارا فانتهى اليك فقال أرأيت فلانا ؟ ما كنت قائلا ؟ ألست تقول لم أره وماتصدق به ، وهذا الكذب واجب .

فنقول : الكلام وسيلة إلى المقاصد ، فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعا ، فالكذب فيه حرام وان أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح ان كان تحصيل ذلك القصد مباحا ، وواجب ان كان المقصود واجبا ، كما أن عصمة دم المسلم واجبة ، فهما كان فى الصدق سفك دم امرئ مسلم قداختفى من ظالم فالكذب فيه واجب ، ومهما كان لايتم مقصود الحرب أواصلاح ذات البين أواستمالة قلب المجنى عليه إلا بكذب فالكذب مباح إلا أنه ينبغى أن يحترز منه ما أمكن ، لأنه اذا فتح باب الكذب على نفسه فيخشى أن يتداعى إلى مايستغنى عنه والى مالايقتصر على حدّ الضرورة فيكون الكذب حراما فى الأصل إلا لضرورة ، والذى يدل على الاستثناء ماروى عن أم كلثوم قالت [1] ماسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرخص فى شىء من الكذب إلا فى ثلاث : الرجل يقول القول يريد به الاصلاح ، والرجل يقول القول فى الحرب ، والرجل يحدّث امرأته ، والمرأة تحدّث زوجها . وقالت أيضا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] : « ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا أونمى خيرا » . وقالت أسماء بنت يزيد [3] قال رسول الله ﷺ « كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب بين مسلمين ليصلح بينهما » وروى عن أبى كاهل [4] قال : وقع بين اثنين من أصحاب النبىّ ﷺ كلام حتى تصارما فلقيت أحدهما فقلت : مالك ولفلان ؟ فقد سمعته يحسن عليك الثناء ، ثم لقيت الآخر فقلت له مثل ذلك حتى اصطلحا ، ثم قلت : أهلكت نفسى وأصلحت بين هذين ، فأخبرت النبىّ ﷺ فقال يا أبا كاهل أصلح بين الناس

(١) حديث أم كلثوم : ماسمعته يرخص فى شىء من الكذب إلا فى ثلاث ، مسلم وقدتقدم .

(٢) حديث أم كلثوم أيضا : ليس بكذاب من أصلح بين الناس ، الحديث متفق عليه وقد تقدم والذى قبله عند مسلم بعض هذا .

(٣) حديث أسماء بنت يزيد : كل الكذب كتب على ابن آدم إلا رجل كذب بين رجلين يصلح بينهما أجد بزيادة فيه ، وهوعند الترمذى مختصرا وحسنه .

(٤) حديث أبى كاهل : وقع بين رجلين من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم كلام الحديث وفيه : ياأبا كاهل أصلح بين الناس ، رواه الطبرانى ولم يصح .

أى ولو بالكذب . وقال عطاء بن يسار (١) قال رجل للنبيّ صلى الله عليه وسلم : أكذب على أهلى ؟ قال لاخير فى الكذب ، قال أعدها وأقول لها ؟ قال لاجناح عليك . وروى أن ابن أبى عذرة الدؤلى وكان فى خلافة عمر رضى الله عنه كان يخلع النساء اللاتى يتزوّج بهنّ ، فطارت له فى الناس من ذلك أحدوثة يكرهها فلما علم بذلك أخذ بيد عبدالله بن الأرقم حتى أتى به إلى منزله ، ثم قال لامرأته : أنشدك بالله هل تبغضينى ؟ قالت لاتنشدنى ، قال فانى أنشدك الله ، قالت نعم ، فقال لابن الأرقم أتسمع ؟ ثم انطلقا حتى أتيا عمر رضى الله عنه ، فقال : إنكم لتحدّثون أنى أظلم النساء وأخلعهنّ فاسأل ابن الأرقم فسأله فأخبره فأرسل الى امرأة ابن أبى عذرة فجاءت هى وعمتها ، فقال : أنت التى تحدثين لزوجك أنك تبغضينه ؟ فقالت : إنى أوّل من تاب وراجع أمر الله تعالى انه ناشدنى فتحرجت أن أكذب أفأكذب يا أمير المؤمنين ؟ قل نعم فاكذبى ، فان كانت إحداكنّ لاتحبّ أحدنا فلاتحدّثه بذلك ، فان أقلّ البيوت الذى يبنى على الحب ولكن الناس يتعاشرون بالاسلام والأحساب وعن النواس (٢) بن سمعان الكلابى قال قال رسول الله ﷺ « مالى أراكم تتهافتون فى الكذب تهافت الفراش فى النار ، كل الكذب يكتب على ابن آدم لامحالة إلا أن يكذب الرجل فى الحرب فان الحرب خدعة ، أو يكون بين الرجلين شحناء فيصلح بينهما ، أو يحدث امرأته يرضيها » . وقال ثوبان « الكذب كله إثم إلا مانفع به مسلما ، أودفع عنه ضررا » ، وقال علىّ رضى الله عنه : إذا حدّثتكم عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فلأن أخرّ من السماء أحبّ الىّ من أن أكذب عليه ، واذا حدّثتكم فيما بينى و بينكم فالحرب خدعة » فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء ، وفى معناها ماعداها اذا ارتبط به مقصود صحيح له أولغيره . أما ماله فمثل أن يأخذه ظالم و يسأله عن ماله فله أن ينكره ، أو يأخذه سلطان فيسأله عن فاحشة بينه و بين الله تعالى ارتكبها فله أن ينكر ذلك فيقول مازنيت وماسرقت ، وقد صلى الله عليه وسلم (٣) « من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فليستتر بستر الله » وذلك أن اظهار الفاحشة فاحشة أخرى ، فللرجل أن يحفظ دمه وماله الذى يؤخذ ظلما ، وعرضه بلسانه وان كان كاذبا . وأما عرض غيره فبأن يسأل عن سرّ أخيه فله أن ينكره ، وأن يصلح بين اثنين ، وأن يصلح بين الضرّات من نسائه بأن يظهر لكل واحدة أنها أحبّ إليه ، وان كانت امرأته لاتطاوعه إلا بوعد لايقدر عليه فيعدها فى الحال تطييبا لقلبها ، أو يعتذر الى انسان وكان لايطيب قلبه إلا بانكار ذنب وزيادة تودّد فلابأس به ، ولكن الحدّ فيه أن الكذب محذور ، ولوصدق فى هذه المواضع تولد منه محذور فينبغى أن يقابل أحدهما بالآخر ويزن بالميزان القسط ، فاذا علم أن المحذور الذى يحصل بالصدق أشدّ وقعا فى الشرع من الكذب فله الكذب ، وان كان ذلك المقصود أهون من مقصود الصدق فيجب الصدق ، وقد يتقابل الأمران بحيث يتردّد فيهما ، وعند ذلك

---

(١) حديث عطاء بن يسار قال رجل للنبيّ صلى الله عليه وسلم أكذب على أهلى ؟ قال لاخير فى الكذب قال أعدها وأقول لها ؟ قال لاجناح عليك ، ابن عبد البرّ فى التمهيد من رواية صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار مرسلا ، وهو فى الموطأ عن صفوان بن سليم بعضلا من غير ذكر عطاء بن يسار

(٢) حديث النوّاس بن سمعان : مالى أراكم تتهافتون فى الكذب تهافت الفراش فى النار كل الكذب مكتوب ، الحديث أبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق بلفظ تتبايعون إلى قوله فى النار دون مابعده فرواه الطبرانى وفيهما شهر بن حوشب .

(٣) حديث : من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فليستتر بستر الله ، الحاكم من حديث ابن عمر بلفظ : اجتنبوا هذه القاذورات التى نهى الله عنها . فمن ألمّ بشىء منها فليستتر بستر الله ، واسناده حسن .

الميل إلى الصدق أولى ، لأن الكذب يباح لضرورة أوحاجة مهمة ، فان شك فى كون الحاجة مهمة فالأصل التحريم فيرجع إليه ، ولأجل غموض إدراك مراتب المقاصد ينبغى أن يحترز الانسان من الكذب ما أمكنه وكذلك مهما كانت الحاجة له ، فيستحب له أن يترك أغراضه ويهجر الكذب ، فأما اذا تعلق بغرض غيره فلايجوز المسامحة لحق الغير والاضرار به ، وأكثر كذب الناس إنما هولحظوظ أنفسهم ، ثم هو لزيادات المال والجاه ، ولأمور ليس فواتها محذورا ، حتى ان المرأة لتحكى عن زوجها ماتفخر به ، وتكذب لأجل مراغمة الضرّات ، وذلك حرام ، وقالت أسماء (١) : سمعت امرأة سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : إن لى ضرّة ، وانى أتكثر من زوجى بما لم يفعل أضارّها بذلك فهل علىّ شىء فيه ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبى زور ، وقال صلى الله عليه وسلم (٢) من تطعم بما لايطعم ، أوقال لى وليس له أوأعطيت ولم يعط فهو كلابس ثوبى زور يوم القيامة . ويدخل فى هذا فتوى العالم بما لايتحققه وروايته الحديث الذى لايتثبته إذ غرضه أن يظهر فضل نفسه ، فهولذلك يستنكف من أن يقول لاأدرى وهذا حرام . ومما يلتحق بالنساء الصبيان ، فان الصبى اذا كان لايرغب فى المكتب إلابوعد أو وعيد ، أوتخويف كاذب كان ذلك مباحا ، نعم روينا فى الأخبارأن ذلك يكتب كذبا ، ولكن الكذب المباح أيضا قد يكتب ويحاسب عليه ويطالب بتصحيح قصده فيه ، ثم يعفى عنه ، لأنه إنما أبيح بقصد الاصلاح ، ويتطرّق إليه غرور كثير فانه قد يكون الباعث له حظه وغرضه الذى هومستغن عنه ، وانما يتعلل ظاهرا بالاصلاح ، فلهذا يكتب ، وكل من أتى بكذبة فقد وقع فى خطر الاجتهاد ليعلم أن المقصود الذى كذب لأجله هل هوأهمّ فى الشرع من الصدق أم لا ؟ وذلك غامض جدا ، والحزم تركه إلا أن يصير واجبا بحيث لايجوز تركه كما لوأدّى إلى سفك دم ، أوارتكاب معصية كيف كان ، وقد ظن ظانون أنه يجوز وضع الأحاديث فى فضائل الأعمال ، وفى التشديد فى المعاصى ، وزعموا أن القصد منه صحيح ، وهو خطأ محض إذقال صلى الله عليه وسلم (٣) : « من كذب علىّ متعمدا فليتبوّأ مقعده من النار » وهذا لايرتكب إلالضرورة ولاضرورة إذ فى الصدق مندوحة عن الكذب ، ففيما ورد من الآيات والأخبار كفاية عن غيرها ، وقول القائل : إن ذلك قد تكرّر على الأسماع ، وسقط وقعه ، وماهو جديد فوقعه أعظم ، فهذا هوس ، إذ ليس هذا من الأغراض التى تقاوم محذور الكذب على رسول الله ﷺ وعلى الله تعالى ، ويؤدّى فتح بابه إلى أمور تشوّش الشريعة ، فلايقاوم خير هذا شرّه أصلا ، والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر التى لايقاومها شىء . نسأل الله العفو عنا وعن جميع المسلمين .

بيان الحذر من الكذب بالمعاريض

قد نقل عن السلف أن فى المعاريض مندوحة عن الكذب . قال عمر رضى الله عنه : أما فى المعاريض مايكفى الرجل عن الكذب ، وروى ذلك عن ابن عباس وغيره ، وانما أرادوا بذلك اذا اضطر الانسان الى الكذب ، فأما اذا لم تكن حاجة وضرورة فلايجوز التعريض ولاالتصريح جميعا ، ولكن التعريض أهون .

(١) حديث أسماء : قالت امرأة إن لى ضرّة وانى أتكثر من زوجى بما لم يفعل ، الحديث متفق عليه ، وهى أسماء بنت أبى بكر الصدّيق .

(٢) حديث : من تطعم بما لايطعم ، وقال لى وليس له ، وأعطيت ولم يعط كان كلابس ثوبى زور يوم القيامة ، لم أجده بهذا اللفظ .

(٣) حديث : من كذب علىّ متعمدا فليتبوّأ مقعده من النار ، متفق عليه من طرق ، وقد تقدم فى العلم .

ومثال التعريض ماروى أن مطرّفا دخل على زياد فاستبطأه فتعلل بمرض ، وقال مارفعت جنبي مذ فارقت الأمير إلا مارفعني الله . وقال ابراهيم : اذا بلغ الرجل عنك شيء فكرهت أن تكذب : فقل ان الله تعالى ليعلم ماقلت من ذلك من شيء : فيكون قوله ما حرف نفي عند المستمع وعنده للإبهام ، وكان معاذ بن جبل عاملا لعمر رضي الله عنه فلما رجع قالت له امرأته ماجئت به مما يأتي به العمال الى أهلهم ، وما كان قد أتاها بشيء : فقال كان عندي ضاغط . قالت كنت أمينا عند رسول الله ﷺ وعند أبي بكر رضي الله عنه فبعث عمر معك ضاغطا وقامت بذلك بين نسائها واشتكت عمر فلما بلغه ذلك دعا معاذا ، وقال بعثت معك ضاغطا . قال لم أجد ما أعتذر به اليها إلا ذلك ، فضحك عمر رضي الله عنه وأعطاه شيئا : فقال أرضها به . ومعنى قوله ضاغطا يعني رقيبا ، وأراد به الله تعالى ، وكان النخعي لايقول لابنته أشترى لك سكرا بل يقول أرأيت لو اشتريت لك سكرا فانه ربما لايتفق له ذلك ، وكان ابراهيم اذا طلبه من يكره أن يخرج اليه وهو في الدار قال للجارية قولي له اطلبه في المسجد ولا تقولي ليس ههنا كيلا يكون كذبا ، وكان الشعبي اذا طلب في المنزل وهو يكرهه خط دائرة وقال للجارية ضعي الأصبع فيها وقولي ليس ههنا ، وهذا كله في موضع الحاجة . فأما في غير موضع الحاجة فلا لأن هذا تفهيم للكذب ، وان لم يكن اللفظ كذبا فهو مكروه على الجملة كما روى عبد الله بن عتبة . قال دخلت مع أبي على عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه فخرجت وعليّ ثوب فجعل الناس يقولون هذا كساكه أمير المؤمنين ، فكنت أقول جزى الله أمير المؤمنين خيرا . فقال لي أبي يابنيّ اتق الكذب وما أشبهه ، فنهاه عن ذلك لأن فيه تقريرا لهم على ظن كاذب لأجل غرض المفاخرة وهذا عرض باطل لافائدة فيه ، نعم المعاريض تباح لغرض خفيف كتطييب قلب الغير بالمزاح . كقوله ﷺ : « (١) لايدخل الجنة عجوز » ، وقوله للأخرى : « الذي في عين زوجك بياض » ، وللأخرى : « نحملك على ولد البعير » : وما أشبهه . وأما الكذب الصريح كما فعله نعيمان الأنصاري مع عثمان في قصة الضرير . إذ قال له أنه نعيمان ، وكما يعتاده الناس من ملاعبة الحق بتغريرهم بأن امرأة قد رغبت في تزويجك فان كان فيه ضرر يؤدّي الى إيذاء قلب فهو حرام ، وان لم يكن إلا لمطايبته فلا يوصف صاحبها بالفسق ، ولكن ينقص ذلك من درجة إيمانه . قال ﷺ : « (٢) لايكمل للمرء الايمان حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه ، وحتى يجتنب الكذب في مزاحه » ، وأما قوله عليه السلام « (٣) ان الرجل ليتكلم بالكلمة ليضحك بها الناس يهوى بها في النار أبعد من الثريا » أراد به مافيه غيبة مسلم أو إيذاء قلب دون محض المزاح ، ومن الكذب الذي لايوجب الفسق ماجرت به العادة في المبالغة ، كقوله طلبتك كذا وكذا مرة : وقلت لك كذا مائة مرة فانه لايريد به تفهيم المرّات بعددها . بل تفهيم المبالغة فان لم يكن طلبه إلا

---

(١) حديث : لايدخل الجنة عجوز ، وحديث : في عين زوجك بياض ، وحديث : نحملك على ولد البعير تقدمت الثلاثة في الآفة العاشرة .

(٢) حديث : لايستكمل المؤمن ايمانه حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه ، وحتى يجتنب الكذب في مزاحه ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب من حديث أبي مليكة الدماري وقال فيه نظر ، وللشيخين من حديث أنس : لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه وللدارقطني في المؤتلف والمختلف من حديث أبي هريرة : لايؤمن عبد الايمان كله حتى يترك الكذب في مزاحه ، قال أحمد بن حنبل منكر .

(٣) حديث : ان الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها الناس يهوى بها أبعد من الثريا ، تقدم في الآفة الثالثة .

مرة واحدة كان كاذبا ، وان كان طلبه مرات لا يعتاد مثله فى الكثرة لا يأثم ، وان لم تبلغ مائة و بينهما درجات يتعرّض مطلق اللسان بالمبالغة فيها لخطر الكذب ، ومما يعتاد الكذب فيه و يتساهل به أن يقال : كل الطعام فيقول لا أشتهيه ، وذلك منهىّ عنه وهو حرام ، وان لم يكن فيه غرض صحيح . قال مجاهد (١) قالت أسماء بنت عميس : « كنت صاحبة عائشة فى الليلة التى هيأتها وأدخلتها على رسول الله ﷺ ، ومعى نسوة . قالت فوالله ماوجدنا عنده قرى إلا قدحا من لبن . فشرب ثم ناوله عائشة . قالت فاستحيت الجارية . فقلت لاتردّى يد رسول الله ﷺ خذى منه . قالت فأخذت منه على حياء فشربت منه ثم قال ناولى صواحبك فقلن لانشتهيه . فقال لاتجمعن جوعا وكذبا . قالت فقلت يارسول الله : ان قالت إحدانا لشىء تشتهيه لاأشتهيه أيعدّ ذلك كذبا ؟ قال إن الكذب ليكتب كذبا حتى تكتب الكذيبة كذيبة » ، وقد كان أهل الورع يحترزون عن التسامح بمثل هذا الكذب . قال الليث بن سعد كانت عينا سعيد بن المسيب ترمص حتى يبلغ الرمص خارج عينيه . فيقال له لو مسحت عينيك . فيقول وأين قول الطبيب : لاتمس عينيك . فأقول لا أفعل ، وهذه مراقبة أهل الورع ، ومن تركه انسلّ لسانه فى الكذب عن حدّ اختياره فيكذب ولا يشعر . وعن خوات التيمى . قال جاءت أخت الربيع بن خثيم عائدة لابن له فانكبت عليه . فقالت كيف أنت يابنىّ خلس الربيع . وقال أرضعتيه ؟ قالت لا . قال ماعليك لو قلت ياابن أخى فصدقت ، ومن العادة أن يقول يعلم الله فيما لايعلمه . قال عيسى عليه السلام : ان من أعظم الذنوب عند الله أن يقول العبد ان الله يعلم لما لا يعلم وربما يكذب فى حكاية المنام ، والاثم فيه عظيم . إذ قال عليه السلام « (٢) ان من أعظم الفرية أن يدعى الرجل الى غير أبيه أو يرى عينيه فى المنام مالم يرأو يقول علىّ مالم أقل » ، وقال عليه السلام « (٣) من كذب فى حلم كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين ، وليس بعاقد بينهما أبدا » .

الآفة الخامسة عشرة ، الغيبة والنظر فيها طويل

فلنذكر أوّلا مذمة الغيبة وماورد فيها من شواهد الشرع ، وقد نص الله سبحانه على ذمها فى كتابه وشبه صاحبها باكل لحم الميتة . فقال تعالى : ـ ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ـ ، وقال عليه السلام « (٤) كلّ المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » ، والغيبة

---

(١) حديث : مجاهد عن أسماء بنت عميس كنت صاحبة عائشة التى هيأتها وأدخلتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث : وفيه . قال لاتجمعن جوعا وكذبا ، ابن أبى الدنيا فى الصمت والطبرانى فى الكبير ، وله ونحوه من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد ، وهو الصواب فان أسماء بنت عميس كانت إذ ذاك بالحبشة ، لكن فى طبقات الاصبهانيين لأبى الشيخ من رواية عطاء بن أبى رباح عن أسماء بنت عميس زففنا إلى النبى صلى الله عليه وسلم بعض نسائه الحديث ، فاذا كانت غير عائشة ممن تزوّجها بعد خيبر فلا مانع من ذلك .

(٢) حديث : ان من أعظم الفرى أن يدعى الرجل إلى غير أبيه أو يرى عينيه فى المنام مالم ترياأو يقول علىّ ماء أقل ، البخارى : من حديث واثلة بن الأسقع وله من حديث ابن عمر من أفرى الفرى أن يرى عينيه مالم ترياً .

(٣) حديث : من كذب فى حلمه كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين ، البخارى من حديث ابن عباس .

(٤) حديث : كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه ، مسلم من حديث أبى هريرة .

تتناول العرض ، وقد جمع الله بينه و بين المال والدم . وقال أبو برزة . قال عليه السلام « (١) لاتحاسدوا ولا تباغضوا ولا تناجشوا ولا تدابروا ولا يغتب بعضكم بعضا ، وكونوا عباد الله إخوانا » ، وعن جابر وأبى سعيد « (٢) قالا . قال رسول الله ﷺ إياكم والغيبة فان الغيبة أشد من الزنا : فان الرجل قد يزنى و يتوب فيتوب الله سبحانه عليه ، وان صاحب الغيبة لايغفر له حتى يغفر له صاحبه » ، وقال أنس (٣) قال رسول الله ﷺ « مررت ليلة أسرى بى على أقوام يخمشون وجوههم بأظافيرهم . فقلت ياجبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء الذين يغتابون الناس و يقعون فى أعراضهم » ، وقال سليم بن جابر (٤) أتيت النبى عليه الصلاة والسلام . فقلت علمنى خيرا أنتفع به . فقال « لاتحقرن من المعروف شيئا ولو أن تصبّ من دلوك فى إناء المستقى ، وأن تلقى أخاك بشر حسن ، و إن أدبر فلاتغتابنه » ، وقال البراء (٥) خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق فى بيوتهن . فقال «يامعشر من آمن باسانه ولم يؤمن بقلبه : لاتغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم : فانه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه فى جوف بيته » ، وقيل أوحى الله الى موسى عليه السلام « من مات تائبا من الغيبة : فهو آخر من يدخل الجنة ، ومن مات مصرّا عليها فهو أوّل من يدخل النار » ، وقال أنس (٦) أمر رسول الله ﷺ الناس بصوم يوم . فقال « لايفطرن أحد حتى آذن له : فصام الناس حتى اذا أمسوا جعل الرجل يجىء . فيقول يارسول الله ظلت صائما فائذن لى لأفطر : فيأذن له ، والرجل والرجل حتى جاء رجل . فقال يارسول الله فتاتان من أهلك ظلتا صائمتين ، وانهما يستحيان أن يأتياك فائذن لهما أن يفطرا ، فأعرض عنه ﷺ فأعرض عنه ثم عاوده . فقال إنهما لم يصوما ، وكيف يصوم من ظل نهاره يأكل لحم الناس اذهب فمرهما إن كانتا صائمتين أن تستقيئا فرجع إليهما فأخبرهما فاستقاءتا : فقاءت كل واحدة منهما علقة من دم فرجع الى النبى ﷺ فأخبره . فقال ، والذى نفسى بيده لو بقيتا فى بطونهما لأكلتهما النار » ، وفى رواية أنه لما أعرض عنه جاء بعد ذلك ، وقال يارسول الله والله إنهما قد ماتتا أو كادتا أن تموتا . فقال ﷺ (٧) ائتونى بهما فجاءتا

---

(١) حديث : أبى برزة لاتحاسدوا ولاتباغضوا ولايغتب بعضكم بعضا وكونوا عباد الله اخوانا متفق عليه من حديث : أبى هريرة وأنس دون قوله ولايغتب بعضكم بعضا ، وقد تقدم فى آداب الصحبة .

(٢) حديث : جابر وأبى سعيد اياكم والغيبة . فان الغيبة أشد من الزنا ، الحديث ابن أبى الدنيا فى الصمت وابن حبان فى الضعفاء وابن مردويه فى التفسير

(٣) حديث : أنس مررت ليلة أسرى بى على قوم يخمشون وجوههم بأظفارهم الحديث أبوداود مسندا ومرسلا ، والمسند أصح

(٤) حديث : سليم بن جابر أتيت رسول الله ﷺ فقلت علمنى خيرا ينفعنى الله به ، الحديث أحمد فى المسند وابن أبى الدنيا فى الصمت واللفظ له ولم يقل فيه أحمد واذا أدبر فلا يعتابه ، وفى اسنادهما ضعف

(٥) حديث : البراء يامعشر من آمن باسانه ولم يؤمن بقلبه لاتعتابوا المسلمين ، الحديث ابن أبى الدنيا هكذا ورواه أبوداود من حديث أبى برزة باسناد جيد

(٦) حديث أنس أمر رسول الله ﷺ الناس بصوم وقال لايفطرن أحد حتى آذن له ، فصام الناس الحديث فى ذكر المرأتين اللتين اعتابتا فى صيامهما فقاءت كل واحدة منهما علقة من دم : ابن أبى الدنيا فى الصمت ، وابن مردويه فى التفسير من رواية يزيد الرقاشى عنه ، ويزيد ضعيف .

(٧) حديث المرأتين المذكورتين ، وقال فيه ان هاتين صامتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ماحرم

فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدح فقال لاحداهما قيئي فقاءت من قيح ودم وصديد حتى ملأت القدح ، وقال للأخرى قيئي فقاءت كذلك . فقال ان هاتين صامتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما جلست احداهما الى الأخرى فجعلتا تأكلان لحوم الناس ، وقال أنس (١) خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الربا وعظم شأنه . فقال : ان الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله فى الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل ، وأربى الربا عرض الرجل المسلم ، وقال جابر « (٢) كنا مع رسول الله ﷺ فى مسير فأتى على قبرين يعذب صاحباهما . فقال إنهما يعذبان ، وما يعذبان فى كبير : أما أحدهما فكان يغتاب الناس ، وأما الآخر فكان لايستنزه من بوله ، فدعا بجريدة رطبة أوجريدتين فكسرهما ، ثم أمر بكل كسرة فغرست على قبر . وقال أما أنه سيهون من عذابهما ما كانتا رطبتين أومالم ييبسا » ، ولما رجم رسول الله ﷺ (٣) ماعزا فى الزنا . قال رجل لصاحبه هذا أقعص كما يقعص الكلب فمر صلى الله عليه وسلم ، وهما معه بجيفة . فقال انهشا منها . فقالا يارسول الله نهش جيفة . فقال ما أصبتما من أخيكما أنتن من هذه ، وكان الصحابة رضى الله عنهم يتلاقون بالبشر ولا يغتابون عند الغيبة ويرون ذلك أفضل الأعمال ، ويرون خلافه عادة المنافقين . وقال أبوهريرة « (٤) من أكل لحم أخيه فى الدنيا قرب اليه لحمه فى الآخرة ، وقيل له كله ميتا كما أكلته حيا فيأكله فينضج ويكلح » ، وروى مرفوعا كذلك وروى أن رجلين كانا قاعدين عند باب من أبواب المسجد فمر بهما رجل كان مخنثا فترك ذلك فقالا لقد بقى فيه منه شيء وأقيمت الصلاة فدخلا فصليا مع الناس فجاء فى أنفسهما ماقالا فأتيا عطاء فسألاه فأمرهما أن يعيدا الوضوء والصلاة ، وأمرهما ان يقضيا الصيام ان كانا صائمين ، وعن مجاهد أنه قال فى ـ ويل لكل همزة لمزة ـ الهمزة الطعان فى الناس ، واللمزة الذى يأكل لحوم الناس ، وقال قتادة ذكر لنا أن عذاب القبر ثلاثة أثلاث : ثلث من الغيبة ، وثلث من النميمة ، وثلث من البول . وقال الحسن : والله للغيبة أسرع فى دين الرجل المؤمن من الأكلة فى الجسد . وقال بعضهم : أدركنا السلف وهم لايرون العبادة فى الصوم ولا فى الصلاة ، ولكن فى الكف عن أعراض الناس ، وقال ابن عباس : اذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فاذكر عيوبك . وقال أبوهريرة يبصر أحدكم القذى فى عين أخيه ولا يبصر الجذع فى عين نفسه ، وكان

الله عليهما الحديث أخرجه من حديث عبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه رجل لم يسم ، ورواه أبو يعلى فى مسنده فاسقط منه ذكر الرجل المبهم

(١) حديث أنس خطبنا فذكر الربا وعظم شأنه الحديث ، وفيه وأربى الربا عرض الرجل المسلم ، ابن أبى الدنيا بسند ضعيف

(٢) حديث : جابر كنا مع رسول الله ﷺ فى مسير فأتى على قبرين يعذب صاحباهما فقال أما انهما ليعذبان ومايعذبان فى كبير : أما أحدهما فكان يغتاب الناس ، الحديث ابن أبى الدنيا فى الصمت وأبو العباس الدغولى فى كتاب الآدب باسناد جيد ، وهو فى الصحيحين من حديث ابن عباس إلا أنه ذكر فيه النميمة بدل العيبة وللطيالسى فيه أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس ولأحمد والطبرانى من حديث أبى بكرة نحوه باسناد جيد .

(٣) حديث قوله للرجل الذى ، قال لصاحبه فى حق المرجوم هذا أقعص كما يقعص الكلب فمر بجيفة فقال انهشا منها . الحديث أبوداود والنسائى من حديث أبى هريرة نحوه باسناد جيد .

(٤) حديث : أبى هريرة من أكل لحم أخيه فى الدنيا قرب اليه لحمه فى الآخرة فيقال له كله ميتا كما أكلته حيا ، الحديث ابن مردويه فى التفسير مرفوعا وموقوفا ، وفيه محمد بن اسحاق رواه بالعنعنة .

الحسن يقول : « ابن آدم إنك لن تصيب حقيقة الايمان حتى لاتعيب الناس بعيب هو فيك ، وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب فتصلحه من نفسك فاذا فعلت ذلك كان شغلك فى خاصة نفسك ، وأحبّ العباد الى الله من كان هكذا » ، وقال مالك بن دينار مرّ عيسى عليه السلام ومعه الحواريون بجيفة كلب . فقال الحواريون ماأنتن ريح هذا الكلب . فقال عليه الصلاة والسلام ماأشد بياض أسنانه كأنه ﷺ نهاهم عن غيبة الكلب ، ونبههم على أنه لايذكر من شىء من خلق الله الا أحسنه ، وسمع على بن الحسين رضى الله عنهما رجلا يغتاب آخر . فقال له إياك والغيبة فانها إدام كلاب الناس ، وقال عمر رضى الله عنه « عليكم بذكر الله تعالى فانه شفاء ، وإياكم وذكر الناس فانه داء » : نسأل الله حسن التوفيق لطاعته

بيان معنى الغيبة وحدودها

اعلم أن حدّ الغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه سواء ذكرته بنقص فى بدنه أونسبه أوفى خلقه أوفى فعله أوفى قوله أوفى دينه أوفى دنياه حتى فى ثوبه وداره ودابته ، أما البدن فكذكرك العمش والحول والقرع والقصر والطول والسواد والصفرة ، وجميع مايتصوّر أن يوصف به مما يكرهه كيفما كان . وأما النسب فبأن تقول أبوه قبطى أرهندى أوفاسق أوخسيس أواسكاف أوزبال أوشىء مما يكرهه كيفما كان . وأما الخلق فبأن تقول هو سيىء الخلق بخيل متكبر مراء شديد الغضب جبان عاجز ضعيف القلب متهوّر ومايجرى مجراه . وأما فى أفعاله المتعلقة بالدين فكقولك هو سارق أوكذاب أوشارب خمر أوخائن أوظالم أومتهاون بالصلاة أوالزكاة أولايحسن الركوع أوالسجود أولايحترز من النجاسات أوليس بارا بوالديه أولايضع الزكاة موضعها أولايحسن قسمتها أولايحرس صومه عن الرفث والغيبة والتعرض لاعراض الناس . وأمافعله المتعلق بالدنيا فكقولك انه قليل الأدب متهاون بالناس أولايرى لأحد على نفسه حقا أويروى لنفسه الحق على الناس أو انه كثير الكلام كثير الأكل نئوم ينام فى غير وقت النوم ويجلس فى غير موضعه . وأما فى ثوبه فكقولك إنه واسع الكمّ طويل الذيل وسخ الثياب ، وقال قوم لاغيبة فى الدين لأنه ذم ماذمه الله تعالى فذكره بالمعاصى وذمه بها يجوز بدليل ماروى أن رسول الله ﷺ (١) ذكرت له امرأة وكثرة صلاتها وصومها ولكنها تؤذى جيرانها بلسانها . فقال هى فى النار (٢) وذكرت عنده امرأة أخرى بأنها بخيلة . فقال فما خيرها اذا فهذا فاسد لأنهم كانوا يذكرون ذلك لحاجتهم الى تعرف الأحكام بالسؤال ولم يكن غرضهم التنقيص ولايحتاج اليه فى غير مجلس الرسول ﷺ والدليل عليه إجماع الامة على أن من ذكر غيره بما يكرهه فهو مغتاب لأنه داخل فيما ذكره رسول الله ﷺ فى حدّ الغيبة ، وكل هذا وان كان صادقا فيه فهو به مغتاب عاص لربه وآكل لحم أخيه بدليل ماروى أن النبى ﷺ (٣) قال هل تدرون ما الغيبة قالوا الله ورسوله أعلم . قال ذكرك أخاك بما يكرهه : قيل أرأيت ان كان فى أخى ماأقوله ؟ قال ان كان فيه ماتقول فقد اغتبته ، وان لم يكن فيه فقد بهته . وقال معاذ بن جبل (٤) ذكر رجل عند رسول الله ﷺ

---

(١) حديث : ذكر له امرأة وكثرة صومها وصلاتها ، لكن تؤذى جيرانها . فقال هى فى النار ابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبى هريرة .

(٢) حديث : ذكر امرأة أخرى بأنها بخيلة . قال فما خيرها اذا ، الحرائطى فى مكارم الاخلاق من حديث أبى جعفر محمد بن على مرسلا ورويناه فى أمالى ابن شمعون هكذا .

(٣) حديث هل تدرون ماالغيبة ، قالوا الله ورسوله أعلم . قال ذكرك أخاك بما يكره الحديث ، مسلم من حديث أبى هريرة .

(٤) حديث معاذ ذكر رجل عند رسول الله ﷺ فقالوا ما أعجزه ، الحديث الطبرانى بسند ضعيف .

فقالوا ما أعجزه . فقال ﷺ اغتبتم أخاكم قالوا يارسول الله قلنا مافيه . قال ان قلتم ماليس فيه فقد بهتموه ، وعن حذيفة عن عائشة رضى الله عنها (١) انها ذكرت عند رسول الله ﷺ امرأة . فقالت انها قصيرة . فقال ﷺ اغتبتها . وقال الحسن ذكر الغير ثلاثة : الغيبة ، والبهتان ، والافك ، وكل فى كتاب الله عز وجل : فالغيبة أن تقول مافيه ، والبهتان أن تقول ماليس فيه ، والافك أن تقول مابلغك ، وذكر ابن سيرين رجلا . فقال ذاك الرجل الأسود : ثم قال أستغفر الله انى أرانى قد اغتبته ، وذكر ابن سيرين ابراهيم النخعى فوضع يده على عينه ولم يقل الاعور . وقالت عائشة (٢) لايغتابن أحدكم أحدا فانى قلت لامرأة مرة وأنا عند النبى صلى الله عليه وسلم « ان هذه لطويلة الذيل . فقال لى : القظى القظى فلفظت مضغة لحم » .

بيان أن الغيبة لاتقتصر على اللسان

اعلم أن الذكر باللسان إنما حرم لأن فيه تفهيم الغير نقصان أخيك وتعريفه بما يكرهه فالتعريض به كالتصريح والفعل فيه كالقول والاشارة والايماء والغمز والهمز والكتابة والحركة وكل مايفهم المقصود فهو داخل فى الغيبة وهو حرام : فمن ذلك قول عائشة رضى الله عنها (٣) دخلت علينا امرأة فلما ولت أومأت بيدى أنها قصيرة . فقال عليه السلام اغتبتها ، ومن ذلك المحاكاة كأن يمشى متعارجا أو كما يمشى فهو غيبة ، بل هو أشد من الغيبة لانه أعظم فى التصوير ، ولما رأى رسول الله ﷺ عائشة حاكت امرأة قال (٤) مايسرنى أنى حاكيت انسانا ولى كذا وكذا ، وكذلك الغيبة بالكتابة فان القلم أحد اللسانين ، وذكر المصنف شخصا معينا وتهجين كلامه فى الكتاب غيبة إلا أن يقترن به شئ من الأعذار المحوجة الى ذكره كما سيأتى بيانه . وأما قوله قال قوم كذا فليس ذلك غيبة انما الغيبة التعريض لشخص معين إما حى وإما ميت ، ومن الغيبة أن تقول بعض من مر بنا اليوم أو بعض من رأيناه اذا كان المخاطب يفهم منه شخصا معينا لأن المحذور تفهيمه دون مايه التفهيم فأما اذا لم يفهم عينه جاز ، كان رسول الله ﷺ (٥) اذا كره من انسان شيئا قال مابال أقوام يفعلون كذا وكذا فكان لايعين ، وقولك بعض من قدم من السفر أو بعض من يدعى العلم ان كان معه قرينة تفهم عين الشخص فهى غيبة وأخبث أنواع الغيبة غيبة القراء المرائين فانهم يفهمون المقصود على صيغة أهل الصلاح ليظهروا من أنفسهم التعفف عن الغيبة ويفهمون المقصود ولايدرون بجهلهم أنهم جمعوا بين فاحشتين الغيبة

(١) حديث : عائشة أنها ذكرت امرأة فقالت انها قصيرة فقال اغتبتها رواه أحمد وأصله عند أبى داود والترمذى وصححه بلفظ آخر ووقع عند المصنف عن حذيفة عن عائشة ، وكذا هو فى الصمت لابن أبى الدنيا ، والصواب عن أبى حذيفة كما عند أحمد وأبى داود والترمذى ، واسم أبى حذيفة سلمة بن صهيب .

(٢) حديث عائشة قلت لامرأة إن هذه طويلة الذيل فقال صلى الله عليه وسلم القظى فلفظت بضعة من لحم ، ابن أبى الدنيا وابن مردويه فى التفسير وفى اسناده امرأة لاأعرفها .

(٣) حديث عائشة دخلت علينا امرأة فأومأت بيدى أى قصيرة ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم قد اغتبتها . ابن أبى الدنيا وابن مردويه من رواية حسان بن مخارق عنها ، وحسان وثقه ابن حبان وباقيهم ثقات .

(٤) حديث : مايسرنى انى حكيت ولى كذا وكذا تقدم فى الآفة الحادية عشرة .

(٥) حديث : كان اذا كره من انسان شيئا قال مابال أقوام يفعلون كذا وكذا الحديث . أبو داود من حديث عائشة دون قوله ، وكان لايعينه ، ورجاله رجال الصحيح .

والرياء وذلك مثل أن يذكر عنده انسان فيقول الحمد لله الذى لم يبتلنا بالدخول على السلطان والتبذل فى طلب الحطام ، أو يقول : نعوذ بالله من قلة الحياء ، نسأل الله أن يعصمنا منها ، وانما قصده أن يفهم عيب الغير فيذكره بصيغة الدعاء ، وكذلك قد يقدم مدح من يريد غيبته فيقول ما أحسن أحوال فلان ، ما كان يقصر فى العبادات ولكن قد اعتراه فتور وابتلى بما يبتلى به كلنا وهو قلة الصبر فيذكر نفسه ومقصوده أن يذم غيره فى ضمن ذلك و يمدح نفسه بالتشبه بالصالحين بأن يذم نفسه فيكون مغتابا ومرائيا ومزكيا نفسه ، فيجمع بين ثلاث فواحش ، وهو بجهله يظن أنه من الصالحين المتعففين عن الغيبة ، ولذلك يلعب الشيطان بأهل الجهل اذا اشتغلوا بالعبادة من غير علم فانه يقبعهم و يحبط بمكايده عملهم ، و يضحك عليهم ، و يسخر منهم ، ومن ذلك أن يذكر عيب انسان فلا يتنبه له بعض الحاضرين فيقول سبحان الله ما أعجب هذا حتى يصغى إليه و يعلم ما يقول فيذكر الله تعالى و يستعمل اسمه آلة له فى تحقيق خبثه وهو يمن على الله عز وجل بذكره جهلا منه وغرورا وكذلك يقول : ساءنى ماجرى على صديقنا من الاستخفاف به ، نسأل الله أن يروح نفسه فيكون كاذبا فى دعوى الاغتمام وفى اظهار الدعاء له ، بل لو قصد الدعاء لأخفاه فى خلوته عقيب صلاته ولو كان يغتم به لاغتم أيضا باظهار ما يكرهه ، وكذلك يقول ذلك المسكين قد بلى بآفة عظيمة تاب الله علينا وعليه ، فهو فى كل ذلك يظهر الدعاء ، والله مطلع على خبث ضميره ، وخفى قصده ، وهو لجهله لا يدرى انه قد تعرض لمقت أعظم مما تعرض له الجهال اذا جاهروا ، ومن ذلك الاصغاء إلى الغيبة على سبيل التعجب ، فانه انما يظهر التعجب ليزيد نشاط المغتاب فى الغيبة فيندفع فيها ، وكأنه يستخرج الغيبة منه بهذا الطريق فيقول عجب ما علمت أنه كذلك ما عرفته إلى الآن إلا بالخير ، وكنت أحسب فيه غير هذا عافانا الله من بلائه فان كل ذلك تصديق للمغتاب ، والتصديق بالغيبة غيبة ، بل الساكت شريك المغتاب . قال ﷺ (١) : « المستمع أحد المغتابين » ، وقد روى عن أبى بكر وعمر رضى الله عنهما (٢) أن أحدهما قال لصاحبه ان فلانا لئوم ثم انهما طلبا أدما من رسول الله ﷺ ليأكلا به الخبز فقال ﷺ قد ائتدمتما فقالا ما نعلمه ، قال بلى انكما أكلتما من لحم أخيكما فانظر كيف جعلهما ، وكان القائل أحدهما والآخر مستمعا ؟ . وقال للرجلين اللذين قال أحدهما أفعص الرجل كما يقعص الكلب (٣) انهشا من هذه الجيفة ، فجمع بينهما ، فالمستمع لا يخرج من إثم الغيبة إلا أن ينكر بلسانه أو بقلبه ان خاف وان قدر على القيام ، أو قطع الكلام بكلام آخر فلم يفعل لزمه ، وان قال بلسانه اسكت وهو مشته لذلك بقلبه فذلك نفاق ولا يخرجه من الاثم مالم يكرهه بقلبه ، ولا يكفى فى ذلك أن يشير باليد أى اسكت أو يشير بحاجبه وجبينه ، فان ذلك استحقار للمذكور ، بل ينبغى أن يعظم ذلك فيذب عنه صريحا . وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « من أذل عنده مؤمن فلم ينصره وهو يقدر على نصره أذله الله يوم القيامة على رءوس

(١) حديث : المستمع أحد المغتابين ، الطبرانى من حديث ابن عمر : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة وعن الاستماع إلى الغيبة ، وهو ضعيف .

(٢) حديث : ان أبا بكر وعمر قال أحدهما لصاحبه : ان فلانا لئوم ، ثم طلبا أدما من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قد ائتدمتما ، فقالا ما نعلم ، فقال بلى ما أكلتما من لحم صاحبكما ، أبو العباس الدغولى فى الآداب من رواية عبد الرحمن بن أبى ليلى مرسلا نحوه .

(٣) حديث : انهشا من هذه الميتة ، فانه الرجلين اللذين قال أحدهما أفعص الرجل كما يقعص الكلب ، تقدم قبل هذا بإثنى عشر حديثا

(٤) حديث : من أذل عنده مؤمن وهو قادر على أن ينصره فلم ينصره أذله الله يوم القيامة على رءوس الخلائق ، الطبرانى من حديث سهل بن حنيف ، وفيه ابن لهيعة .

الخلائق» . وقال أبو الدرداء [1] قال رسول الله ﷺ : « من ردّ عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يردّ عن عرضه يوم القيامة » ، وقال أيضا : [2] « من ذبّ عن عرض أخيه بالعيب كان حقا على الله أن يعتقه من النار » ، وقد ورد فى نصرة المسلم فى الغيبة ، وفى فضل ذلك أخبار كثيرة أوردناها فى كتاب آداب الصحبة وحقوق المسلمين فلا نطيل باعادتها .

بيان الأسباب الباعثة على الغيبة

اعلم أن البواعث على الغيبة كثيرة ، ولكن يجمعها أحد عشر سببا ، ثمانية منها تطرد فى حقّ العامّة ، وثلاثة تختص بأهل الدين والخاصة : أما الثمانية [فالأوّل] أن يشفى الغيظ ، وذلك اذا جرى سبب غضب به عليه فانه اذا هاج غضبه يشتفى بذكر مساويه فيسبق اللسان إليه بالطبع ان لم يكن ثم دين وازع ، وقد يمتنع تشفى الغيظ عند الغضب فيحتقن الغضب فى الباطن فيصير حقدا ثابتا فيكون سببا دائما لذكر المساوى ، فالحقد والغضب من البواعث العظيمة على الغيبة [الثانى] موافقة الأقران ، ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام فانهم اذا كانوا يتفكهون بذكر الأعراض فيرى أنه لو أنكر عليهم ، أو قطع المجلس استثقلوه ونفروا عنه فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة ، ويظن أنه مجاملة فى الصحبة ، وقد يغضب رفقاؤه فيحتاج إلى أن يغضب لغضبهم اظهارا للمساهمة فى السرّاء والضرّاء فيخوض معهم فى ذكر العيوب والمساوى [الثالث] أن يستشعر من انسان أنه سيقصده ويطول لسانه عليه ، أو يقبح حاله عند محتشم ، أو يشهد عليه بشهادة فيبادره قبل أن يقبح هو حاله ويطعن فيه ليسقط أثر شهادته ، أو يبتدئ بذكر ما فيه صادقا ليكذب عليه بعده فيروج كذبه بالصدق الأول ويستشهد ويقول : ما من عادتى الكذب فانى أخبرتكم بكذا وكذا من أحواله فكان كما قلت [الرابع] أن يذهب الى شىء فيريد أن يتبرّأ منه فيذكر الذى فعله وكان من حقه أن يبرّئ نفسه ولا يذكر الذى فعل فلا ينسب غيره اليه أو يذكر غيره بانه كان مشاركا له فى الفعل ليمهد بذلك عذر نفسه فى فعله [الخامس] ارادة التصنع والمباهاة وهو أن يرفع نفسه بتنقيص غيره فيقول فلان جاهل وفهمه ركيك ، وكلامه ضعيف ، وغرضه أن يثبت فى ضمن ذلك فضل نفسه ، ويريهم أنه أعلم منه ، أو يحذر أن يعظم مثل تعظيمه فيقدح فيه لذلك [السادس] الحسد وهو أنه ربما يحسد من يثنى الناس عليه ويحبونه ويكرمونه فيريد زوال تلك النعمة عنه فلا يجد سبيلا إليه إلا بالقدح فيه فيريد أن يسقط ماء وجهه عند الناس حتى يكفوا عن كرامته والثناء عليه لأنه يثقل عليه أن يسمع كلام الناس وثناءهم عليه واكرامهم له ، وهذا هو عين الحسد ، وهو غير الغضب والحقد ، فان ذلك يستدعى جناية من المغضوب عليه ، والحسد قد يكون مع الصديق المحسن ، والرفيق الموافق [السابع] اللعب والهزل والمطايبة وتزجية الوقت بالضحك فيذكر عيوب غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة ، ومنشؤه التكبر والعجب [الثامن] السخرية والاستهزاء استحقارا له فان ذلك قد يجرى فى الحضور ويجرى أيضا فى الغيبة ومنشؤه التكبر واستصغار المستهزأ به .

وأما الأسباب الثلاثة التى هى فى الخاصة فهى أغمضها وأدقها ، لأنها شرور خبأها الشيطان فى معرض

---

(١) حديث ابى الدرداء : من ردّ عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يردّ عن عرضه يوم القيامة ، ابن أبى الدنيا فى الصمت ، وفيه شهر بن حوشب ، وهو عند الطبرانى من وجه آخر بلفظ : ردّ الله عن وجهه النار يوم القيامة ، وفى رواية له : كان له حجابا من النار ، وكلاهما ضعيف .

(٢) حديث : من ذبّ عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يعتقه من النار ، أحمد والطبرانى من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد .

الخيرات وفيها خير ولكن شاب الشيطان بها الشرّ [الأوّل] أن تبعث من الدين داعية التعجب فى انكار المنكر والخطأ فى الدين فيقول ما أعجب مارأيت من فلان فانه قد يكون به صادقا ويكون تعجبه من المنكر ولكن كان حقه أن يتعجب ولايذكر اسمه فيسهل الشيطان عليه ذكر اسمه فى اظهار تعجبه فصار به مغتابا وآثما من حيث لايدرى . ومن ذلك قول الرجل : تعجبت من فلان كيف يحبّ جاريته وهى قبيحة ! وكيف يجلس بين يدى فلان وهوجاهل [الثانى] الرحمة وهوأن يغتم بسبب مايبتلى به فيقول مسكين فلان قد غمى أمره وما ابتلى به فيكون صادقا فى دعوى الاغتمام ، ويلهيه الغم عن الحذر من ذكر اسمه فيذكره فيصير به مغتابا فيكون غمه ورحمته خيرا ، وكذا تعجبه ، ولكن ساقه الشيطان إلى شرّ من حيث لايدرى ، والترحم والاغتمام يمكن دون ذكر اسمه فيهيجه الشيطان على ذكر اسمه ليبطل به ثواب اغتمامه وترحمه [الثالث] الغضب لله تعالى فانه قد يغضب على منكر قارفه انسان اذا رآه أوسمعه فيظهر غضبه ويذكر اسمه وكان الواجب أن يظهر غضبه عليه بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولا يظهره على غيره ، أو يستر اسمه ولايذكره بالسوء ، فهذه الثلاثة مما يغمض دركها على العلماء فضلا عن العوام ، فانهم يظنون أن التعجب والرحمة والغضب اذا كان لله تعالى كان عذرا فى ذكر الاسم وهوخطأ ، بل المرخص فى الغيبة حاجات مخصوصة لامندوحة فيها عن ذكر الاسم كما سيأتى ذكره . روى عن عامر بن واثلة (١) أن رجلا مرّ على قوم فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلم عليهم ، فردّوا عليه السلام ، فلما جاوزهم قال رجل منهم : إنى لأبغض هذا فى الله تعالى ، فقال أهل المجلس : لبئس ماقلت والله لنبئنه ، ثم قالوا يافلان لرجل منهم قم فأدركه وأخبره بما قال ، فأدركه رسولهم ، فأخبره ، فأتى الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكى له ماقال ، وسأله أن يدعوه له . فدعاه وسأله ، فقال قد قلت ذلك ، فقال ﷺ لِمَ تبغضه ؟ فقال أماجاره وأنا به خابر والله ما رأيته يصلى صلاة قط إلا هذه المكتوبة ، قال فاسأله يارسول الله هل رآنى أحرتها عن وقتها ، أوأسأت الوضوء لها ، أوالركوع أوالسجود فيها ؟ فسأله فقال لا ، فقال والله مارأيته يصوم شهرا قط إلا هذا الشهر الذى يصومه البرّ والفاجر ، قال فاسأله يارسول الله هل رآنى قط أفطرت فيه ، أونقصت من حقه شيئا ؟ فسأله عنه فقال لا ، فقال : والله مارأيته يعطى سائلا ولامسكينا قط ولارأيته ينفق شيئا من ماله فى سبيل الله إلا هذه الزكاة التى يؤدّيها البرّ والفاجر ، قال فاسأله هل رآنى نقصت منها ، أوما كست فيها طالبها الذى يسألها ؟ فسأله فقال لا ، فقال صلى الله عليه وسلم للرجل قم فلعله خير منك .

بيان العلاج الذى به يمنع اللسان عن الغيبة

اعلم أن مساوى الأخلاق كلها إنما تعالج بمجموع العلم والعمل ، وانما علاج كل علة بمضادّة سببها ، فلنفحص عن سببها . وعلاج كفّ اللسان عن الغيبة على وجهين : أحدهما على الجملة ، والآخر على التفصيل ، أما على الجملة فهوأن يعلم تعرّضه لسخط الله تعالى بغيبته بهذه الأخبار التى رويناها ، وأن يعلم أنها محبطة لحسناته يوم القيامة فانها تنقل حسناته يوم القيامة إلى من اغتابه بدلا عما استباحه من عرضه فان لم تكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه وهومع ذلك معرّض لمقت الله عزّوجل . ومثله عنده مثل من أكل الميتة . بل العبد يدخل النار بأن ترجح كفة سيئاته على كفة حسناته ، وربما ثقل إليه سيئة واحدة من اغتابه فيحصل بها

(١) حديث عامر بن واثلة : أن رجلا مرّ على قوم فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلم عليهم فردّوا عليه السلام ، فلما جاوزهم قال رجل منهم : انى لأبغض هذا فى الله ، الحديث بطوله ، وفيه : فقال قم فلعله خير منك ، رواه أحمد باسناد صحيح .

الرجحان و يدخل بها النار، وانما أقلّ الدرجات أن تنقص من ثواب أعماله ، وذلك بعد المخاصمة والمطالبة والسؤال والجواب والحساب . قال ﷺ (١) « ما النار فى اليبس بأسرع من العيبة فى حسنات العبد » . وروى أن رجلا قال للحسن : بلغنى أنك تغتابنى ؟ فقال مابلغ من قدرك عندى أنى أحكمك فى حسناتى ، فهما آمن العبد بما ورد من الأخبار فى الغيبة لم يطلق لسانه بها خوفامن ذلك * وينفعه أيضا أن يتدبر فى نفسه فان وجد فيها عيبا اشتغل بعيب نفسه ، وذكر قوله ﷺ (٢) : « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس » ، ومهما وجدعيبا فينبغى أن يستحيي من أن يترك ذمّ نفسه و يذم غيره ، بل ينبغى أن يتحقق أن عجز غيره عن نفسه فى التنزه عن ذلك العيب كعجزه ، وهذا ان كان ذلك عيبا يتعلق بفعله واختياره ، وان كان أمرا خلقيا فالذم له ذمّ للخالق ، فان من ذم صنعة فقد ذم صانعها . قال رجل لحكيم : ياقبيح لوجه ، قال ما كان خلق وجهى إلىّ فأحسنه . واذا لم يجد العبد عيبا فى نفسه فليشكر الله تعالى ولايأمن نفسه بأعظم العيوب فان ثلب الناس وأكل لحم الميتة من أعظم العيوب ، بل لوأنصف لعلم أن ظنه بنفسه أنه برىء من كل عيب جهل بنفسه ، وهو من أعظم العيوب * وينفعه أن يعلم أن تألم غيره بغيبته كتألمه بغيبة غيره له ، فاذا كان لا يرضى لنفسه أن يغتاب فينبغى أن لايرضى لغيره مالايرضاه لنفسه ، فهذه معالجات جلية * أما التفصيل فهو أن ينظر فى السبب الباعث له على الغيبة ، فان علاج العلة بقطع سببها ، وقد قدّمنا الأسباب . أما الغضب فيعالجه بما سيأتى فى كتاب [آفات الغضب] وهو أن يقول : انى اذا أمضيت غضبى عليه فلعلّ الله تعالى يمضى غضبه علىّ بسبب الغيبة إذ نهانى عنها فاجترأت على نهيه ، واستخففت بزجره ، وقد قال صلى الله عليه وسلم (٣) « إن لجهنم بابا لايدخل منه إلا من شفى غيظه بمعصية الله تعالى » . وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « من اتقى ربّه كلّ لسانه ولم يشف غيظه » . وقال ﷺ (٥) « من كظم غيظا وهو يقدر على أن يمضيه دعاه الله تعالى يوم القيامة على رءوس الخلائق حتى يخيره فى أىّ الحورشاء » . وفى بعض الكتب المنزلة على بعض النبيين : « يا ابن آدم اذكرنى حين تغضب أذكرك حين أغضب فلاأمحقك فيمن أمحق » . وأما الموافقة فأن تعلم أن الله تعالى يغضب عليك اذا طلبت سخطه فى رضا المخلوقين فكيف ترضى لنفسك أن توقر غيرك وتحقر مولاك فتترك رضاه لرضاهم إلا أن يكون غضبك لله تعالى وذلك لايوجب أن تذكر المغضوب عليه بسوء ، بل ينبغى أن تغضب لله أيضا على رفقائك اذا ذكروه بالسوء فانهم عصوا ربك بأفحش الذنوب وهى الغيبة . وأما تنزيه النفس بنسبة الغير إلى الخيانة حيث يستعمى عن ذكر الغير فعالجه بأن تعرف أن التعرّض لمقت الخالق أشدّ من التعرّض لمقت المخلوقين ، وأنت بالغيبة متعرّض لسخط الله يقينا ولاتدرى انك تتخلص من سخط الناس أم لا فتخلص نفسك فى الدنيا بالتوهم وترهلك فى الآخرة وتخسر حسناتك بالحقيقة ويحصل لك ذمّ الله تعالى نقدا وتمتطر دفع ذم الخلق نسيئة وهذا غاية الجهل والخذلان * وأما عذرك كقولك ان أكلت الحرام فعلان يأكله ، وان قلت مال السلطان فعلان يقله ، فهذا جهل لأنك تعتذر بالاقتداء بمن لايجوز

(١) حديث : ما النار فى اليبس بأسرع من الغيبة فى حسنات العبد ، لم أجد له أصلا .

(٢) حديث : طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، البزار من حديث أنس بسند ضعيف .

(٣) حديث : إن لجهنم بابا لايدخله إلا من شفى غيظه بمعصية الله ، البزار وابن أبى الدنيا وابن عدىّ والبيهقى والنسائى من حديث ابن عباس بسند ضعيف .

(٤) حديث : من اتقى ربه كلّ لسانه ولم يشف غيظه ، أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف ، ورويناه فى الأربعين البلدانية للسلفى .

(٥) حديث : من كظم غيظه وهو قادر على أن ينفذه ، الحديث أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث معاذ بن أنس .

الاقتداء به فان من خالف أمر الله تعالى لا يقتدى به كائنا من كان ولو دخل غيرك النار وأنت تقدر على أن لا تدخلها لم توافقه ولو وافقته لسفه عقلك ، ففيما ذكرته غيبة وزيادة معصية أضفتها الى ما اعتذرت عنه وسجلت مع الجمع بين المعصيتين على جهلك وغباوتك ، وكنت كالشاة تمطر الى المعزى تردى نفسها من قلة الجلل فهى أيضا تردى نفسها ، ولو كان لها لسان ناطق بالعذر وصرحت بالعذر . وقالت العنز أكيس منى وقد أهلكت نفسها ، وكذلك أنا أفعل لكنت تضحك من جهلها ، وحالك مثل حالها ، ثم لا تعجب ولا تضحك من نفسك وأما قصدك المباهاة وتزكية النفس بزيادة الفضل بأن تقدح فى غيرك . فينبغى أن تعلم أنك بما ذكرته به أبطلت فضلك عند الله ، وأنت من اعتقاد الناس فضلك على خطر ، وربما نقص اعتقادهم فيك اذا عرفوك بثلب الناس فتكون قد بعت ما عند الخالق يقينا بما عند المخلوقين وهما ولو حصل لك من المخلوقين اعتقاد الفضل لكانوا لا يغنون عنك من الله شيئا . وأما الغيبة لأجل الحسد فهو جمع بين عذابين لأنك حسدته على نعمة الدنيا ، وكنت فى الدنيا معذبا بالحسد فما قنعت بذلك حتى أضفت اليه عذاب الآخرة فكنت خاسرا نفسك فى الدنيا فصرت أيضا خاسرا فى الآخرة لتجمع بين الخاسرين ، فقد قصدت محسودك فأصبت نفسك وأهديت اليه حسناتك فاذا أنت صديقه وعدوّ نفسك إذ لا تضره غيبتك وتضرك وتنفعه إذ تنقل اليه حسناتك أو تنقل إليك سيآته ولا تنفعك ، وقد جمعت الى خبث الحسد جهل الحماقة ، وربما يكون حسدك وقدحك سبب انتشار فضل محسودك كما قيل

واذا أراد الله نشر فضيلة ☆ طويت أتاح لها لسان حسود

وأما الاستهزاء فقصودك منه اخزاء غيرك عند الناس باخزاء نفسك عند الله تعالى ، وعند الملائكة والنبيين عليهم الصلاة والسلام فلو تفكرت فى حسرتك وجنايتك وخجلتك وخزيك يوم القيامة يوم تحمل سيآت من استهزأت به وتساق الى النار لأدهشك ذلك عن إخزاء صاحبك ، ولو عرفت حالك لكنت أولى أن تضحك منك ، فانك سخرت به عند نفر قليل ، وعرضت نفسك لأن يأخذ يوم القيامة بيدك على ملأ من الناس ، ويسوقك تحت سيآته كما يساق الحمار الى النار مستهزئا بك وفرحا بخزيك ومسرورا بنصرة الله تعالى إياه عليك وتسلطه على الانتقام منك ، وأما الرحمة له على إثمه فهو حسن ، ولكن حسدك ابليس فأصلك واستطفك بما ينقل من حسناتك اليه ما هو أكثر من رحمتك فيكون جبرا لاثم المرحوم فيخرج عن كونه مرحوما وتنقلب أنت مستحقا لأن تكون مرحوما إذ حط أجرك ، ونقصت من حسناتك ، وكذلك الغضب لله تعالى لا يوجب الغيبة ، وإنما الشيطان حبب اليك الغيبة ليحبط أجر غضبك ، وتصير معرّضا لمقت الله عز وجل بالغيبة ، وأما التعجب اذا أخرجك الى الغيبة فتعجب من نفسك أنت كيف أهلكت نفسك ودينك بدين غيرك أو بدنياه وأنت مع ذلك لا تأمن عقوبة الدنيا ، وهو أن يهتك الله سترك كما هتكت بالتعجب ستر أخيك . فاذا عالج جميع ذلك المعرفة فقط ، والتحقق بهذه الأمور التى هى من أبواب الايمان من قوى إيمانه بجميع ذلك امكنه لسانه عن الغيبة لا محالة .

بيان تحريم الغيبة بالقلب

اعلم أن سوء الظن حرام مثل سوء القول فكما يحرم عليك أن تحدث غيرك بلسانك بمساوى الغير فليس لك أن تحدث نفسك وتسيء الظن بأخيك ، وليست تعنى به الاعتقاد المستقر وحكمه على غيره بالسوء ، فأما الخواطر وحديث النفس فهو معفو عنه من الشك أيضا معفو عنه . ولكن نهى عنه أن يطأ ، والظن عبارة عما تركن اليه النفس ويميل اليه القلب . وقد قال الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من

الظن إن بعض الظن إثم » وسبب تحريمه أن أسرار القلوب لا يعلمها الا علام العيوب فليس لك أن تعتقد فى غيرك سوءا إلا إذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل فعند ذلك لا يمكنك إلا أن تعتقد ما علمته وشاهدته ومالم تشاهده بعينك ولم تسمعه بأذنك ثم وقع فى قلبك فانما الشيطان يلقيه اليك ، فينبغى أن تكذبه فانه أفسق الفساق ، وقد قال الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة » فلا يجوز تصديق إبليس ، وان كان ثم مخيلة تدل على فساد واحتمل خلافه لم يجز أن تصدق به لأن الفاسق يتصور أن يصدق فى خبره ، ولكن لا يجوز لك أن تصدق به حتى إن من استقى فوجد منه رائحة الخمر لا يجوز أن يحد ، إذ يقال يمكن أن يكون قد تمضمض بالخمر ومجها ، وما شربها أو حمل عليه قهرا فكل ذلك لا محالة دلالة محتملة فلا يجوز تصديقها بالقلب و إساءة الظن بالمسلم بها ، وقد قال ﷺ «(١) إن الله حرم من المسلم دمه وماله ، وان يظن به ظن السوء» فلا يستباح ظن السوء الا بما يستباح به المال ، وهو نفس مشاهدته أو بينة عادلة ، فاذا لم يكن كذلك وخطر لك وسواس سوء الظن فينبغى أن تدفعه عن نفسك ، وتقر عليها أن حاله عندك مستور كما كان ، وأن ما رأيته منه يحتمل الخير والشر ، فان قلت فبماذا يعرف عقد الظن والشكوك تختلج والنفس تحدث فتقول : أمارة عقد سوء الظن أن يتغير القلب معه عما كان فينفر عنه نفورا ما ، و يستثقله و يفتر عن مراعاته وتفقده واكرامه والاغتمام بسببه فهذه أمارات عقد الظن وتحقيقه ، وقد قال ﷺ «(٢) ثلاث فى المؤمن ، وله منهن مخرج» فخرجه من سوء الظن أن لا يحققه أى لا يحققه فى نفسه بعقد ولا فعل لا فى القلب ولا فى الجوارح . أما فى القلب فبتغيره الى النفرة والكراهة ، وأما فى الجوارح فبالعمل بموجبه ، والشيطان قد يقرر على القلب بأدنى مخيلة مساءة الناس ، و يلقى اليه أن هذا من فطنتك وسرعة فهمك وذكائك ، وأن المؤمن ينظر بنور الله تعالى وهو على التحقيق ناظر بغرور الشيطان وظلمته ، وأما إذا أخبرك به عدل فمال طبعك الى تصديقه كنت معذورا لانك لو كذبته لكنت جانيا على هذا العدل إذ طعنت به الكذب ، وذلك أيضا من سوء الظن . فلا ينبغى أن تحسن الظن بواحد ، وتسىء بالآخر ، نعم ينبغى أن تبحث هل بينهما عداوة ومحاسدة وتعنت فتتطرق التهمة بسببه فقد ردّ الشرع (٣) شهادة الأب العدل للولد للتهمة ، وردّ شهادة العدوّ فلك عند ذلك أن تتوقف ، وان كان عدلا فلا تصدقه ولا تكذبه ، ولكن تقول فى نفسك المذكور حاله كان عندى فى ستر الله تعالى وكان أمره محجوبا عنى ، وقد بقى كما كان لم ينكشف لى شىء من أمره ، وقد يكون الرجل ظاهره العدالة ولا محاسدة بينه و بين المذكور ، ولكن قد يكون من عادته التعرض للناس وذكر مساويهم فهذا قد يظن أنه عدل وليس بعدل . فان المغتاب فاسق ، وان كان ذلك من عادته ردت شهادته إلا أن الناس لكثرة الاعتياد تساهلوا فى أمر الغيبة ولم يكترثوا بتناول أعراض الخلق ، ومهما خطر لك خاطر بسوء على مسلم فينبغى أن تزيد فى مراعاته وتدعو له بالخير فان ذلك يغيظ الشيطان و يدفعه عنك فلا يلقى اليك الخاطر السوء خيفة من استغالك بالدعاء

---

(١) حديث : ان الله حرم من المسلم دمه وماله . وان يظن به ظن السوء : البيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس بسند ضعيف ولابن ماجه نحوه من حديث ابن عمر .

(٢) حديث : ثلاث فى المؤمن وله منهن مخرج : الطبرانى من حديث حارثة بن النعمان بسند ضعيف

(٣) حديث : رد الشرع شهادة الوالد العدل وشهادة العدوّ : الترمذى من حديث عائشة ، وضعفه لا تجوز شهادة خائن ولا خائنة ولا مجلود حدا ولا ذى غمر لأخيه ، وفيه ولا ظنين فى ولاء ولا قرابة ، ولأبى داود وابن ماجه باسناد جيد من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رد شهادة الخائن والخائنة وذى الضغن على أخيه

بالمراعاة ، ومهما عرفت هفوة مسلم بحجة فانصحه فى السر ولايخدعك الشيطان فيدعوك الى اغتيابه ، وإذا وعظته فلاتعظه وأنت مسرور باطلاعك على نقصه ليظر اليك بعين التعظيم ، وتنظر اليه بعين الاستحقار ، وتترفع عليه بابداء الوعظ ، وليكن قصدك تخليصه من الاثم وأنت حزين كما تحزن على نفسك اذا دخل عليك نقصان فى دينك ، وينبغى أن يكون تركه لذلك من غير نصحك أحبّ إليك من تركه بالنصيحة فاذا أنت فعلت ذلك كنت قد جمعت بين أجر الوعظ وأجر الغم بمصيبته ، وأجر الاعانة له على دينه . ومن ثمرات سوء الظن التجسس ، فان القلب لايقنع بالظن ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس ، وهو أيضا منهىّ عنه . قال الله تعالى : « ولا تجسسوا » فالغيبة وسوء الظن والتجسس منهىّ عنه فى آية واحدة ، ومعنى التجسس أن لايترك عباد الله تحت ستر الله فيتوصل الى الاطلاع وهتك الستر حتى ينكشف له مالو كان مستورا عنه كان أسلم لقلبه ودينه ، وقد ذكرنا فى كتاب الأمر بالمعروف حكم التجسس وحقيقته .

بيان الأعذار المرخصة فى الغيبة

اعلم أن المرخص فى ذكر مساوى الغير هو غرض صحيح فى الشرع لايمكن التوصل اليه إلا به فيدفع ذلك إثم الغيبة ، وهى ستة أمور [الأوّل] الظلم فان من ذكر قاضيا بالظلم والخيانة وأخذ الرشوة كان معتابا عاصيا ان لم يكن مظلوما ، أما المظلوم من جهة القاضى فله أن يتظلم الى السلطان وينسبه الى الظلم إذ لايمكنه استيفاء حقه الا به . قال ﷺ « (١) إن لصاحب الحق مقالا » ، وقال عليه الصلاة والسلام « (٢) مطل الغنىّ ظلم » ، وقال عليه الصلاة والسلام « (٣) لىّ الواجد يحلّ عقوبته وعرضه » [الثانى] الاستعانة على تغيير المنكر وردّ العاصى الى منهج الصلاح كما روى أن عمر رضى الله عنه مرّ على عثمان وقيل على طلحة رضى الله عنه فسلم عليه فلم يردّ السلام فذهب الى أبى بكر رضى الله عنه فذكر له ذلك فجاء أبو بكر اليه ليصلح ذلك ولم يكن ذلك غيبة عندهم ، وكذلك لما بلغ عمر رضى الله عنه أن أبا جندل قد عاقر الخمر بالشام كتب اليه « بسم الله الرحمن الرحيم : حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب » الآية ، فتاب ولم ير ذلك عمر ممن أبلغه غيبة إذ كان قصده أن ينكر عليه ذلك فينفعه نصحه مالا ينفعه نصح غيره ، وانما الباحة هنا بالقصد الصحيح فان لم يكن ذلك هو المقصود كان حراما [الثالث] الاستفتاء : كما يقول للمفتى ظلمنى أبى أو زوجنى أو أخى فكيف طريقى فى الخلاص ، والأسلم التعريض بأن يقول ماقولك فى رجل ظلمه أبوه أو أخوه أو زوجته ، ولكن التعيين مباح بهذا القدر لما روى عن هند بنت عتبة أنها قالت (٤) للنبى ﷺ « إن أبا سفيان رجل شحيح لايعطى ما يكفينى أنا وولدى أفآخذ من غير علمه ؟ فقال خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف » فذكرت الشح والظلم لها ولولدها ولم يزجرها ﷺ إذ كان قصدها الاستفتاء [الرابع] تحذير المسلم من الشر ، فاذا رأيت فقيها يتردد الى مبتدع أوفاسق وخفت أن تتعدى اليه بدعته وفسقه فلك أن تكاشف له بدعته وفسقه مهما كان الباعث لك الخوف عليه من سراية البدعة والفسق لاغيره ، وذلك موضع الغرور إذ قد يكون الحسد هو الباعث ،

---

(١) حديث : لصاحب الحق مقال : متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٢) حديث : مطل الغنى ظلم : متفق عليه من حديثه

(٣) حديث : لىّ الواجد يحل عرضه وعقوبته ، أورده أبو داود والنسائى وابن ماجه من حديث الشريد باسناد صحيح

(٤) حديث : ان هندا قالت ان أبا سفيان رجل شحيح : متفق عليه من حديث عائشة

ويلبس الشيطان ذلك باظهار الشفقة على الخلق ، وكذلك من اشترى مملوكا وقد عرفت المملوك بالسرقة أو بالفسق أو بعيب آخر فلك أن تذكر ذلك فان فى سكوتك ضرر المشترى ، وفى ذكرك ضرر العبد ، والمشترى أولى بمراعاة جانبه ، وكذلك المزكى اذا سئل عن الشاهد فله الطعن فيه ان علم مطعنا ، وكذلك المستشار فى التزويج وإيداع الامانة له أن يذكر مايعرفه على قصد النصح للمستشير لاعلى قصد الوقيعة . فان علم أنه يترك التزويج بمجرد قوله : لاتصلح لك فهو الواجب وفيه الكفاية ، وان علم انه لاينزجر الا بالتصريح بعيبه فله أن يصرح به إذ قال رسول الله ﷺ «(١) أترعون عن ذكر الفاجر اهتكوه متى يعرفه الناس ، اذكروه بما فيه حتى يحذره الناس » وكانوا يقولون ثلاثة لاغيبة لهم : الامام الجائر ، والمبتدع ، والمجاهر بفسقه . [الخامس] أن يكون الانسان معروفا بلقب يعرف عن عيبه كالأعرج والأعمش فلا إثم على من يقول : روى أبو الزناد عن الأعرج وسلمان عن الأعمش وما يجرى مجراه ، فقد فعل العلماء ذلك لضرورة التعريف ، ولأن ذلك قد صار بحيث لا يكرهه صاحبه لو علمه بعد أن قد صار مشهورا به ، نعم ان وجد عنه معدلا وأمكنه التعريف بعبارة أخرى فهو أولى ، ولذلك يقال للأعمى البصير عدولا عن اسم النقص [السادس] أن يكون مجاهرا بالفسق كالمخنث وصاحب الماخور والمجاهر بشرب الخمر ومصادرة الناس ، وكان ممن يتظاهر به بحيث لايستكف من أن يذكر له ولا يكره أن يذكر به فاذا ذكرت فيه مايتظاهر به فلا إثم عليك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « (٢) من ألقى جلباب الحياء عن وجهه فلاغيبة له » ، وقال عمر رضى الله عنه « ليس لفاجر حرمة » وأراد به المجاهر بفسقه دون المستتر إذ المستتر لابد من مراعاة حرمته ، وقال الصلت بن طريف . قلت للحسن : الرجل الفاسق المعلن بفجوره ذكرى له بما فيه غيبة له ؟ قال لا ولا كرامة ، وقال الحسن : ثلاثة لاغيبة لهم : صاحب الهوى ، والفاسق المعلن بفسقه ، والامام الجائر . فهؤلاء الثلاثة يجمعهم أنهم يتظاهرون به ، وربما يتفاخرون به فكيف يكرهون ذلك وهم يقصدون إظهاره ، نعم لو ذكره بغير مايتظاهر به أثم . وقال عوف : دخلت على ابن سيرين فتناولت عنده الحجاج . فقال إن الله حكم عدل ينتقم للحجاج ممن اغتابه كما ينتقم من الحجاج لمن ظلمه ، وانك اذا لقيت الله تعالى غدا كان أصغر ذنب أصبته أشد عليك من أعظم ذنب أصابه الحجاج .

بيان كفارة الغيبة

اعلم أن الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ويتأسف على مافعله ليخرج به من حق الله سبحانه ، ثم يستحل المغتاب ليحله فيخرج من مظلمته ، وينبغى أن يستحله وهو حزين متأسف نادم على فعله إذ المرائى قد يستحل ليظهر من نفسه الورع ، وفى الباطن لا يكون نادما فيكون قد قارف معصية أخرى . وقال الحسن يكفيه الاستغفار دون الاستحلال ، وربما استدل فى ذلك بما روى أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « (٣) كفارة من اغتبته أن تستغفر له » ، وقال مجاهد « كفارة أكلك لحم أخيك

(١) حديث : أترعون عن ذكر الفاجر اهتكوه متى يعرفه الناس اذكروه بما فيه يحذره الناس ، الطبرانى وابن حبان فى الضعفاء وابن عدى من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده دون قوله حتى يعرفه الناس ، ورواه بهذه الزيادة ابن أبى الدنيا فى الصمت

(٢) حديث : من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له ، ابن عدى وأبو الشيخ فى كتاب ثواب الأعمال من حديث أنس بسند ضعيف وقد تقدم

(٣) حديث كفارة من اغتبته أن تستغفر له ، ابن أبى الدنيا فى الصمت والحارث بن أبى أسامة فى مسنده من

أن تثنى عليه وتدعوله بخير » ، وسئل عطاء بن أبي رباح عن التوبة من الغيبة . قال أن تمشي الى صاحبك فتقول له كذبت فيما قلت وظلمتك وأسأت . فان شئت أخذت بحقك ، وان شئت عفوت ، وهذا هو الأصح وقول القائل العرض لاعوض له ، فلايجب الاستحلال منه بخلاف المال كلام ضعيف اذقد وجب فى العرض حدّ القذف وتثبت المطالبة به بل فى الحديث الصحيح ماروى أنه ﷺ قال « (١) من كانت لأخيه عنده مظلمة فى عرض أومال فليستحللها منه من قبل أن يأتى يوم ليس هناك دينار ولادرهم انما يؤخذ من حسناته فان لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فزيدت على سيئاته » وقالت عائشة رضى الله عنها لامرأة قالت لأخرى انها طويلة الذيل قد اغتبتيها فاستحليها ، فاذا لابد من الاستحلال ان قدر عليه فان كان غائبا أوميتا فينبغى أن يكثر له الاستغفار والدعاء ويكثر من الحسنات . فان قلت فالتحليل هل يجب ؟ فأقول : لا لأنه تبرع والتبرع فضل ، وليس بواجب ولكنه مستحسن وسبيل المعتذر أن يبالغ فى الثناء عليه والتودّد اليه ويلازم ذلك حتى يطيب قلبه فان لم يطب قلبه كان اعتذاره وتودّده حسنة محسوبة له يقابل بها سيئة الغيبة فى القيامة ، وكان بعض السلف لايحلل . قال سعيد بن المسيب لاأحلل من ظلمنى ، وقال ابن سيرين إنى لم أحرمها عليه فأحللها له ان الله حرم الغيبة عليه ، وما كنت لأحلل ماحرم الله أبدا . فان قلت فما معنى قول النبى ﷺ ينبغى أن يستحلها وتحليل ماحرمه الله تعالى غير ممكن . فنقول المراد به العفو عن المظلمة لأن ينقلب الحرام حلالا ، وماقاله ابن سيرين حسن فى التحليل قبل الغيبة فانه لايجوز له أن يحلل لغيره الغيبة . فان قلت فما معنى قول النبى ﷺ « (٢) أيعجز أحدكم أن يكون كأبى ضمضم ، كان إذا خرج من بيته . قال : اللهم إنى قد تصدقت بعرضى على الناس » فكيف يتصدق بالعرض ، ومن تصدق به فهل يباح تناوله فان كان لاتنفذ صدقته فما معنى الحث عليه . فنقول معناه انى لا أطلب مظلمة فى القيامة منه ولا أخاصمه والا فلا تصير الغيبة حلالا به ولا تسقط المظلمة عنه لأنه عفو قبل الوجوب الا أنه وعد وله العزم على الوفاء بأن لايخاصم . فان رجع وخاصم كان القياس كسائر الحقوق أن له ذلك بل صرح الفقهاء أن من أباح القذف لم يسقط حقه من حد القاذف ومظلمة الآخرة من مظلمة الدنيا ، وعلى الجملة فالعفو أفضل . قال الحسن «اذا جثت الأمم بين يدى الله عز وجل يوم القيامة نودوا ليقم من كان له أجر على الله فلا يقوم الا العافون عن الناس فى الدنيا» ، وقد قال الله تعالى « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » فقال النبى صلى الله عليه وسلم « (٣) ياجبريل ماهذا العفو ، فقال « ان الله تعالى يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطى من حرمك » وروى عن الحسن أن رجلا قال له ان فلانا قد اغتابك فبعث اليه رطبا على طبق ، وقال قد بلغنى أنك أهديت الىّ من حسناتك فأردت أن أكافئك عليها فعذرنى فانى لا أقدر أن أكافئك على التمام .

حديث أنس بسند ضعيف

(١) حديث من كانت له عند أخيه مظلمة من عرض أومال فليتحلله ، الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٢) حديث أيعجز أحدكم أن يكون كأبى ضمضم كان اذا خرج من بيته قال اللهم انى تصدقت بعرضى على الناس ، البزار وابن السنى فى اليوم والليلة والعقيلى فى الضعفاء من حديث أنس بسند ضعيف وذكره ابن عبد البر من حديث ثابت مرسلا عند ذكر أبى ضمضم فى الصحابة . قلت ولعله هو رجل ممن كان قبلنا كما عند البزار والعقيلى .

(٣) حديث نزول خذ العفو الآية قال ياجبريل ماهذا فقال إن الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطى من حرمك ، تقدم فى رواية ابن عباس .

الآفة السادسة عشرة : النميمة

قال الله تعالى : « همازمشاء بنميم » ثم قال « عتل بعد ذلك زنيم » . قال عبد الله بن المبارك : الزنيم ولد الزنا الذى لا يكتم الحديث ، وأشار به الى أن كل من لم يكتم الحديث ومشى بالنميمة دل على أنه ولد زنا استنباطا من قوله عز وجل : « عتل بعد ذلك زنيم » والزنيم هو الدعى ، وقال تعالى : « ويل لكل همزة لمزة » قيل الهمزة النمام ، وقال تعالى : « حمالة الحطب » قيل انها كانت نمامة حمالة للحديث ، وقال تعالى « فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا » قيل كانت امرأة لوط تخبر بالضيفان ، وامرأة نوح تخبر أنه مجنون وقد قال ﷺ « (١) لايدخل الجنة نمام » ، وفى حديث آخر « لايدخل الجنة قتات » ، والقتات هو النمام . وقال أبو هريرة . قال رسول الله ﷺ « (٢) أحبكم الى الله أحاسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون ، وان أبغضكم الى الله المشاءون بالنميمة . المفرقون بين الاخوان . الملتمسون للبرآء العنات » ، وقال ﷺ « (٣) ألا أخبركم بشراركم . قالوا بلى ؟ قال المشاءون بالنميمة . المفسدون بين الأحبة الباغون للبرآء العيب » . وقال أبو ذر (٤) قال رسول الله ﷺ «من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حق شانه الله بها فى النار يوم القيامة . وقال أبو الدرداء (٥) قال رسول الله ﷺ « أيما رجل أشاع على رجل كلمة وهو منها برىء ليشينه بها فى الدنيا : كان حقا على الله أن يذيبه بها يوم القيامة فى النار » . وقال أبو هريرة (٦) قال رسول الله ﷺ « من شهد على مسلم بشهادة ليس لها بأهل فليتبوأ مقعده من النار » ويقال ان ثلث عذاب القبر من النميمة ، وعن ابن عمر عن النبى ﷺ « (٧) ان الله لما خلق الجنة قال

---

(١) حديث : لايدخل الجنة نمام ، وفى حديث آخر قتات متفق عليه من حديث حذيفة ، وقد تقدم .

(٢) حديث أبى هريرة وأحبكم الى الله أحسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا ، الطبرانى فى الأوسط والصغير ، وتقدم فى آداب الصحبة .

(٣) حديث : ألا أخبركم بشراركم قالوا بلى قال المشاءون بالنميمة : الحديث ، أحمد من حديث أبى مالك الأشعرى وقد تقدم .

(٤) حديث أبى ذر من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حق شانه الله بها فى النار يوم القيامة ، ابن أبى الدنيا فى الصمت والطبرانى فى مكارم الأخلاق ، وفيه عبد الله بن ميمون فان يكن القداح فهو متروك الحديث .

(٥) حديث أبى الدرداء أيما رجل أشاع على رجل كلمة هو منها برىء ليشينه بها فى الدنيا كان حقا على الله أن يذيبه بها يوم القيامة فى النار ، ابن أبى الدنيا موقوفا على أبى الدرداء ورواه الطبرانى بلفظ آخر مرفوعا من حديثه وقد تقدم .

(٦) حديث أبى هريرة من شهد على مسلم شهادة ليس لها بأهل فليتبوأ مقعده من النار ، أحمد وابن أبى الدنيا ، وفى روايه أحمد رجل لم يسم أسقطه ابن أبى الدنيا من الاسناد .

(٧) حديث ابن عمر ان الله لما خلق الجنة قال لها تكلمى قالت سعد من دخلنى . قال الجبار وعزتى وجلالى لايسكن فيك ثمانية . فذكر منها ولاقتات ، وهو النمام لم أجده هكذا بتمامه . ولأحمد لايدخل الجنة عاق لوالديه ولاديوث ، وللنسائى من حديث عبد الله بن عمر ولايدخل الجنة منان ولاعاق ولا مدمن خمر ، وللشيخين من حديث حذيفة لايدخل الجنة قتات ، ولهما من حديث جبير بن مطعم : لايدخل الجنة قطع ، وذكر صاحب الفردوس من حديث ابن عباس لما خلق الله

لها تكلمي . فقالت سعد من دخلي . فقال الجبار جل جلاله ، وعزتي وجلالي لا يسكن فيك ثمانية نفر من الناس : لا يسكنك مدمن خمر ، ولا مصرّ على الزنا ، ولا قتات . وهو النمام ، ولا ديوث ، ولا شرطي ، ولا مخنث ولا قاطع رحم ، ولا الذي يقول عليّ عهد الله ان لم أفعل كذا وكذا ثم لم يف به » . وروى كعب الأحبار أن بني اسرائيل أصابهم قحط فاستسقى موسى عليه السلام مرات فاسقوا فأوحى الله تعالى اليه اني لا أستجيب لك ولمن معك وفيكم نمام قد أصرّ على النميمة . فقال موسى يارب من هو دلني عليه حتى أخرجه من بيننا قال ياموسى أنهاكم عن النميمة وأكون نماما فتابوا جميعا فسقوا ، ويقال اتبع رجل حكيما سبعمائة فرسخ في سبع كلمات فلما قدم عليه . قال اني جئتك للذي آتاك الله تعالى من العلم أخبرني عن السماء وما أثقل منها ، وعن الأرض وما أوسع منها ، وعن الصخر وما أقسى منه ، وعن النار وما أحرّ منها ، وعن الزمهرير وما أبرد منه وعن البحر وما أغنى منه ، وعن اليتيم وما أذل منه ؟ فقال له الحكيم : البهتان على البريء أثقل من السموات والحق أوسع من الارض ، والقلب القانع أغنى من البحر ، والحرص والحسد أحرّ من النار ، والحاجة الى القريب اذا لم تنجح أبرد من الزمهرير ، وقلب الكافر أقسى من الحجر ، والنمام اذبان أمره أذل من اليتيم

بيان حد النميمة وما يجب في ردها

اعلم أن اسم النميمة إنما يطلق في الاكثر على من ينمّ قول الغير الى المقول فيه كما تقول فلان كان يتكلم فيك بكذا وكذا ، وليست النميمة مختصة به بل حدها كشف ما يكره كشفه سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول اليه أو كرهه ثالث ، وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالايماء وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال ، وسواء كان ذلك عيبا ونقصا في المنقول عنه أو لم يكن بل حقيقة النميمة إفشاء السر وهتك الستر عما يكره كشفه . بل كل ما رآه الانسان من أحوال الناس مما يكره فينبغي أن يسكت عنه الا اذا حكايته فائدة لمسلم أو دفع لمعصية كما إذا رأى من يتناول مال غيره فعليه أن يشهد به مراعاة لحق المشهود له ، فأما اذا رآه يخفي مالا لنفسه فذكره فهو نميمة وافشاء للسر . فان كان ماينمّ به نقصا وعيبا في المحكي عنه كان قد جمع بين الغيبة والنميمة . فالباعث على النميمة إما إرادة السوء للمحكي عنه أو إظهار الحب للمحكي له أو التفرّج بالحديث ، والخوض في الفضول والباطل ، وكل من حملت اليه النميمة وقيل له ان فلانا قال فيك كذا أو فعل في حقك كذا . أو هو يدبر في إفساد أمرك أو في ممالأة عدوّك أو تقبيح حالك أو مايجري مجراه فعليه ستة أمور [الأوّل] أن لا يصدقه لأن النمام فاسق وهو مردود الشهادة قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة » [الثاني] أن ينهاه عن ذلك وينصح له ويقبح عليه فعله . قال الله تعالى : « وأمر بالمعروف وانه عن المنكر » [الثالث] أن يبغضه في الله تعالى فانه بغيض عند الله تعالى ، ويجب بعض من يبغضه الله تعالى [الرابع] أن لا تظن بأخيك الغائب السوء لقول الله تعالى : « اجتنبوا كثيرا من الظنّ إنّ بعض الظنّ إثم » [الخامس] أن لا يحملك ماحكي لك على التجسس والبحث لتتحقق اتباعا لقوله تعالى : « ولا تجسسوا » [السادس] أن لا ترضى لنفسك ما نهيت النمام عنه ، ولا تحكي نميمته . فتقول فلان قد حكى لي كذا وكذا فتكون به نماما ومغتابا وتكون قد أتيت ماعنه نهيت ، وقد روي عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه دخل عليه رجل وذكر له عن رجل شيئا فقال له عمر ان شئت نظرنا في أمرك فان كنت كاذبا فأنت من أهل هذه الآية « ان جاءكم فاسق بنبأ

الجنة قال لها تكلمي تزيني فتزينت . فقالت طوبى لمن دخلني ورضي عنه إلهي . فقال الله عز وجل : لا يسكنك مخنث ولا نائحة

فتبينوا » وان كنت صادقا فأنت من أهل هذه الآية « همماز مشاء بنميم » وإن شئت عفونا عنك . فقال العفو ياأمير المؤمنين لاأعود اليه أبدا ، وذكر أن حكيما من الحكماء زاره بعض اخوانه فأخبره بخبر عن بعض أصدقائه . فقال له الحكيم : قد أبطأت فى الزيارة وأتيت بثلاث جنايات : بغضت أخى الىّ ، وشغلت قلبي الفارغ ، واتهمت نفسك الأمينة ، وروى أن سليمان بن عبد الملك كان جالسا وعنده الزهرى فجاءه رجل فقال له سليمان : بلغنى أنك وقعت فىّ وقلت كذا وكذا . فقال الرجل مافعلت ولاقلت . فقال سليمان ان الذى أخبرنى صادق . فقال له الزهرى لايكون النمام صادقا . فقال سليمان صدقت : ثم قال للرجل اذهب بسلام . وقال الحسن . « من نمّ إليك نمّ عليك » ، وهذا اشارة الى أن النمام ينبغى أن يبغض ولايوثق بقوله ولا بصداقته ، وكيف لايبغض وهو لاينفك عن الكذب ، والغيبة ، والعدر ، والخيانة ، والغل ، والحسد ، والنفاق ، والافساد بين الناس ، والخديعة ، وهو ممن يسعى فى قطع ماأمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض . وقال تعالى : «إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق » ، والنمام منهم . وقال صلى الله عليه وسلم « (١) ان من شرار الناس ، من اتقاه الناس لشرّه » ، والنمام منهم ، وقال « (٢) لايدخل الجنة قاطع : قيل وما القاطع ؟ قال . قاطع بين الناس ، وهو النمام . وقيل : قاطع الرحم » ، وروى عن علىّ رضى الله عنه أن رجلا سعى إليه برجل . فقال له ياهذا نحن نسأل عما قلت . فان كنت صادقا مقتناك ، وان كنت كاذبا عاقبناك ، وان شئت أن نقيلك أقلناك . فقال أقلنى ياأمير المؤمنين ، وقيل لمحمد بن كعب القرظى : أىّ خصال المؤمن أوضع له ؟ فقال كثرة الكلام ، وافشاء السرّ ، وقبول قول كل أحد . وقال رجل لعبد الله بن عامر وكان أميرا : بلغنى أن فلانا أعلم الأمير أبى ذكرته بسوء . قال قد كان ذلك . قل فأخبرنى بما قال لك حتى أطهر كذبه عندك . قال ماأحب أن أشتم نفسى بلسانى ، وحسبى أنى لم أصدقه فيما قال ، ولا أقطع عنك الوصال ، وذكرت السعاية عند بعض الصالحين ، فقال ماظنكم بقوم يحمد الصدق من كل طائفة من الناس الا منهم ، وقال مصعب بن الزبير . نحن نرى أن قبول السعاية شر من السعاية لأن السعاية دلالة ، والقبول اجازة ، وليس من دل على شىء فأخبر به كمن قبله وأجازه فانقوا الساعى فلو كان صادقا فى قوله لكان لئيما فى صدقه حيث لم يحفظ الحرمة ، ولم يستر العورة ، والسعاية هى النميمة إلا أنها إذا كانت الى من يخاف جانبه سميت سعاية ، وقد قال ﷺ « (٣) الساعى بالناس الى الناس لغير رشدة » يعنى ليس بولد حلال ، ودخل رجل على سليمان بن عبد الملك فاستأذنه فى الكلام . وقال انى مكالمك ياأمير المؤمنين بكلام فاحتمله ، وان كرهته فان وراءه مانحب ان قبلته . فقال قل : فقال ياأمير المؤمنين انه قد اكتنفك رجال ابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم : حافوك فى الله ، ولم يخافوا الله فيك ، فلا تأمنهم على مااتمنك الله عليه ، ولاتصغ اليهم فيما استحفظك الله إياه : فانهم لن يألوا فى الأمة خسفا ، وفى الأمانة تضييعا ، والاعراض قطعا وانتهاكا أعلى قدرهم البغى والنميمة ، وأجلّ وسائلهم العيبة

(١) حديث : ان من شر الناس من اتقاه الناس لشره ، متفق عليه من حديث عائشة نحوه

(٢) حديث : لايدخل الجنة قاطع ، متفق عليه من حديث جبير بن مطعم

(٣) حديث : الساعى بالناس الى الناس لغير رشدة ، الحاكم من حديث أبى موسى من سعى بالناس فهو لغير رشدة وفيه شىء منها ، وقال له أسانيد هذا أمثلها ، قلت فيه سهل بن عطية قال فيه ابن طاهر فى الذكرة منكر الرواية قال ، والحديث لاأصل له ، وقد ذكر ابن حبان فى الثقات سهل بن عطية ورواه الطبرانى بلفظ لايسعى على الناس الاولد بغىّ والامن فيه عرق منه ، وزاد بين سهل وبين بلال بن أبى بردة أبا الوليد القرشى

والوقيعة ، وأنت مسئول عما أجرموا ، وليسوا المسئولين عما أجرمت ، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك ، فان أعظم الناس غبنا من باع آخرته بدنيا غيره ، وسعى رجل بزيادة الأعجم الى سليمان بن عبد الملك فجمع بينهما للموافقة فأقبل زياد على الرجل . وقال :

فأنت امرؤ ما أتمنتك خاليا ✻ خفت وأما قلت قولا بلا علم
فأنت من الأمر الذى كان بيننا ✻ بمنزلة بين الحياة والاثم

وقال رجل لعمرو بن عبيد أن الأسوارى مايزال يذكرك فى قصصه بشر . فقال له عمرو ياهذا مارعيت حق مجالسة الرجل حيث نقلت الينا حديثه ولاأديت حق حين أعلمتنى عن أخى ماأكره ، ولكن أعلمه ان الموت يعمنا والقبر يضمنا والقيامة تجمعنا والله تعالى يحكم بيننا وهو خير الحاكمين ، ورفع بعض السعاة الى الصاحب بن عباد رقعة نبه فيها على مال يتيم يحمله على أخذه لكثرته فوقع على ظهرها : السعاية قبيحة وان كانت صحيحة ، فان كنت أجريتها مجرى النصح فخسرانك فيها أفضل من الربح ، ومعاذ الله أن نقبل مهتوكا فى مستور ، ولولا أنك فى خفارة شيبتك لقابلناك بما يقتضيه فعلك فى ملك . فتوق يامليعون العيب فان الله أعلم بالعيب ، الميت رحمه الله ، واليتيم جبره الله ، والمال ثمره الله ، والساعى لعنه الله . وقال لقمان لابنه يابنى أوصيك بخلال ان تمسكت بهن لم تزل سيدا ، إبسط خلقك للقريب والبعيد ، وأمسك جهلك عن الكريم واللئيم ، واحفظ إخوانك ، وصل أقاربك ، وآمنهم من قبول قول ساع أوسماع باغ يريد فسادك ويروم خداعك ، وليكن اخوانك من إذا فارقتهم وفارقوك لم يعيبهم ولم يعيبوك ، وقال بعضهم : النميمة مبنية على الكذب ، والحسد ، والنفاق ، وهى أثافى الذل ، وقال بعضهم لوصح ماينقله النمام اليك لكان هو المجترئ بالشتم عليك ، والمنقول عنه أولى بحلمك لأنه لم يقابلك بشتمك . وعلى الجملة فشر النمام عظيم ينبغى أن يتوقى . قال حماد بن سلمة باع رجل عبدا ، وقال للمشترى مافيه عيب إلا النميمة . قال قد رضيت فاشتراه فمكث الغلام أياما ثم قال لزوجة مولاه : ان سيدى لايحبك ، وهو يريد أن يتسرى عليك فخذى الموسى واحلقى من شعر قفاه عند نومه شعرات حتى أسحره عليها فيحبك : ثم قال للزوج ان امرأتك اتخذت خليلا وتريد أن تقتلك فتعاوم لها حتى تعرف ذلك ، فتعاوم لها . فجاءت المرأة بالموسى فظن أنها تريد قتله . فقام اليها فقتلها فجاء أهل المرأة فقتلوا الزوج ، ووقع القتال بين القبيلتين فنسأل الله حسن التوفيق .

الآفة السابعة عشرة كلام ذى اللسانين

الذى يتردد بين المتعاديين ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه ، وقلما يخلو عنه من يشاهد متعاديين وذلك عين النفاق . قال عمار بن ياسر (١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كان له وجهان فى الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة » ، وقال أبو هريرة (٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين الذى يأتى هؤلاء بحديث وهؤلاء بحديث » ، وفى لفظ آخر : « الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه » وقال أبو هريرة لاينبغى لذى وجهين أن يكون أميا عند الله ، وقال مالك بن دينار قرأت فى التوراة لعنت الغيبة والرجل مع صاحبه بشفتين مختلفتين يرزقه الله تعالى

(١) حديث عمار بن ياسر من كان له وجهان فى الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة . البخارى فى كتاب الأدب المفرد وأبوداود بإسناد حسن

(٢) حديث أبى هريرة تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين ، الحديث متفق عليه بلفظ تجدمن شر الناس لفظ البخارى ، وهو عند مسلم أبى الذى بلفظ مصنف

يوم القيامة كل شفتين مختلفتين ، وقال ﷺ « (١) أبغض خليقة الله الى الله يوم القيامة الكذابون والمستكبرون ، والذين يكثرون البغضاء لاخوانهم فى صدورهم فاذا لقوهم تملقوا لهم والذين اذا دعوا الى الله ورسوله كانوا بطاء ، واذا دعوا الى الشيطان وأمره كانوا سراعا » . وقال ابن مسعود لا يكونن أحدكم إمّعة قالوا وما الامعة ؟ قال الذى يجرى مع كل ريح ، واتفقوا على أن ملاقاة الاثنين بوجهين نفاق وللنفاق علامات كثيرة وهذه من جملتها ، وقد روى أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مات فلم يصلّ عليه حذيفة فقال له عمر يموت رجل من أصحاب رسول الله ﷺ ولم تصلّ عليه . فقال يا أمير المؤمنين انه منهم . فقال نشدتك الله أنا منهم أم لا . قال اللهم لا ولا أؤمن منها أحدا بعدك . فان قلت بماذا يصير الرجل ذا لسانين وماحدّ ذلك ؟ فأقول اذا دخل على متعاديين وجامل كل واحد منهما وكان صادقا فيه لم يكن منافقا ولا ذا لسانين فان الواحد قد يصادق متعاديين ولكن صداقة ضعيفة لا تنتهى الى حد الاخوة اذ لو تحققت الصداقة لاقتضت معاداة الأعداء كما ذكرنا فى كتاب آداب الصحبة والأخوّة ، نعم لو نقل كلام كل واحد منهما الى الآخر فهو ذو لسانين وهو شر من النميمة إذ يصير نماما بأن ينقل من أحد الجانبين فقط . فاذا نقل من الجانبين فهو شر من النمام وان لم ينقل كلاما ، ولكن حسن لكل واحد منهما ماهو عليه من المعاداة مع صاحبه فهذا ذو لسانين ، وكذلك اذا وعد كل واحد منهما بان ينصره ، وكذلك اذا أثنى على كل واحد منهما فى معاداته ، وكذلك اذا أثنى على أحدهما وكان اذا خرج من عنده يذمه فهو ذو لسانين بل ينبغى أن يسكت أو يثنى على المحق من المتعاديين ويثنى عليه فى غيبته وفى حضوره وبين يدى عدوّه . قيل لابن عمر رضى الله عنهما (٢) إنا ندخل على أمرائنا فنقول القول فاذا خرجنا قلنا غيره ، فقال كنا نعدّ هذا نفاقا على عهد رسول الله ﷺ وهذا نفاق مهما كان مستغنيا عن الدخول على الأمير وعن الثناء عليه فلو استغنى عن الدخول ، ولكن اذا دخل يخاف ان لم يثن فهو نفاق لأنه الذى أحوج نفسه الى ذلك ، فان كان مستغنيا عن الدخول لو قنع بالقليل وترك المال والجاه فدخل لضرورة الجاه والغنى وأثنى فهو منافق ، وهذا معنى قوله ﷺ « (٣) حبّ المال والجاه ينبتان النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل » لأنه يحوج إلى الأمراء والى مراعاتهم ومراآتهم . فأما اذا ابتلى به لضرورة وخاف ان لم يثن فهو معذور . فان اتقاء الشرّ جائز . قال أبو الدرداء رضى الله عنه « إنا لنكشر فى وجوه أقوام ، وان قلوبنا لتلعنهم » . وقالت عائشة رضى الله عنها « (٤) استأذن رجل على رسول الله ﷺ . فقال ائذنوا له فبئس رجل العشيرة هو ، ثم لما دخل ألان له القول . فلما خرج قلت يارسول الله قلت فيه ماقلت ثم ألنت له القول ، فقال ياعائشة ان شرّ الناس الذى يكرم اتقاء شرّه » ، ولكن هذا ورد فى الاقبال وفى التكشر والتبسم . فاما الثناء فهو كذب صراح ، ولا يجوز إلا لضرورة أو اكراه يباح الكذب بمثله كما ذكرناه فى آفة الكذب بل لا يجوز

(١) حديث أبغض خليقة الله الى الله يوم القيامة الكذابون والمستكبرون والذين يكثرون البغضاء لاخوانهم فى صدورهم فاذا لقوهم تملقوا لهم ، الحديث لم أقف له على أصل

(٢) حديث : قيل لابن عمر إنا ندخل على أمرائنا فنقول القول فاذا خرجنا قلنا غيره . قال كنا نعدّ ذلك نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الطبرانى من طرق

(٣) حديث : حب الجاه والمال ينبتان النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل ، أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة بسند ضعيف الا أنه قال حب الماء . وقال العشب مكان البقل

(٤) حديث عائشة استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ائذنوا له فبئس رجل العشيرة الحديث ، وفيه إن شر الناس الذى يكرم اتقاء لشره ، متفق عليه ، وقد تقدم فى الآفة التى قبلها

الثناء ولا التصديق ولا تحريك الرأس فى معرض التقرير على كل كلام باطل فان فعل ذلك فهو منافق بل ينبغى أن ينكر فان لم يقدر فيسكت بلسانه وينكر بقلبه .

الآفة الثامنة عشرة المدح

وهو منهى عنه فى بعض المواضع ، أما الذم فهو الغيبة والوقيعة وقد ذكرنا حكمها ، والمدح يدخله ست آفات : أربع فى المادح ، واثنتان فى الممدوح [فأما المادح : فالأولى] أنه قد يفرط فينتهى به الى الكذب . قال خالد بن معدان من مدح اماما أو أحدا بما ليس فيه على رؤوس الاشهاد بعثه الله يوم القيامة يتعثر بلسانه [الثانية] انه قد يدخله الرياء فانه بالمدح مظهر للحب ، وقد لا يكون مضمرا له ولا معتقدا لجميع مايقوله فيصير به مرائيا منافقا [الثالثة] انه قد يقول مالا يتحققه ولا سبيل له الى الاطلاع عليه ، روى (١) أن رجلا مدح رجلا عند النبى ﷺ . فقال له عليه السلام « ويحك قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح » ثم قال ان كان أحدكم لابد مادحا أخاه فليقل أحسب فلانا ولا أزكى على الله أحدا حسيبه الله ان كان يرى أنه كذلك ، وهذه الآفة تتطرق الى المدح بالأوصاف المطلقة التى تعرف بالأدلة : كقوله انه متق وورع وزاهد وخير ومايجرى مجراه ، فأما اذا قال رأيته يصلى بالليل ويتصدق ويحج فهذه أمور مستيقنة ، ومن ذلك قوله انه عدل رضا فان ذلك خفى ، فلا ينبغى أن يجزم القول فيه الا بعد خبرة باطنه . سمع عمر رضى الله عنه رجلا يثنى على رجل . فقال أسافرت معه . قال لا . قال أحاطته فى المبايعة والمعاملة ؟ قال لا . قال فأنت جاره صباحه ومساءه ؟ قال لا . فقال والله الذى لا إله إلا هو لا أراك تعرفه [الرابعة] انه قد يفرح الممدوح وهو ظالم أو فاسق وذلك غير جائز قال رسول الله ﷺ « (٢) ان الله تعالى يغضب إذا مدح الفاسق » . وقال الحسن : من دعا لظالم بطول البقاء فقد أحب أن يعصى الله تعالى فى أرضه ، والظالم الفاسق ينبغى أن يذم ليغتم ولا يمدح ليفرح [وأما الممدوح : فيضره من وجهين] أحدهما . أنه يحدث فيه كبرا وإعجابا ، وهما مهلكان . قال الحسن رضى الله عنه كان عمر رضى الله عنه جالسا ومعه الدرة والناس حوله إذ أقبل الجارود فلما دنا منه خفقه بالدرة ، فقال رجل هذا سيد ربيعة فسمعها عمر ومن حوله وسمعها الجارود فلما دنا منه خفقه بالدرة ، فقال مالى ولك يا أمير المؤمنين قال مالى ولك أما لقد سمعتها . قال خشيت أن يخالط قلبك منها شىء فأحببت أن أطأطئ منك [الثانى] هو أنه إذا أثنى عليه بالخير فرح به وفتر ورضى عن نفسه ، ومن أعجب بنفسه قل تشمره ، وانما يتشمر للعمل من يرى نفسه مقصرا ، فأما اذا انطلقت الألسن بالثناء عليه ظن أنه قد أدرك ، ولهذا قال عليه السلام : قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح ، وقال ﷺ (٣) : « اذا مدحت أخاك فى وجهه فكأنما أمررت على حلقه موسى وميضا » وقال أيضا لمن مدح رجلا (٤) « عقرت الرجل عقرك الله » . وقال مطرف

---

(١) حديث : ان رجلا مدح رجلا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ويحك قطعت عنق صاحبك متفق عليه من حديث أبى بكرة نحوه ، وهو فى الصمت لابن أبى الدنيا بلفظ المصنف

(٢) حديث : ان الله يغضب اذا مدح الفاسق ابن أبى الدنيا فى الصمت والبيهقى فى الشعب من حديث أنس ، وفيه أبو خلف خادم أنس ضعيف ، ورواه أبو يعلى الموصلى وابن عدى : بلفظ اذا مدح الفاسق غضب الرب واهتز العرش . قال الذهبى فى الميزان منكر وقد تقدم فى آداب الكسب

(٣) حديث : اذا مدحت أخاك فى وجهه فكأنما أمررت على حلقه موسى وميضا ، ابن المبارك فى الزهد والرقائق من رواية يحيى بن جابر مرسلا .

(٤) حديث : عقرت الرجل عقرك الله ، قاله لمن مدح رجلا ، لم أجد له أصلا .

« ماسمعت قط ثناء ولامدحة إلا تصاغرت إلىّ نفسى » . وقال زياد بن أبى مسلم : « ليس أحد يسمع ثناء عليه أومدحة إلا تراءى له الشيطان ، ولكن المؤمن يراجع ، فقال ابن المبارك : لقد صدق كلاهما ، أما ماذكره زياد فذلك قلب العوام ، وأما ماذكره مطرّف فذلك قلب الخواص » وقال ﷺ (١) « لومشى رجل إلى رجل بسكين مرهف كان خيرا له من أن يثنى عليه فى وجهه » . وقال عمر رضى الله عنه : المدح هوالذبح ، وذلك لأن المذبوح هوالذى يفتر عن العمل ، والمدح يوجب الفتور ، أولأن المدح يورث العجب والكبر وهما مهلكان كالذبح فلذلك شبهه به ، فان سلم المدح من هذه الآفات فى حق المادح والممدوح لم يكن به بأس ، بل ربما كان مندوبا إليه ، ولذلك أثنى رسول الله ﷺ على الصحابة فقال (٢) : « لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان العالم لرجح » . وقال فى عمر (٣) « لولم أبعث لبعثت يا عمر » ، وأىّ ثناء يزيد على هذا ! ولكنه صلى الله عليه وسلم قال عن صدق و بصيرة ، وكانوا رضى الله عنهم أجل وأبعد من أن يعتقد ذلك كبرا وعجبا وفتورا ، بل مدح الرجل نفسه قبيح لما فيه من الكبر والتفاخر إذ قال ﷺ (٤) « أنا سيد ولد آدم ولافخر » أى لست أقول هذا تفاخرا كما يقصده الناس بالثناء على أنفسهم ، وذلك لأن افتخاره صلى الله عليه وسلم كان بالله و بالقرب من الله لابولد آدم وتقدمه عليهم كما أن المقبول عند الملك قبولا عظيما إنما يفتخر بقبوله إياه و به يفرح لابتقدّمه على بعض رعاياه ، و بتفصيل هذه الآفات تقدر على الجمع بين ذم المدح و بين الحثّ عليه . قال صلى الله عليه وسلم (٥) وجبت لما أثنوا على بعض الموتى . وقال مجاهد : إن لبنى آدم جلساء من الملائكة ، فاذا ذكر الرجل المسلم أخاه المسلم بخير قالت الملائكة ولك بمثله ، واذا ذكره بسوء قالت الملائكة يا ابن آدم المستور عورتك أربع على نفسك واحمد الله الذى ستر عورتك ، فهذه آفات المدح .

بيان ماعلى الممدوح

اعلم أن على الممدوح أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر والعجب وآفة الفتور ، ولاينجومنه إلا بأن يعرف نفسه ، ويتأمّل مافى خطر الخاتمة ، ودقائق الرياء ، وآفات الأعمال ، فانه يعرف من نفسه مالايعرفه المادح ولوانكشف له جميع أسراره ومايجرى على خواطره لكف المادح عن مدحه ، وعليه أن يظهر كراهة المدح بإذلال المادح . قال ﷺ (٦) : « احثوا التراب فى وجوه المادحين » . وقال سفيان بن عيينة :

(١) حديث : لومشى رجل إلى رجل بسكين مرهف كان خيرا له من أن يثنى عليه فى وجهه ، لم أجده أيضا .

(٢) حديث : لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان العالمين لرجح ، تقدم فى العلم .

(٣) حديث : لولم أبعث لبعثت ياعمر ، أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة ، وهومنكر ، والمعروف حديث عقبة بن عامر : « لوكان بعدى نبىّ لكان عمر بن الخطاب » . رواه الترمذى وحسنه .

(٤) حديث : أنا سيد ولد آدم ولافخر ، الترمذى وابن ماجة من حديث أبى سعيد الخدرىّ والحاكم من حديث جابر وقال صحيح الاسناد ، وله من حديث عبادة بن الصامت : « أنا سيد الناس يوم القيامة ولافخر » ولمسلم من حديث أبى هريرة : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة » .

(٥) حديث : وجبت ، قاله لما أثنوا على بعض الموتى ، متفق عليه من حديث أنس .

(٦) حديث : احثوا فى وجوه المداحين التراب ، مسلم من حديث المقداد .

« لا يغرّ المدح من عرف نفسه » ، وأثنى على رجل من الصالحين فقال : اللهم ان هؤلاء لا يعرفونى وأنت تعرفنى . وقال آخر لما أثنى عليه : اللهم ان عبدك هذا تقرّب إلىّ بمحبتك ، وأنا أشهدك على مقته . وقال علىّ رضى الله عنه لما أثنى عليه : « اللهم اغفر لى مالا يعلمون ، ولا تؤاخذنى بما يقولون ، واجعلنى خيرا مما يظنون » . وأثنى رجل على عمر رضى الله عنه فقال « أتهلكنى وتهلك نفسك » . وأثنى رجل على علىّ كرّم الله وجهه فى وجهه ، وكان قد بلغه أنه يقع فيه ، فقال : أنا دون ماقلت ، وفوق مافى نفسك .

الآفة التاسعة عشرة

الغفلة عن دقائق الخطأ فى خوى الكلام لاسيما فيما يتعلق بالله وصفاته ويرتبط بأمور الدين فلا يقدر على متتبع ملاحظ فى أمور الدين إلا العلماء الفصحاء ، فمن قصر فى علم أوفصاحة لم يخل كلامه عن الزلل ، لكن الله تعالى يعفو عنه لجهله ، مثاله ماقال حذيفة : قال النبىّ ﷺ (١) : « لا يقل أحدكم ماشاء الله وشئت ولكن ليقل ماشاء الله ثم شئت » وذلك لأن فى العطف المطلق تشريكا وتسوية ، وهو على خلاف الاحترام . وقال ابن عباس رضى الله عنهما (٢) : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يكلمه فى بعض الأمر فقال ماشاء الله وشئت فقال صلى الله عليه وسلم : أجعلتنى لله عديلا ؟ بل ماشاء الله وحده . وخطب رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (٣) : « من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى ، فقال : قل ومن يعص الله ورسوله فقد غوى » فكره رسول الله ﷺ قوله ومن يعصهما لأنه تسوية وجمع . وكان ابراهيم يكره أن يقول الرجل : أعوذ بالله و بك . ويجوز أن يقول : أعوذ بالله ثم بك ، وأن يقول لولا الله ثم فلان ولا يقول لولا الله وفلان . وكره بعضهم أن يقال : اللهم اعتقنا من النار ، وكان يقول : العتق يكون بعد الورود ، وكانوا يستجيرون من النار ويتعوّذون من النار . وقال رجل : اللهم اجعلنى ممن تصيبه شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال حذيفة : إن الله يغنى المؤمنين عن شفاعة محمد وتكون شفاعته للمذنبين من المسلمين . وقال ابراهيم اذا قال الرجل للرجل ياحمار ياخنزير قيل له يوم القيامة حمارا رأيتنى خلقته خنزيرا رأيتنى خلقته . وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان أحدكم ليشرك حتى يشرك بكلبه فيقول لولاه لسرقنا الليلة ، وقال عمر رضى الله عنه (٤) قال رسول الله ﷺ ان الله تعالى ينهاكم أن تحلفوا آبائكم من كان حالفا فليحلف بالله أوليصمت ، قال عمر رضى الله عنه فوالله ما حلفت بها منذ سمعتها . وقال ﷺ (٥) « لا تسموا العنب كرما انما الكرم الرجل المسلم » . وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ : لا يقولن أحدكم عبدى ولا أمتى كلكم عبيد الله وكل نسائكم إماء الله ، وليقل غلامى وجاريتى ، وفتاى وفتاتى ، ولا يقول المملوك ربى ولا ربتى ، وليقل سيدى وسيدتى ، فكلكم عبد الله ، والرب الله سبحانه وتعالى . وقال ﷺ (٦) : « لا تقولوا للفاسق سيدنا

---

(١) حديث حذيفة : لا يقل أحدكم ماشاء الله وشئت الحديث ، أبوداود والنسائى فى الكبرى بسند صحيح

(٢) حديث ابن عباس : جاء رجل إلى النبىّ ﷺ فكلمه فى بعض الأمر فقال ماشاء الله وشئت فقال : أجعلتنى لله عدلا ؟ قل ماشاء الله وحده ، النسائى فى الكبرى باسناد حسن ، وابن ماجه .

(٣) حديث : خطب رجل عند النبى ﷺ فقال : من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى ، الحديث مسلم من حديث عدى بن حاتم .

(٤) حديث عمر : ان الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، متفق عليه .

(٥) حديث : لا تسموا العنب كرما إنما الكرم الرجل المسلم ، متفق عليه من حديث أبى هريرة .

(٦) حديث : لا تقولوا للفاسق سيدنا ، الحديث أبوداود من حديث بريدة بسند صحيح .

فانه ان يكن سيدكم فقد أسخطتم ربكم » . وقال ﷺ (١) : « من قال أنا برىء من الاسلام فان كان صادقا فهو كما قال ، وان كان كاذبا فلن يرجع الى الاسلام سالما » فهذا وأمثاله مما يدخل فى الكلام ولا يمكن حصره . ومن تأمل جميع ما أوردناه من آفات اللسان علم أنه اذا أطلق لسانه لم يسلم ، وعند ذلك يعرف سر قوله صلى الله عليه وسلم (٢) : « من صمت نجا » لأن هذه الآفات كلها مهالك ومعاطب وهى على طريق المتكلم فان سكت سلم من الكل وان نطق وتكلم خاطر بنفسه إلا أن يوافقه لسان فصيح وعلم غزير وورع حافظ ، ومراقبة لازمة ، ويقلل من الكلام ، فعساه يسلم عند ذلك ، وهو مع جميع ذلك لا ينفك عن الخطر ، فان كنت لا تقدر على أن تكون ممن تكلم فغنم ، فكن ممن سكت فسلم ، فالسلامة إحدى الغنيمتين .

الآفة العشرون

سؤال العوام عن صفات الله تعالى ، وعن كلامه ، وعن الحروف ، وانها قديمة أو محدثة ، ولم حقهم الاشتغال بالعمل بما فى القرآن إلا أن ذلك ثقيل على النفوس ، والفضول خفيف على القلب ، والعامى يفرح بالخوض فى العلم إذ الشيطان يخيل إليه انك من العلماء وأهل الفضل ، ولا يزال يحبب إليه ذلك حتى يتكلم فى العلم بما هو كفر وهو لا يدرى ، وكل كبيرة يرتكبها العامى فهى أسلم له من أن يتكلم فى العلم لاسيما فيما يتعلق بالله وصفاته ، وانما شأن العوام الاشتغال بالعبادات ، والايمان بما ورد به القرآن ، والتسليم لما جاء به الرسل من غير بحث ، وسؤالهم عن غير ما يتعلق بالعبادات سوء أدب منهم يستحقون به المقت من الله عز وجل ويتعرضون لخطر الكفر وهو كسؤال ساسة الدواب عن أسرار الملوك وهو موجب للعقوبة ، وكل من سأل عن علم غامض ولم يبلغ فهمه تلك الدرجة فهو مذموم فانه بالاضافة اليه عامى ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (٣) « ذرونى ما تركتكم فانما هلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم » . وقال أنس (٤) : سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فأكثروا عليه وأغضبوه ، فصعد المنبر وقال سلونى ولا تسألونى عن شىء إلا أنبأتكم به ، فقام إليه رجل فقال يارسول الله من أبى ؟ فقال أبوك حذافة ، فقام إليه شابان أخوان فقالا يارسول الله من أبونا ؟ فقال أبوكما الذى تدعيان إليه ، ثم قام إليه رجل آخر فقال يارسول الله أفى الجنة أنا أم فى النار ؟ فقال لا بل فى النار ، فلما رأى الناس غضب رسول الله ﷺ أمسكوا ، فقام إليه عمر رضى الله عنه فقال : رضينا بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا ، فقال : اجلس يا عمر رحمك الله ، انك ما علمت لموفق ، وفى الحديث (٥) « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القيل والقال ، واضاعة المال ، وكثرة السؤال » . وقال صلى

---

(١) حديث : من قال أنا برىء من الاسلام ، فان كان صادقا فهو كما قال ، الحديث النسائى وابن ماجه من حديث بريدة باسناد صحيح .

(٢) حديث : من صمت نجا . الترمذى وقد تقدم فى أول آفات اللسان .

(٣) حديث : ذرونى ما تركتكم وانما هلك من كان قبلكم بسؤالهم ، الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة .

(٤) حديث : سأل الناس رسول الله ﷺ يوما حتى أكثروا عليه وأغضبوه فصعد المنبر فقال سلونى فلا تسألونى عن شىء إلا أنبأتكم به . الحديث متفق عليه مختصرا على سؤال عبد الله بن حذافة وقول عمر . ولمسلم من حديث أبى موسى : فقام آخر فقال من أبى ؟ فقال أبوك سالم مولى شيبة .

(٥) حديث : النهى عن قيل وقال ، واضاعة مال ، وكثرة السؤال ، متفق عليه من حديث المغيرة ابن شعبة .

الله عليه وسلم [١] « يوشك الناس يتساءلون حتى يقولوا قد خلق الله الخلق فمن خلق الله ؟ فاذا قالوا ذلك فقولوا « قل هو الله أحد ، الله الصمد » حتى تختموا السورة ، ثم ليتفل أحدكم عن يساره ثلاثا ، وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم . وقال جابر [٢] : « مانزلت آية المتلاعنين إلا لكثرة السؤال » ، وفى قصة موسى والخضر عليهما السلام تنبيه على المنع من السؤال قبل أوان استحقاقه إذ قال : « فان اتبعتنى فلاتسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا » فلما سأل عن السفينة أنكر عليه حتى اعتذر وقال : « لاتؤاخذنى بما نسيت ولاترهقنى من أمرى عسرا » فلما لم يصبر حتى سأل ثلاثا « قال هذا فراق بينى و بينك » وفارقه . فسؤال العوام عن غوامض الدين من أعظم الآفات ، وهومن المثيرات للفتن ، فيجب دفعهم ومنعهم من ذلك وخوضهم فى حروف القرآن يضاهى حال من كتب الملك إليه كتابا ، ورسم له فيه أمورا فلم يشتغل بشىء منها ، وضيع زمانه فى أن قرطاس الكتاب عتيق أم حديث فاستحق بذلك العقوبة لامحالة ، فكذلك تضييع العامى حدود القرآن واشتغاله بحروفه أهى قديمة أم حديثة ؟ وكذلك سائر صفات الله سبحانه وتعالى ، والله تعالى أعلم . انتهى ما أردته من كتاب [إحياء علوم الدين] للامام الغزالى ، والحمد لله رب العالمين .

***

ولنشرع الآن فى ذكر ما جاء فى كتابى [جوهر التقوى] فقد جاء فيه فى صفحة ١٢٩ ومابعدها تحت العنوان الآتى مانصه :

الحسد

الحسد هوكراهة النعمة وحب زوالها عن المنعم عليه ، ومن تمنى مثل نعمة غيره فهو الغابط والمنافس ، وهوليس بحاسد :

أسبابه

(١) العداوة (٢) التعزز (٣) الكبر (٤) العجب (٥) الخوف من فوت المقاصد المحبوبة (٦) حب الرئاسة (٧) حب النفس و بخلها ، فيثور الحسد فى النفس على مقتضى الأسباب .

فمن كره امرأ ثقلت عليه نعمته ، وسرته بليته ، واستعذب سقاءه ، ومرت عليه حلاوته ، ومن لم تلن شرته دامت حسرته ، وكم من امرئ كانت نعمته الموهوبة وسعادته المستحدثة وسيلة للاستعلاء فيثور الحسد فى قلب قرينه ، ويأبى إلا التعزز عليه فلايخضع لاستطالته ، ولايصغر لعظمته ، ومن كانت الكبرياء صفة نفسه لم يستطع أن يرى المتكبر عليهم يساوونه ، ولم يطق صبرا على نعمة لهم حدثت وسعادة أقبلت ، ليبقى عليهم ظاهرا ، وفوقهم قاهرا ، ذلك بسبب الكبر الذى فى نفسه وان لم يتعاظموا عليه . وكم من فتى أثار الحسد فى قلبه ، واشتعل نيرانه ، وألهب سعيره ، تعجبه من ترادف النعم على من يخالفونه ، واستغرابه من تتابع المواهب ، وتواصل المنح ، وتوارد اللطائف ، وقد يشفق من زوال محبوب يبتغيه ، أوفوات مطلوب يرتجيه ، اذا ذاق معارفه نعمه من يبغضهم ، فيتأسفون على مصابه ، ويزاحمونه فى سلوك سبيله ، كأمر يملكها أوعرس يبتغيها ، أودرجة يرتضيها . أومنصب يتمناه ، ومن الناس من يحسد حب الرياسة ، ويتخشاه من وهن سلطانه ، وانخفاض بنيانه ، وتقويض عزه واضمحلاله ، وآخرون خشت نفوسهم ، وضل سعيهم ، فيحسدون

---

(١) حديث : « يوشك الناس يتساءلون بينهم حتى يقولوا قد خلق الله الخلق » الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم .

(٢) حديث جابر : « مانزلت آية الملاعنة إلا لكثرة السؤال » رواه البزار باسناد جيد .

الناس على ما آتاهم الله من فضله بلاسبب إلا مرض نفوسهم وشحها ، وسوء طويتهم ، يودّون أن لومنع الله الرحمة عن العباد لايطلبون الانفراد بها ، ولا السيادة على غيرهم ، ولكن أنفسهم ضيقة العطن ، عديمة الفطن ، قليلة الخير ، ميتة الأفئدة ، أولئك هم الحاسدون الضالون .

وكلما تضافرت الأسباب بالاجتماع فى المجالس ، والتجاور فى المنازل . والاشتراك فى الحرمة ، والاقتراب بالنسب أوالمصاهرة كان اضطرام نارالحسد أشدّ ، وامتداد لهيبها أسرع ، وازداد سعيرها ، وطغى شررها ، وغلت مراجلها ، فزاد احراقها لموادّ المحبات ، و إبادتها للمذات المودّات ، وكانت الحياة حياة الأشرار إذ ذاك شرا و بيلا ، وعذابا أليما . قال ﷺ : « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » . وقال عليه السلام : « لاتحاسدوا ولاتقاطعوا ولاتباغضوا ولاتدابروا وكونوا عباد الله إخوانا » . وقال أنس : « كنا جلوسا عند رسول الله ﷺ فقال : يطلع عليكم من هذا الفج رجل من أهل الجنة فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه ، قد علق نعليه فى يده الشمال فسلم فلما كان الغد قال النبىّ ﷺ مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل وقاله فى اليوم الثالث ، فطلع ذلك الرجل ، فلما قام النبىّ ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص ولزمه ثلاثة أيام فى بيته فلم يجده يصلى بالليل ، فاحتقر عمل الرجل ، فسأله ما الذى بلغ بك ؟ فقال هومارأيت ، غيرأنى لاأجد على أحد من المسلمين فى نفسى غشا ولاحسدا على خير أعطاه الله إياه ، قال عبد الله : فقلت هى التى بلغت بك وهى التى لانطيق . وقال ﷺ : « ثلاثة لاينجومنهن أحد : الظنّ ، والطيرة ، والحسد ، وسأحدّثكم بالمخرج من ذلك : اذا ظننت فلاتحقق ، واذا تطيرت فامض ، واذا حسدت فلاتبغ » . وقال الشاعر :

يا أحمد اقنع بالذى أوتيته * ان كنت لاترضى لنفسك ذلها
واعلم بأن الله جلّ جلاله * لم يخلق الدنيا لأجلك كلها

لاتسلط على قلبك نيران الحسد التى يثيرها أسبابها ، وتفكر فى مصائبه ورذائله ، وماينجم عنه من العذاب الأليم فى الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشدّ وأبقى .

ومن ابتلى بالحسد والعياذ بالله كيفما كانت أسبابه تقطعت به الأسباب وأزرى به الكمد ، وتنغص عيشه ألاترى أن نعم الله مترادفة لاينقطع مددها ، ولاينفد خيرها ، ومن ذا أشقى ممن عدّ نعم الله شقاء عليه وجنته نار عذابه ، ودارشقائه ، فهل يمسك الله المطر خشية عليه ، أو يمسك الكواكب لئلا ينقطع فؤاده . والشمس والقمر والنجوم والجبال والأرض والأنهارمسخرات للعباد وهنائهم وراحتهم وسعادتهم ، فسبحانك اللهم أشقيت قلوبا بالرحمات ، إذ نسوا أنفسهم فتاهوا فى أودية الضلالات ، فعدّوا نعم الله على الناس نقما ، وحسبوها لهم شقاء دائما ، فما أكثر نعم الله ، وما أدوم شقاءهم ، وقلت :

وفى القلب نيران وفى القلب جنة * وما أكثر الآلام إلا من الفكر

وكفى الحاسد عذابا أنه معذب بنعيم غيره ، مع قب على الحسد بنفس الحسد ، فلذلك كان طول الحياة له شقاء وموته راحة له ، فكما يتمنى الحاسد زوال نعمة المحسودين يشفى غليل صدور محسوديه أن تطول حياته فيطول عذابه كما قيل :

لامات أعداؤك بل خلدوا * حتى يروا فيك الذى يكمد
لازلت محسودا على نعمة * فانما الكامل من يحسد

الثبات والعزيمه

الثبات المداومة على العمل ، والعزيمة من أحوال الارادة ، والثبات حال داعية لادامة العمل إلى النهاية . كم فى الناس من عامل ، وقلّ أولوالعزم ، ولم ينل الرغائب ، و يحظ بالمطالب ، إلا من صحح العزم ، وشمر عن ساعد الجدّ ، وامتطى العمل .

درك المعالى فى اقتحام المخاوف ✲ ونيل الأمانى فى ارتقاء التنائف
وما نال مجدا من أدار عروسه ✲ وباتت تعاطيه سلاف المراشف
وقد قلت
إلى ذروة العلياء ياسائق الحرف ✲ فانى شممت اليوم منهاشذا العرف

وما جمع امرؤ أمره ، وجدّ فى طلب مايروم ، إلا خضعت له الآمال ، ودانت له المعالى ، وفاز بالسعادة والكمال ، وتأمّل كيف مدح الله أولى العزم فقال : « فاصبر كما صبر أولوالعزم من الرّسل » وقصّ عليه أنباءهم ، وكان قصارى أمرهم أنهم فازوا بالسعادة هم والتابعون ، وخسر أولئك الجاهلون .

الصبر

الصبر ثبات الباعث للخير والفضيلة فى مقابلة الباعث للشرّ والرذيلة ، وذلك أن الانسان يشارك الدواب فى الشهوة والغضب ، وليس للصبى ولا للمجنون ولا للبهائم من داع يدعو لقهر الشهوات ، ولامن رادع يردع عن اللذات ، الا إنما يظهر جهادهما ، و يبين التغاضى عنهما ، والتخلى من غائلتهما ، لمن عقل واستبصر وادّكر وتفكر ، ورأى سبيل الرشد فاتخذه سبيلا ، وسبيل الغىّ فلم يتخذه سبيلا .

و بذلك يمتاز العاقل من الانسان عن المجنون والصبى والحيوان ، فالحيوان أسير شهواته ، والعاقل من الانسان عليم بما يعقب الأسر من الاذلال ، ومايجرّ من الوبال ، وهنالك تبتدئ داعية المجاهدة ، وتتولد فى النفس حال تدعو للمقاومة والمناضلة ، فهذه الحال هى المسماة بالصبر الناجة من العلم والهداية الداعية لترك الضلال والغواية ، ألا وان العلم بمغبة الشهوات وغائلة اللذات باعث لقيام حال النيات بالأنفس ، وتلك الحال تمر الأعمال ، فالعلم شجرة ، والأحوال أغصانها ، والأعمال أثمارها .

أسماء الصبر

الصبر فى الأخلاق كالحديد فى الصناعات والملح فى الطعام ، فلاترى طاعة ، ولاخلقا حسنا إلا والصبر مفتاحه وعماده وقوامه ، ألاترى كيف شمل الأعمال البدنية ، والأحوال النفسية ، فمن احتمل المرض والألم والجراح المصمية ، وقام بالأعمال الشريفة فى عبادة يقيمها ، أوزراعة يتقنها ، أوصناعة يحسنها ، أوتجارة يديرها ، أوادارة ينظمها ، فهو من الصابرين فى المرعين : الاحتمال والأعمال .

العفة

ومن ركى نفسه بالتباعد عن مقتضى شهوتى البطن والفرج فهوالعفيف حتى لايطيع داعى اللهو والزينة ، ولايتدانى من المحرّمات ، ومن تعالت نفسه عن الخضوع لنائبات الدهر سمى صابرا ، والافهوالجازع والهلوع ، برفع الصوت ، وضرب الخد ، وشق الجيب .

ضبط النفس والبطر والمرح

واذا لم تستفزه داعيات الغنى ، فهو الضابط لنفسه ، والافهو البطر المرح .

الشجاع والجبان

وان قاوم الأقران فى ساحة الحرب والميدان ، فهو الشجاع والا فهو الجبان ، وان كظم غيظه ، ولزم السكينة عند اهتياج الغضب ، فهو الحليم والا فهو الأحمق السفيه .

كتم السرّ وافشاؤه

واذا أخفى الكلام لاقتضاء المقام فهو الكتوم للسرّ ، والا فهو المفشى للأسرار ، فان اطمأنت نفسه فلم تجزع على فصول العيش فهو الراضى ، والا فهو الحريص .

القناعة والشره

ومن اكتفى بالقليل فهو القنوع ، وضده الشره ، فأنت من هذا ترى أن الصبر ماترك بابا من الأخلاق إلا ولجه ، ولاخصلة إلاقرعها ، فهو جدير بقوله صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن الايمان [هوالصبر] .

ولما كانت أحوال الانسان لاتخلومن مكروه يحتمله ، أومحبوب يشكرعليه ، روى ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال « الايمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر » ولما كان المصبور عليه إما شهوة واما غضبا ، كان الصوم صبرا عن شهوتى البطن والفرج ، لا العضب ، ولذا طهر سرّ قوله صلى الله عليه وسلم « الصوم نصف الصبر » فيكون الصوم ربع الايمان ، وقد يراد بالايمان مايشمل العلم والعمل ، ولاعمل إلا مع الصبر تركا أو فعلا ، فيكون الايمان راجعا ليقين وعمل على مقتضاه ، فلذلك قال ﷺ : « من أقلّ ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ، ومن أعطى حظه منهما لم يبال بما فاته من قيام الليل وصيام النهار ، ولأن تصبروا على ما أنتم عليه أحبّ إلىّ من أن يأتينى كل امرئ منكم بمثل عمل جميعكم ، ولكنى أخاف عليكم أن تفتح الدنيا عليكم بعدى فينكر بعضكم بعضا ، وينكركم أهل السماء عند ذلك ، فمن صبر واحتسب ظفر بثوابه ، ثم قرأ قوله تعالى : [ماعندكم ينفد وما عند الله باق] » .

وروى جابر أنه سئل ﷺ عن الايمان فقال : الصبر والسماحة . وقال صلى الله عليه وسلم : الصبر كنز من كنوز الجنة » . وعن عطاء عن ابن عباس قال : لما دخل رسول الله ﷺ قال أمؤمنون أنتم ؟ فسكتنا فقال عمر نعم يارسول الله ، قال : وما علامة إيمانكم ؟ قالوا : نشكرعلى الرخاء ، ونصبر على البلاء ، ونرضى بالقضاء ، فقال صلى الله عليه وسلم مؤمنون ورب الكعبة . وقال تعالى : « والصابرين فى البأساء والضرّاء وحين البأس » أى المصيبة والفقر والحرب .

الصبر واحد ، وانما اختلفت الأسماء لاختلاف المواطن كضوء الشمس يسطع على الأشجار والأزهار والثمار فتختلف الألوان لتعدّد الأشكال ، واحذر أن تضلّ فى الألفاظ ، وارع المعانى ، واحذر شبهات الاصطلاحات الواردة .

الشجاعة

الشجاعة هى الاقدام على الأهوال مع الروية والتدبير ، ومن أقدم بلاروية أوأحجم وقد فاجأه العدوّ فليس بشجاع ، وانماهوفى الأولى متهوّر ، وفى الثانية جبان ضعيف . الشجاعة أحدالأركان الأربعة ومنزلتهامنها

منزلة الجنود من الممالك ، والحصون من الأمصار ، ولكم تمدح شعراء الشرق والغرب بالشجاعة ، وحضوا عليها أممهم ، فالعظيم من لبس تاجها ، والوضيع من حرم فضيلتها ، وحيل بينه وبينها ، الرجل الضعيف القلب الجبان مهضوم الحق مقصوص الجناح ، لايقضون له حاجة ، ولايسمعون له قولا ، الجبان أشبه شيء بالدجاجة يؤكل لحمه وهو مهين ، والشجاع كالأسد ، يحترم ويحرم أكله ، وهو مصون ، ومامن أمة فقدت شجاعتها ، واستسلمت ، ونامت على فراش الراحة الوثير إلا ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة ، وباءوا بغضب من الله ، ذلك بأنهم قوم مستضعفون ، ألم تر الى عمرو بن كلثوم ، حين قالت هند أم عمرو ملك العرب لليلى بنت المهلهل ابن ربيعة أخي كليب وائل أم عمرو بن كلثوم ياليلى ناوليني الطبق كيف تحمس ابن كلثوم وقتله وقال في معلقته :

أبا هند فلاتعجل علينا ✲ وانظرنا نخبرك اليقينا
بأنا نورد الرايات بيضا ✲ ونصدرهن حمرا قد روينا
بأي مشيئة عمرو بن هند ✲ نكون لقيلكم فيها قطينا

ومنها

لنا الدنيا ومن أمسى عليها ✲ ونبطش حين نبطش قادرينا
بغاة ظالمين وما ظلمنا ✲ ولكنا سنبدأ ظالمينا

افرط وغلاهنا في القوة الغضبية ، وتجاوز الحد كزهير وعنترة فيما سيأتي وهذا مذموم كالجبن . الجبن مذموم ، والتهور مذموم ، والشجاعة الوسط . وقال زهير :

ومن لايذد عن حوضه بسلاحه ✲ يهدم ومن لايظلم الناس يظلم

ثم انظر كيف قتل جساس البكري كليبا التغلبي بناقة سعد جارهم ، وكيف طلب التغلبيون من البكريين قتل جساس قاتل سيدهم ، فأخذت مرة أبا جساس العزة بالاثم وأبى تسليم القاتل فكانت الحروب الشعواء والداهية الدهماء ، وتفاني الحيان بكر وتغلب .

هذه صفة شجاعة العرب الجاهلية الأولى إذ كانوا يحمون الذمار ، ويدفعون العار ، ويوقدون النار ، ويحفظون الجار ، تلك فضيلة وأي فضيلة ، دلك شرف وأي شرف ، فخر وأي فخر ، ولكنه مصحوب بالجهل تابع لنزعات الشيطان ، ناصر للزور والبهتان ، فكانت الحاجة داعية إلى ما يقوم معوجها ، ويصلح فاسدها ، ولو تبصرت أحوال بلادنا اليوم لرأيت الحمية فيها جاهلية ، والنصر تابعا للعصبية ، لا للعدل في القضية ، فترى الناس سكارى في تشاجرهم وماهم بسكارى ولكن الجهل عظيم .

فنحن أحوج إلى عقل يقومنا ، ونمسك بالدين يرجعنا إلى الحق والصواب ، ألا تتعجب كيف جاء القرآن فوجه شجاعة العرب إلى الوجهة العامة والفضيلة الشريفة ، فقال تعالى : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » . وقال : « ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم » ولقد مدح الاعتدال في القوة إذ قال : « أشداء على الكفار رحماء بينهم » ونفر من الظلم فقال : « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » .

بذلك ذهبت تلك الحمية ، حمية الجاهلية الأولى ، الحمية المكانية الوقتية ، واستبدلت بأحسن منها وهي الشجاعة التي بها دوخوا المعمورة شرقا وغربا . وقد ذم الله رذيلة الجبن فقال : « وقعدوا لاخوانهم وقالوا لو أطاعونا ماقتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت ان كنتم صادقين » . ما أشأم هذه الخلة الخبيثة ، الضعيفة القوى ، الميتة الصبر تصاحبها الأيام قليلا ، وتسلم على أثرها رجالا مستكينين ، وتسلم لهم نعمة الزهر على أشجار الحظل في ساحة العز الحمى ، حتى دالت دولتهم ، وورثت القارعة ، وحكمت القاسية

والقضب فى أعناق الرجال ، عبست الأيام بعد ابتسامها ، وذاقوا مرّ الحنظل فقطع أمعاءهم بعد أن راقهم منظره الزاهر ، وأظلهم ورقه الناضر ، فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون ، فقطع دابر القوم الذين رضوا بالظلم واستناموا للخسف فأصبحوا فى ديارهم صاغرين .

ليست الشجاعة قاصرة على القتال والذب عن البلاد بالحرب . كلا . فليس يتمّ للناس عمل إلا بقوّة القلب وتحمل المكروه فى قول الحق ، ومامن عالم إلا ابتلى بمن يشنؤه .

لن ينقضّ بنيان البدعة فتقام على أنقاضه قصور السنة إلا بقول الحقّ ولوكره الحاسدون ، ولن تموت الرذيلة ، وتحيا الفضيلة ، إلا اذا قاوم المصلحون تلك العقول الجامدة ، وهزموا صفوف تلك النفوس الخامدة . ولعمرك إن الشجاعة فى مقال الحق لأعلى منارا ، وأرفع شأنا ، وأشرف منالا من اقتحام الهيجاء ، والحرب قائمة ، والرماح مشرعة ، والسيوف مصلتة ، ألا ان العالم بقوله يصلح الألوف والألوف ، ولذلك كان الصدّيقون أعلى من الشهداء مقاما ، وأقرب إلى الأنبياء مجلسا .

ألا أحدّثكم أيها الأذكياء بحديث السلف الصالح رضى الله عنهم ورضوا عنه ، إذ كانوا يصدعون بالحق و به يعدلون كأبى بكر الصدّيق وطاووس اليمانى وسفيان الثورى وعطاء بن أبى رباح وأبى حازم وعمر بن عبدالعزيز وغيرهم ، أولئك الذين هدى الله فقالوا الحقّ وصدقوا فى المقال ولم يخافوا لومة لائم ولم يخشوا إلا الله .

[روى] عن ضبة بن محصن العنزى قال : كان علينا أبوموسى الأشعرى أميرا بالبصرة ، فكان إذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وأنشأ يدعو لعمر رضى الله عنه ، قال فغاظنى ذلك منه ، فقمت إليه فقلت له : أين أنت من صاحبه تفضله عليه فصنع ذلك جمعا ، ثم كتب إلى عمر يشكونى يقول : إن ضبة بن محصن العنزى يتعرّض لى فى خطتى ، فكتب إليه عمر أن أشخصه إلىّ قال فأشخصنى إليه ، فقدمت إليه ، فضربت عليه الباب ، فخرج إلىّ فقال من أنت ؟ فقلت أنا ضبة ، فقال لى : لامرحبا ولا أهلا ، قلت : أما المرحب فمن الله ، وأما الأهل فلا أهل لى ولامال ، فبماذا استحللت ياعمر اشخاصى من مصرى بلاذنب أذنبته ، ولاشىء أتيته ، فقال ما الذى شجر بينك و بين عاملى ، قال قلت الآن أخبرك به : انه كان اذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبىّ ﷺ ثم أنشأ يدعو لك ، فغاظنى ذلك منه ، فقمت إليه وقلت له : أين أنت من صاحبه تفضله عليه فصنع ذلك جمعا ، ثم كتب إليك يشكونى ، قال : فاندفع عمر رضى الله عنه باكيا وهو يقول : أنت والله أوفق منه وأرشد ، فهل أنت غافر لى ذنبى يغفرالله لك قال : قلت غفر الله لك يا أمير المؤمنين ، قال : ثم اندفع باكيا وهو يقول : والله لليلة من أبى بكر ويوم خير من عمر وآل عمر ، فهل لك أن أحدّثك بليلته ويومه ؟ قلت نعم . قل : أما الليلة فان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد الخروج من مكة هاربا من المشركين خرج ليلا فتبعه أبو بكر وجعل يمشى مرة أمامه ومرة خلفه ، ومرة عن يمينه ، ومرة عن يساره ، فقال رسول الله ﷺ ما هذا يا أبا بكر ما أعرف هذا من أفعالك ! فقال يارسول الله أذكر الرصد فأكون أمامك ، وأذكر الطلب فأكون خلفك ، ومرّة عن يمينك ومرة عن يسارك ، لا آمن عليك ، قال فمشى رسول الله ﷺ ليلة على أطراف أصابعه حتى حميت ، فلما رأى أبو بكر انها قد حميت حمله على عاتقه . وجعل يشتدّ به حتى أتى فم الغار فأنزله ثم قال : والذى بعثك بالحقّ لاتدخله حتى أدخله فان كان فيه شىء نزل بى قبلك قبل فدخله فلم يرَ فيه شيئا فحمله وأدخله ، وكان فى الغار خرق فيه حيات وأفاع ، فألقمه أبو بكر قدمه مخافة أن يخرج منه شىء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيؤذيه ، وجعلن يضربن أبا بكر فى قدمه ، وجعلت دموعه تنحدر على خدّيه من ألم مايجد ورسول الله

صلى الله عليه وسلم يقول له : يا أبا بكر لاتحزن إن الله معنا فأنزل الله السكينة عليه والطمأنينة لأبي بكر ، فهذه ليلته .

وأما يومه فلما توفى رسول الله ﷺ ارتدت العرب ، فقال بعضهم : نصلى ولانزكى فأتيته لا آلو نصحا فقلت ياخليفة رسول الله ﷺ تألف الناس وارفق بهم ، فقال لى : أجبار فى الجاهلية خوار فى الاسلام ؟ فماذا أتألفهم ، قبض رسول الله ﷺ فارتفع الوحى ، فوالله لومنعونى عقالا كانوا يعطونه رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه ، قال فقاتلنا عليه فكان والله رشيد الأمر ، فهذا يومه .

ثم كتب إلى أبى موسى يلومه . أما طاووس اليمانى فانه كان من التابعين ، وكان من حديثه مع هشام ابن عبد الملك ، إذ أتى المدينة أن قال له هشام عظنى ، فقال : سمعت من أمير المؤمنين علىّ رضى الله عنه يقول : إن فى جهنم حيات كالقلال ، وعقارب كالبغال ، تلدغ كل أمير لايعدل فى رعيته .

وأما سفيان الثورى فقد كان من حديثه أنه لما دخل على أبى جعفر المنصور ، قال له أبو جعفر : ارفع إلينا حاجتك ، فقال : انما نزلت هذه المنزلة بسيوف المهاجرين والأنصار وأبناؤهم يموتون جوعا فاتق الله وأوصل إليهم حقوقهم ، فطأطأ المنصور رأسه .

وأما عطاء بن أبى رباح فانه لما دخل على عبد الملك بن مروان وهو جالس على سريره وأجلسه معه عليه ، قال ماحاجتك ؟ فقال ياأمير المؤمنين اتق الله فى حرم الله وحرم رسوله فتعهده بالعمارة ، واتق الله فى أولاد المهاجرين والأنصار ، فانك بهم جلست هذا المجلس ، واتق الله فى أهل الثغور فانهم حصن المسلمين وتفقد أمور المسلمين فانك وحدك المسئول عنهم .

وأما أبو حازم فانه لما سأله سليمان بن عبد الملك بقوله : أىّ الكلام أسمع ؟ أجابه : قول الحق عند من تخاف وترجو ، قال فأىّ المؤمنين أخسر ، قال : رجل خطا فى هوى أخيه وهو ظالم فباع آخرته بدنياه .

وأما عمر بن عبد العزيز فانه كان يوما مع سليمان بن عبد الملك فسمع سليمان صوت الرعد فجزع ووضع صدره فى مقدمة الرحل ، قال عمر : هذا صوت رحمته فكيف اذا سمعت صوت عذابه ! قيل ان عبد الملك ابن مروان خطب يوما بالكوفة فقام إليه رجل من آل سمعان فقال مهلا ياأمير المؤمنين اقض لصاحبى هذا بحقه ثم اخطب ، فقال وماذاك ؟ فقال ان الناس قالوا له مايخلص ظلامتك من عبد الملك إلا فلان فجئت به إليك لأنظر عدلك الذى كنت تعدنا به قبل أن تتولى هذه المظالم ، فطال بينه وبينه الكلام ، فقال له الرجل ياأمير المؤمنين : انكم تأمرون ولاتأتمرون ، وتنهون ولاتنتهون ، وتعظون ولاتتعظون ، أفنقتدى بسيرتكم فى أنفسكم أم نطيع أمركم بألسنتكم ؟ فان قلتم أطيعوا أمرنا واقبلوا نصحنا فكيف ينصح غيره من غشّ نفسه ؟ وان قلتم خذوا الحكمة حيث وجدتموها ، واقبلوا العظة ممن سمعتموها ، فعلام قلدناكم أزمة أمورنا وحكمناكم فى دمائنا وأموالنا ، أوماتعلمون أن منا من هو أعرف منكم بصنوف اللغات ، وأبلغ فى العظات ، فان كانت الأمانة قد عجزت عن اقامة العدل فيها بخلوا سبيلها وأطلقوا عقالها يبتدرها أهلها الذين قاتلتموهم فى البلاد وشتتم شملهم بكل واد . أما والله لئن بقيت فى يديكم إلى بلوغ الغاية واستيفاء المدة لتضمحلنّ حقوق الله وحقوق العباد ، فقال له : كيف ذلك ؟ فقال لأن من كممكم فى حقه زجر ، ومن سكت عن حقه قهر ، فلاقوله مسموع ، ولاظلمه مرفوع ، ولامن جار عليه مردوع ، وبينك وبين رعيتك مقام تذوب فيه الجبال حيث ملكك هناك حامل ، وعزك زائل ، وناصرك خاذل ، والحاكم عليك عدل ، فبكى عبد الملك على وجهه يبكى ، ثم قال له فماحاجتك ؟ فقال عاملك بالسمارة صلعنى ، وليله لهو ، ونهاره لعب ، ونظره زهو ، فكتب إليه باعطائه ظلامته ثم عزله .

قال الجاحظ فى كتاب [البيان والتبيين] حدّثنا يزيد بن هارون قال أخبرنا هشام بن حسان عن الحسن أن زيادا بعث الحكم بن عمرو على خراسان فأصاب مغنما ، فكتب إليه زياد : « ان أمير المؤمنين معاوية كتب إلىّ يأمرنى أن أصطفى له كل صفراء و بيضاء ، فاذا أتاك كتابى هذا فانظر ما كان من ذهب وفضة فلا تقسمه واقسم ماسوى ذلك » .

فكتب إليه الحكم : « إنى وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين ، ووالله لو أن السموات والأرض كانتا رتقا على عبد فاتقى الله لجعل الله له منهما مخرجا والسلام » ثم أمر المنادى فنادى فى الناس أن اغدوا على غنائمكم فقسمها بينهم .

وانا نحمد من ضبة ومن بعده صدقهم ولكن لا نشاد الناس مشادّتهم ، قل الحق وتاطف ، لا تكن فظا فلكل مقام مقال ، وللكلام مواطن . ولقد جرّب الناس قديما القول فرأوا أنجعه فى العقول ألطفه ، وأنفعه فى النفوس أجله . قال تعالى لموسى وهرون عليهما السلام : « فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » . وقال تعالى على لسان نبيه عليه السلام : « و إنا أو اياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » .

فاياك أن تقلد كل ما تسمع ، بل اعرض كل شىء على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وتذكر قول الله تعالى : « ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر » . واذا قرأت فى تاريخ اليونان أن سولون الحكيم قابل اكرسيوس فى مملكة ليديا وهو فى أبهته وسلطانه وعظمته متجملا بأفخر الثياب ، متحليا هو وأعوانه وأرباب دولته بأنواع الحلى الملكية ، والجواهر الغالية الثمينة ، فقال اكرسيوس لسولون : هل رأيت أحدا يلبس ملابسى ؟ فقال نعم الديوك الأهلية والبرّية والطاووس ، فغضب ثم قال : هل رأيت أحدا أسعد منى ؟ فقال الملك طيلوس من أهل مدينة أثينا مات سعيدا قرير العين بنصرة وطنه ، ولقد حزن عليه سائر البلاد ، فهذا أسعد منك ، ويليه أخوان اسم أحدهما [كليوبيس] واسم الآخر [بيطون] ، كانا فاضلين صالحين ، أكرما أمهما الصالحة ، حتى انهما جرّا عربتها إلى المعبد ، فدعت لهما ، وأثنى الناس عليهما فانا صالحين ، مرضيا عليهما من الله والناس ، وعند ذلك غضب اكرسيوس وظنّ أن سولون مجنون ، ثم عرف له فضله بعد حين إذ وضع على النار ليحرق فصرخ بقوله [سولون] فزحزح عن النار ، وسأله الملك عدوّه فأخبره بما جرى له مع سولون فانخلع قلبه وأطلقه .

واذا سمعت عن ذلك الحكيم الهندى [بيدبا] مؤلف كتاب [كليلة ودمنه] وقد دخل على ملك الهند وأغلظ له فى القول ، وقال : لقد ظلمت الرعية ، وأضعت ملك آبائك ، وخربت البلاد ، وأضعت العباد ، فحبسه ثم أطلقه ، وولاه الملك بعد حين ، فاعلم أن هؤلاء قالوا الحقّ ، ووطنوا أنفسهم على المكاره ، فخذ من الناس ضوءها ، واعتدل فى قولك ، وتابعهم فى قول الحق ، واصلاح شأن الأمة ، واعدل عن الشتم ، فذلك خير وأحسن تأويلا ، واقرأ قوله تعالى : « وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للانسان عدوّا مبينا » ، وقوله : « وقولوا للناس حسنا » وقوله : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك و بينه عداوة كأنه ولىّ حميم ، وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » وقوله تعالى : « وليتلطف » .

واعلم أن الأطباء انما يضعون الدواء المرّ فى غلاف ليسهل تعاطيه ، فلتكن أطباء صالحين . واذا رأيت نفسك خائرة القوّة ، هيابة ، تفرّ من الظلام ، وتفزع من الأحلام ، فسلط على الجبن ضده ، وأيقظ النفس من خمولها وخمودها ، وحركها إلى الأنفة والشمم والاباء ، وعدم تحمل الضيم ، وافعل ما حكاه ابن مسكويه عن بعض المتفلسفين أنه كان يتعمد مواطن الخوف فيقف فيها ويحمل نفسه على المخاطرات العظيمة بالتعرّض لها ،

ويركب البحر عند اضطرابه وهياجه ليعوّد نفسه الثبات فى المخاوف ويهيج منها القوّة التى تكمن عند الحاجة الى حركتها ، ويخرجها عن رذيلة الكسل ولواحقه .

ولقد كنت وأنا بالجامع الأزهر الشريف أقرأ هذا الكتاب ، فأخذت أعلم نفسى علم الشجاعة كما فى ابن مسكويه ، وما أحسن مدارس التعليم ، فليكن لفضيلة الشجاعة التعليم العسكرى ، وبعض الأمم المتحضرة تعلم أبناءها عموما النظام العسكرى كما فى سويسرا ، ألا فلتفعل مصر ذلك كما أوضحنا فى كتابنا [نهضة الأمة وحياتها] الذى قصدت به نظام الأمة علما وسياسة وعملا .

فلعمرك إن الجبن سجن المترفين ، قيدهم بأغلال وصفدهم فى الأداهم ، ولعلكم قرأتم كتاب [السبق والرمى] فى علم الفقه والناس غافلون لا يعلمون لم وضع هذا الباب ، وما أغفل المسلمين اليوم عن هذه الفضيلة ، فاذا لم توقظ الحكومات الناس فليقم الأفراد بتربية أبنائهم ليدلوهم على فطرهم الانسانية ، فذلك أبقى للاسم وأحسن وأشجع للأفراد ، فاذا ماتت الشجاعة حلّ محلها الجبن ، واستولى الترف ، وحاق بالناس الهلاك : « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول فدمّرناها تدميرا » .

أسئلة

(١) اذكر شجاعة العرب الجاهلية .
(٢) قارن مابين حال المصريين اليوم وحال العرب الجاهلية فى الشجاعة .
(٣) ماذا ترى فى الشجاعة الوقتية المكانية أهى نافعة للأمم ؟ .
(٤) وماذا يجب على مربى الأمة المصرية فى شجاعتهم ؟ .
(٥) قارن حال انتقال الأمة العربية من حيّة الجاهلية بحال تربيتنا المصرية الآن .
(٦) ماقصة ضبة مع عمر بن الخطاب ، وماترى فى شجاعته الأدبية ؟ .
(٧) أعط فكرة عامة على الشجاعة الأدبية فى صدر الاسلام .
(٨) قارن ذلك بحالنا اليوم .
(٩) مادواء الجبن ؟ .
(١٠) هل تستنتج من الأبواب السابقة فى الكتاب أسباب الشجاعة وعلاجا آخر للجبن .
(١١) اذا قسا المعلم على التلاميذ فماذا تكون شجاعتهم ؟
(١٢) اذا قهرت الحكومة الأمة وقست عليها فماذا تكون حال الأمة ؟ .
(١٣) ماذا يجب على المعلمين وعلى الحكام حتى لا يميتوا الشجاعة ؟ .

الكرم والبخل

من أدّى من ماله واجب الشرع ، وواجب المروءة اللائقة به فهو الكريم ، ومن قصر فيما وجب عليه منهما فهو البخيل ، فمن شاح فى المحقرات وضايق فى الصغائر والهنات مع الخدم ، أو أصال فى مشاحة عياله وأهله أو قريبه على نفقة وسم بالبخيل ، ولا قيد يحصر أقسام البخل وأوصاف البخلاء إلا العادة والعرف ، فلقد ينفق الرجل كثيرا ويشح بالقليل فيحسب بخيلا فانه قصر حيث ينبغى الايفاء ، ومنع حيث يجدر الاعطاء ، لا كرم إلا حيث يكون البذل محبوبا ، والعطاء مرغوبا ، والافتكرم وتكلف ، سبب البخل غلبة الشهوات وطول الأمل ، ورحمة الولد ، وخوف الفقر ، وقلة الثقة بمجيء الرزق ، وعشق المال لذاته .

من غلبت عليه شهواته فليعلم أنها نار تلظى مهما أمدّها بالوقود احتدم وطيسها ، وغلت مراجلها ، وارتفع لهبها ، وقالت هل من مزيد ، ومن طال أمله فليتذكر الاخوان والأقران الذين طمعوا كما طمع ، وجمعوا كما جمع ، ثم اختطفهم المنون ، وهم عن التذكرة معرضون ، ومن جمع المال للولد فليعلم أنه ان يكن من المؤدّبين المتعلمين فقد عاش كما يحيا المجتهدون ، ولله فى خلقه شؤون ، وان كان ممن ارتطموا فى أوحال الشهوات ، وباعوا أنفسهم للموبقات ، وعكفوا على اللذات ، فالمال طامّة كبرى ، وآفة عظمى ، ومجلبة لشقائه ، وزيادة فى بلائه .

ومن خاف الفقر وقلت ثقته بالله عزّوجل فليكشف الغطاء عن عينه ، وليتفكر فى الحشرات والطيور والبهائم « وكأين من دابة لاتحمل رزقها الله يرزقها واياكم وهوالسميع العليم » . ومن أصبح عاشقا للمال مغرما بجمعه كان كالشيخ الهرم الذى جمع مالا وعدّده ، يحسب أن ماله أخلده ، تحت أطباق الثرى حتى لايرى فلقد علم أنه لاينفعه فى حياته ، ولاينتفع به بعد مماته ، ومن ابتلى بهذا الداء فقلما يرجى علاجه . وقدقلت :

وما هذه الدنيا سوى البرق لامعا ✲ فهذا به يلهو وذا رائد القطر
وماهذه الدنيا سوى الروض يانعا ✲ وأثمارها حسن الأحاديث والذكر

فمن كرمت نفسه ، وأنفق ماله ، انطلقت الألسنة بمدحه ، وتناقلت الركبان ثناءه ، وحنى ثمرات عمله كرتين فى الدنيا والآخرة كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين ، فمن أنفق فلنفسه يرجع الثناء ، وله يكون الهناء ، ومن قتر فهوالمحروم ، المبعد عن الله والناس . هاأنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه . وتذكر ماخاطب به حاتم ماوية بنت عمزر :

أماوى ان المال غاد ورائح ✲ ويبقى من المال الأحاديث والذكر
أماوى انى لا أقول لسائل ✲ إذا جاء يوما حلّ فى مالى النكر
أماوى إما مانع فمبين ✲ واما عطاء لاينهنهه الزجر
أماوى مايغنى الثراء عن الفتى ✲ اذاحشرجت يوما وضاق بها الصدر
أماوى ان يصبح صداى بقفرة ✲ من الأرض لا ماء لدىّ ولاخمر
ترى أن ما أنفقت لم يك ضرّنى ✲ وأن يدىّ مما بخلت به صفر
لقد علم الأقوام لوأن حاتما ✲ أراد ثراء المال كان له وفر

النفوس الكريمة تريد أن تكون شموسا مشرقة وآنية فياضة ، فيجودون بالموجود من صدقة ، ويأملون لقلة ذات اليد حرصا على الكرم . قال الامام الشافعى :

ياهف قلبى على مال أفرّقه ✲ على المقلين من أهل المروءات
إن اعتذارى إلى من جاء يسألنى ✲ ماليس عندى لمن إحدى المصيبات

ومما يسرّ عند السمر ، ويحلو فى البدو والحضر ، مايروى أن أبا تمام دخل على ابراهيم بن شكلة وامتدحه بأبيات وكان عليلا فتقبلها وأمر حاجبه أن يبوّئه مبوّأ صدق ، ويعدّ له نزلا ومرحباسهلا حتى يبل من مرضه ، فأوحشه طول المقام ، فكتب إليه يقول :

ان حراما قبول مدحتنا ✲ وترك مايرتجى من الصفد (١)
كالدنانير والدراهم فى الـ ✲ ـبيع حرام إلا يدا بيد

فلما وصل اليتان إلى ابراهيم قال لحاجبه : كم أقام بالباب ؟ قال شهرين ، قال أعطه ثلاثين ألفا وجئنى

(١) العطاء

بدواء ، فكتب إليه يقول :

أعجلتنا فأتاك عاجل برّنا ✲ قبلا ولو أمهلتنا لم نقلل

فخذ القليل وكن كأنك لم تقل ✲ ونكون نحن كأننا لم نفعل

أذلك خير أمن صار مثلا فى الآخرين ، ونكالا فى الغابرين ، كمثل أعرابىّ أقبل يطلب رجلا و بين يديه تين فغطى التين بكسائه ، فجلس الأعرابى ، فقال له الرجل : هل تحسن شيئا من القرآن ؟ قال نعم ، فقرأ « والزيتون وطور سينين » . فقال : وأين التين ؟ قال هو تحت كسائك . انتهى ما أردته من كتابى « جوهر التقوى » وبهذا تمّ الكلام على اللطيفة الرابعة فى قوله تعالى : « مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الخامسة

فى قوله تعالى : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد »

اللهم إنى أحمدك على نعمة العلم التى لا نعمة تفضلها ، وأشكرك على جزيل مواهبك ، وجميل آلائك ، فلقد فتحت باب العلم فتحا مبينا ، وشرحت صدرى لهذا التفسير ، وأصح مافى كتابك من المعانى الغائبة عن الناس أشبه بالملموس باليد ، المنظور بالعين ، المسموع بالأذن ، فأنت يارب العلم والملهم ، وأنت رب العالمين . من ذا الذى كان يختلج فى صدره أن معانى هذه الآية التى ذكرت فى أحوال الآخرة أصبحت كالمشاهد المحسوس الذى تدل أوائله المشاهدة على أواخره الغائبة ، إن هذه الآية قد ضمت فى خواها جميع مايتاب الناس فى الحياة الدنيا من الاذلال والآلام وهم لايشعرون :

(١) إن أوّل ما أيقظنى لمعناها ما اتفق لى وأنا شابّ ، وقد جلست مع الفلاحين فى قريتنا ، وسمعتهم يذكرون رجلا انتابه مرض خاص لاأتذكره ، وكلما وضعوا البطيخ فى فمه فأكله اعترته حال شديدة فعطش فأعطوه غيره ، فخطرت لى هذه الآية حالا ، وقلت فى نفسى : هذه جهنم قد ظهرت فى معدات الانسان ، وفى حرصه وطمعه ، وجميع أحواله ، وهذا الذى سمعته الليلة ماهو إلا اعلام من الله لى بتفسير هذه الآيه ، إن إلحاح الشهوات والعطش المستمرّ على هذا المريض هوعينه مايحسّ به الفقراء والأغنياء والعلماء والجهلاء والملوك والسوقة من الرغبات التى لاحدّ لها فى جميع أطوار الحياة ، إذن هذه الدنيا مبادئ جهنمية غاية الأمر أنها خفية لم يتفطن لها الناس .

(٢) ولما دخلت مدرسة [دار العلوم] وكنت مرّة فى زمن العطلة الصيفية ، وقد توجهت إلى القاهرة فزرت حديقة الحيوانات بالجيزه يوما ثم رجعت قابلنى وأنا راجع عند الكوبرى رجل جعتى واياه المصادفات فى المدة التى فتح فيها الكوبرى لمرور المراكب فقصّ علىّ قصصا ، قال : أنا كنت متعلما فى مدرسة الألسن التى أنشأها المرحوم محمد على باشا . ثم صرت موظفا ، وهناك أحوال حاصة أزعجتنى المنزل فأصبحت لاعمل لى فلزمت بيت الخان ، وصرت مدمنا ، ولى أصدقاء مدمنون مثلى . ولكنى وقتما هو ما أتذكر ما كنت أسمعه من الأساتذة : « إن شارب الخمر يصابون بأمراض تفتك بهم » وهما تقرر حرب شعواء بين هذه الشهوة التى ملكت قيادى و بين العلم الذى لا أشكّ فى صدقه القاطع بضرر الخمر . وهما العذاب الواصب الذى ملأه من دافع ، فأنا دائما بين نارين : نار الخوف الدائم من حلول الأوصاب والأمراض ، و نار الشهوة المحرقة المطلعة على فؤادى ، وطالما ذهبت إلى سيدنا الحسين ، وصليت فى مسجده ، وطلبت من الله أن يريحنى من هذا العذاب ، فأتوب يومين ، فيرجع لى إخوان السوء ، فيلحون علىّ ، فأرجع كرة أخرى . ولكن هذه

المرة قد تركت تعاطى الخمر (١٤) يوما ، فأنا فرح بهذه النعمة ، وعسى الله أن يتوب علىّ إنه هو التوّاب الرحيم ، وهنالك أقفل الكوبرى فمررنا عليه وسلم علىّ وانصرف اهـ

ولاجرم أن هذه حال هذا الانسان كله فيما يحيط به ، غاية الأمر أن السكارى هم أوضح مثال لما علق بالناس من العادات ، وأحوالهم صورة ظاهرة واضحة لآيات كثيرة فى وصف أهل جهنم كقوله تعالى : « يريدون أن يخرجوا من النار وماهم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم » وقوله : « ويأتيه الموت من كل مكان وماهو بميت » الآية ، وقوله : « كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غمّ أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق » . وقوله : « فان له جهنم لايموت فيها ولايحيى » ، وقوله : « وقالوا ياليتنا نردّ ولانكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون » وقوله : « كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » .

ومن أعجب العجب أن يذكر فى الاهرام حديث يشبه الحديث المتقدم يوم السبت ٩ أغسطس سنة ١٩٣٠ و بين هذا الحديث والحديث الذى سقته لك الآن ٤٠ سنة ، والحديثان متشابهان غاية الأمر أن الحديث فى هذه السنة (١٣٥٠ هجرية) وهى سنة طبع هذه الأجزاء يدل دلالة واضحة على تقدم الفحشاء والمنكر فى بلادنا المصرية تقدما محسوسا ، فان الفتى الذى قابلنى عند الكوبرى كان يبكى ويحزن لأجل الادمان على شرب الخمر ، وأقوى عامل أورث شيوع الخمر فى بلادنا اضلال الاستعمار بين من أهل أوروبا لشبابنا ، وبهم استأصل داء الجهالة والغواية ، والفقر والدين واستحكم وأفسد الطباع ، ونجح الاوروبيون نجاحا عظيما فى إفساد أبنائنا بسبب الامتيازات الأجنبية ، وأهل الرأى فى البلاد عاجزون عن تربية هذا الشعب ، وأكثر العقول منصرفة عن حقائق العلوم ، عاكفة على ظواهرها وعلى حفظ اللغات ، وذلك كله بفتنة الاستعمار التى لم تجد لها مرتعا خصيبا إلا فى بلادنا : و « لله الأمر من قبل ومن بعد » .

واعلم أن هذا الشاب الذى قابلنى عند الكوبرى هو وأمثاله مثل ساقه الله لتفسير هذه الآية ، وهذا المثل ليس خاصا بهذا الفتى ، بل الناس كلهم تحكمهم عادات وأخلاق لايجدون عنها محيصا كما قدّمت ذلك من قبل فهم نحن أولاء نشاهد أنفسنا قد اعتدنا على ملابس وما كل ومشارب وأحوالا اجتماعية لانجد منها مخرجا ونقول نفس مايقوله هذا الفتى سواء بسواء ، نحن نأكل الأطعمة الضارّة بالصحة ثم نذم هذه العادة التى ملكتنا ، وهانحن أولاء نسمع بحديث الفيتامين المتقدم الذكر فى [سورة ص] عند قوله تعالى : « فبعزتك لأغوينهم أجمعين » فنريد أن نحافظ على صحة أجسامنا ، وجمال عقولنا ، فنأكل الفواكه والخضر والحبوب ونحو ذلك فنجد العادات التى ورثناها لنا بالمرصاد ، ونسمع علماء الطب يقولون لنا : « إن مقابلة الأجسام للشمس والهواء أو أكثرها تورث صحة وعافية ، وأن كثرة الملابس تحجب الأجسام عن الشمس والهواء وهما النعمة العظمى للصحة » فنجد العادات تقول لنا : لتبقوا محجوبين عن الشمس ، ولتكونوا ضعافا خوفا من الفضيحة والعار ، ونرى المحرم بالحج قد لبس الملابس الخفيفة تعبدا ، فنقول : هذا ديننا قد فتح لنا باب الصحة ، فمالنا لانلبس كما يلبس العرب فى البادية والمحرم بالحج ، فتقف عاداتنا سدّا حصينا بيننا و بين الصحة والعافية ، ونرى الأمم الاوروبية قد أخذت علوم آبائها وانتفعت بها والقرآن يحضّ علىها ، والطيارات أحاطت بنا من كل جانب ونحن أبناء العرب ممزقون متفرّقون ، فالمصريون أمة ، وأهل تونس أمة ، وأهل الجزائر أمة ، وأهل مراكش أمة ، وفى سورية أمم بفعل أهل أوروبا تفريقا لنا ، وفى العراق أمة ، وفى نجد ، وفى الحجاز أمة ، وفى اليمن أمة ، وكل هؤلاء متباعدون متفرّقون ، ومتى أراد عقلاؤهم الخروج من هذا التفرّق قابلتهم عاداتهم وأهواؤهم ، وما ورثوه من آبائهم فى القرون المتأخرة ، فاستمرّ التفريق ودخول الدخلاء بينهم

مما لم تتصف به أمة غيرهم فى زماننا من الفرس والألمان والانجليز والأسبان وغيرهم ، ولكن هذا التفسير وأمثاله سيكون من أسباب التغلب على العادات الموروثة ان شاء الله تعالى ، وستزول الآلام الشخصية والاجتماعية « فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين » والحمد لله رب العالمين .

جوهرة فى اعجاز القرآن من حيث بلاغته

حديث عجيب فى بلاغة آية : يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد

فى يوم ١٣ يونيو سنة ١٩٣٢ قابلنى الأديب المصرى الاستاذ كامل كيلانى فحدثنى حديثا عجيبا كان أشار إليه قبيل ذلك بمدة قبيل تقديم هذه السورة إلى الطبع ، وهذا الحديث راجع إلى البلاغة التى ظهرت فى آية : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » فهاك حديثه :

قال : كنت مع الاستاذ [فنكل] وهو من أفاضل المستشرقين الأمريكيين ، وكانت بينى وبينه صلات أدبية وثيقة : وكان يأخذ برأيى فى ذكر المشاكل التى تقابله فى الأدب لما يعتقده فىّ من الصراحة ، ففى ذات يوم همس فى أذنى متهيبا ، فقال : خبرنى عن رأيك بصراحتك المعروفة ؟ أمن يعتقدون اعجاز القرآن أنت ، أم لعلك تجارى جمهور المسلمين الذين يتلقنون ذلك كابرا عن كابر ؛ وابتسم ابتسامة كل معانيها لاتخفى على أحد وهو يحسب أنه قد ألقى سهما لاسبيل إلى دفعه ، فابتسمت له كما ابتسم لى وقلت : لكى نحكم على بلاغة أسلوب بعينه يجب أن نحاول أن نكتب مثله أو نقلده فلنحاول ليظهر لنا أنحن قادرون أم عاجزون عن محاكاته وتقليده ، فلنجرّب ان نعبر عن سعة جهنم فماذا نحن قائلون ؟ فأمسك بالقلم وأمسكت به ، فكتبنا نحو عشرين جملة متخيرة الأسلوب نعبر بها عن هذا المعنى أذكر منها :

(١) إن جهنم واسعة جدّا .
(٢) إن جهنم لأوسع مما تظنون .
(٣) إن سعة جهنم لايتصوّرها عقل انسان .
(٤) إن جهنم لتسع الدنيا كلها .
(٥) إن الجنّ والانس اذا دخلوا جهنم لتسعهم ولا تضيق بهم .
(٦) كل وصف فى سعة جهنم لايصل إلى تقريب شىء من حقيقتها .
(٧) إن سعة جهنم لتصغر أمامها سعة السموات والأرض .
(٨) كل ماخطر ببالك فى سعة جهنم فانها لأرحب منه وأوسع .
(٩) سترون من سعة جهنم مالم تكونوا لتحلموا به أو تتصوّروه .
(١٠) مهما حاولت أن تتخيل سعة جهنم فأنت مقصر ولن تصل إلى شىء من حقيقتها .
(١١) إن البلاغة المعجزة لتقصر وتعجز أشدّ العجز عن وصف سعة جهنم .
(١٢) إن سعة جهنم قد تخطت أحلام الحالمين وتصوّر المتصوّرين .
(١٣) متى أمسكت بالقلم وتصديت لوصف سعة جهنم أحسست تقصيرك وعجزك .
(١٤) إن سعة جهنم لايصفها وصف ، ولا يتخيلها وهم ، ولا تدور بحسبان .
(١٥) كل وصف لسعة جهنم إنما هو فضول وهذيان .

إلى آخر هذه الجمل التى لا أذكر إلا ماذكرت لتقدم العهد وطول الزمن . فقلت له مبتسما ابتسامة الظافر

الوائق : الآن تتجلى لك بلاغة القرآن وإعجازه بعد أن حاولنا جهدنا أن نحاكيه فى هذا المدنى ، فقال : هل أدّى القرآن هذا المعنى بأبلغ مما أدّيناه ؟ فقلت لقد كنا أطفالا فى تأديته ، فقال مدهوشا : وماذا قال ؟ قلت له : قال « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » ، فصفق أوكاد ، وفتح فاه كالأبله أمام هذه البلاغة المعجزة ، وقال لى : صدقت نعم صدقت ، وأنا أقرّر لك ذلك مغتبطا من كل قلبى (هذا لفظه) فقلت له : ليس عجيبا أن تذعن للحق وأنت أديب خبير بقيمة الأساليب ، وهذا المستشرق يجيد الانجليزية ، لأنها لغة بلاده فى أمريكا ، والألمانية لأنها اللغة التى درس بها الأدب ، والعبرية لأنها لغة الامومة ، والعربية لأنها اللغة التى وقف حياته على درس أدبها ، فهو رجل متخصص للأدب ، وقد جعل حياته وقفا عليه . انتهى الحديث .

هذا حديث الاستاذ [كامل كيلانى] ذلك الشاب الذى ظهر ببلادنا المصرية فى هذه السنين ، وله كتب منشورة نهج فيها منهجا حديثا .

موازنة بين الأدب فى هذا العصر اى سنة ١٩٣٢

وفى المدة الأولى أيام شبابى فى نحو سنة ١٨٨٧ م

ذلك أن مصر فى ذلك العهد كان فيها بعض الأدباء والشعراء ، وأنا كنت أتعلم إذ ذاك فى الجامع الأزهر ، ومن العجب أن السؤال الذى وجه إلى هذا الشاب الأديب وجهته إلى أستاذى العلامة الشيخ محمد النجدى ، وقد كنت أتلقى عليه الأدب بالطريقة القديمة إذ كنا نقرأ كتاب السعد للتفتازانى فى الأدب ، وكذلك الأشمونى فى النحو والصرف ، ونصرف زمن الشباب فى ذلك الأدب ، ونحن لانذوق منه شيئا ، ذلك أنى سألته خارج الدرس قائلا : ياسيدى أنت أعلم العلماء فيما أعلم بفن الأدب ، وأنا أعلم أنك مؤمن بأن القرآن حقّ و بأنه معجز فى فن البلاغة ، ولكن هل دقت أنت نفس هذه البلاغة ، وأحسست من غير أن تتأثر مما تلقيته عن الأشياخ ؟ فأجابنى قائلا . كلا . ياشيخ طنطاوى : ألاترى أننا نضيع حصة كاملة فى إعراب بيت فى كتاب الاشمونى أو اجراء استعارة تصريحية أومكنية أونحو ذلك ، وهل خرجنا من هذا السجن إلى جوّ البلاغة المضىء البهيج البديع ؟ . انتهى

عجبا يارباه : أمم الاسلام التى خلقت فيها هاهى ذه لما كنت أدرس الأدب وأناشاب لم يكن ذلك الأدب إلا آثارا ، أمم تذهب وأمم تجىء والأدب يقرأ والغاية منه مجهولة والطريق وعرة .

اللهم لك الحمد والمنة ، ها أناذا الآن أرى الأحوال قد تغيرت ، والوجهة انتظمت ، والعقول استنارت ، هاهوذا الأديب المصرى مع الأديب الأمريكى يرجعان بالأدب إلى حقيقته ويوازنان بين القرآن وكلام الناس ، وكانت النتيجة أن القرآن بليغ .

أيها المسلمون : قد استبان من هذا الحديث أن التعاليم القديمة فى الأدب أخذت تمحى ، وهاهى ذه الأجيال القادمة يظهر لى كما قلت مرارا فى هذا التفسير مقبلون على أيام علم وحكمة وأدب وسعادة وارتقاء . أوليس من العجب أن يكون سؤالى لأستاذى رحمه الله تعالى فى شبابى معادا عينه فى مشيبى ، ثم تكون الآخرة خيرا من الأولى ، أوليس من المدهش هذا الانقلاب السريع فى أمة الاسلام ، إذن ما كنت أتوقعه لأمة الاسلام وذكرته كثيرا فى هذا التفسير آت لاريب فيه والحمد لله رب العالمين .

[تذكرة] فى سورة الفاتحة موازنة بين بلاغة سورة الفاتحة وفواتح السور و بين بلاغة فواتح المعلقات فارجع إليها إن شئت . والى هنا تمّ الكلام على سورة ق والحمد لله رب العالمين .